حاجّ في مكة

الضابط البريطانيّ الذي دخل مكة والمدينة متخفيًا في زيّ عربيّ عام 1908

آرثر ويفيل

ترجمة وتقديم

محمد عزب مي موافي

25

حاج في مكة

محمد عزب - من موافي

2208/ 2014ط1

الترقيم الدولي / 978 - 977 - 5311 - 96 -2

غلاف / مروة فتحي

حقوق الطبع محفوظة لدى الناشر

ليليت للنشر والتوزيع

الإشراف العام / إيمان سعيد

مدقق لغوي أ/ جمال علي

المراسلات :

ت : 01022661632

lilettepublishing@gmail.com

معلومات عن الكتاب:

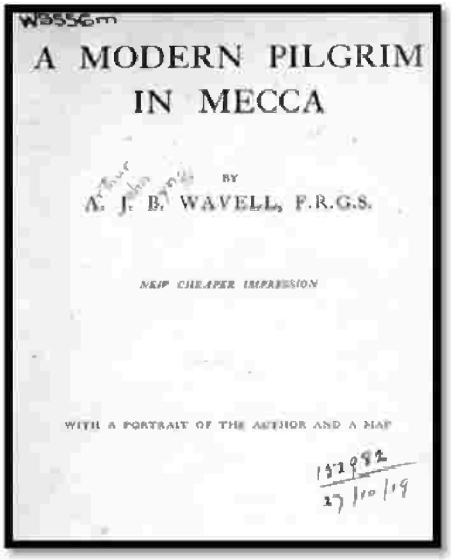
A MODERN PILGRIM
IN MECCA

BY
A. J. B. WAVELL, F.R.G.S.

NEW CHEAPER IMPRESSION

WITH A PORTRAIT OF THE AUTHOR AND A MAP

نُشر هذا الكتاب في إنجلترا عام 1912 قبل وفاة مؤلفه بأربعة أعوام. طبقًا لقانون حماية الملكية في المملكة المتحدة الصادر في إبريل 2000 والمعدل بتاريخ 27 نوفمبر 2009 فإن المدة القانونية لحقوق الملكية بالنسبة للأعمال الأدبية وما في حكمها هي 70 عامًا من وفاة المؤلف. تم مسح الكتاب إليكترونيًا ورفعه على الشبكة الدولية للمعلومات بواسطة موقع www.internetarchives.com بالتعاون مع جامعة "تورونتو" الكندية Toronto University .

المؤلف في سطور:

- مؤلف الكتاب هو الرائد / آرثر جون بنج ويفيل Arthur John Byng Wavell ، عضو الجمعية الجغرافية الملكية FRGS، الحاصل على الصليب الحربي MC نظرًا لجسارته وشجاعته.
- ولد عام 1882 لضابط في الجيش الإنجليزي برتبة عقيد، وابن عمه هو المارشال ويفل الذي ذاع صيته في النصف الأول من القرن العشرين.

- تلقى آرثر تعليمه في الكلية الحربية الإنجليزية المعروفة بـ "ساندهيرست".
- في عام 1900 تمركز في جنوب أفريقيا، وشارك في حرب "البوير" هناك، كما تمركز في شرق أفريقيا لبعض الوقت، وقام برحلات استكشافية لصحراء "كلهاري" وبحيرة "فيكتوريا".
- في عام 1908 تخفى في ملابس عربية كمواطن من زنجبار[1] ليقوم برحلة إلى الحجاز، وهي الرحلة موضوع الكتاب الذي صَدّره بإهداء إلى أمه "ماتليدا"، وأوصى بأن يذهب نصيبه من مبيعاته إلى "مستشفى غرب لندن".
- خلال عامي 1910 و 1911 ذهب إلى اليمن، وكان شاهدًا على الحرب هناك بين أنصار الإمام الزيدي والأتراك العثمانيين، وسطر مشاهداته في كتاب عدَّه البعض جزءًا تاليًا لكتابنا هذا ومكملًا له A Modern Pilgrim in Mecca[2] and a Siege in Sanaa ، وظهر في الأسواق عام 1918.
- جُرح في عام 1914 خلال الحرب العالمية الأولى في مدينة "مومباسا" الكينية حيث كان يمتلك مزرعة خاصة.
- في عام 1916 وأثناء استبساله في الدفاع عن خط سكك حديد أوغندا الهامّ جدًّا للإمبراطورية البريطانية، أغار الألمان على مجموعته، وسقط صريعًا في الاشتباكات.
- دُفن موقعَ سقوطه ثم نُقل جثمانُه لاحقًا إلى كاتدرائية "ونشيستر، هامبشير"، بإنجلترا.
- نعاه ليونارد تشارلز داروين Leonard Charles Darwin، رئيس الجمعية الجغرافية الملكية المعاصر له بهذه الكلمات: "كان شابًّا ضئيل الجسم، كثير الصمت، خفيف الظل، متَّقد الذكاء، محبًّا للمخاطرة."[3]

---

[1] مجموعة جزر تقع في المحيط الهندي شرق تنزانيا وتابعة لها. (المترجمان)
[2] يميل المسلمون الآن إلى كتابتها Makkah . (المترجمان)
[3] من مقدمة النسخة الإنجليزية لكتاب ويفل. (المترجمان)

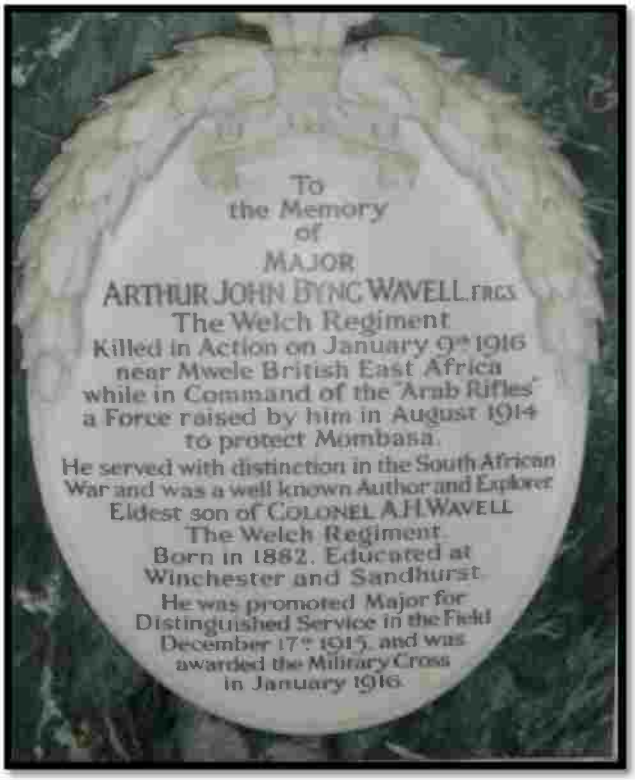
To
the Memory
of
MAJOR
ARTHUR JOHN BYNG WAVELL FRGS
The Welch Regiment
Killed in Action on January 9th 1916
near Mwele British East Africa
while in Command of the "Arab Rifles"
a Force raised by him in August 1914
to protect Mombasa.
He served with distinction in the South African
War and was a well known Author and Explorer
Eldest son of COLONEL A.J.H.WAVELL
The Welch Regiment.
Born in 1882. Educated at
Winchester and Sandhurst.
He was promoted Major for
Distinguished Service in the Field
December 17th 1915, and was
awarded the Military Cross
in January 1916.

أهمية الكتاب:

لا يختلف اثنان على أهمية كتابات الرحالة الغربيين كمصدر أساسي لتاريخ شبه الجزيرة العربية بصفة عامة وتاريخ الحجاز بصفة خاصة. وبالرغم من قرب هذه المنطقة جغرافيًّا من أوروبا إلا أنها ظلت في مجملها مكانًا مجهولًا للأوروبيين حتى مطلع القرن التاسع عشر حين زاد اهتمام المستكشفين والمستشرقين بهذه البقعة[1] لأسبابٍ عديدة منها:

- أسباب شخصية (الفضول وحب المغامرة).
- أسباب دينية (التنصير[2]).
- أسباب اقتصادية وتجارية (خاصة الخيول العربية).
- أسباب علمية بحثية (تلك التي كانت تدعمها الجمعيات العلمية).
- أسباب سياسية وعسكرية (الاستخبارات وتمهيد الطريق أمام الاستعمار).

كان ويفل أول من سافر من الرحالة الأوروبيين إلى المدينة المنورة بالقطار، وأفرد فصلًا كاملًا لخط سكك حديد الحجاز، الذي كان له عظيم الأثر في أحداث الثورة العربية.

[1] راجع كتاب "مسيحيون في مكة"، تأليف أغسطس رالي، ترجمة الدكتور حسن سعيد غزالة. (المترجمان)
[2] اللفظة الصحيحة لما يُطلق عليه "التبشير". (المترجمان)

ونحسب أن كتابنا هذا يندرج تحت التصنيف الأخير فكاتبه عسكري المنشأ، بل ونكاد نجزم أن ضابطي المخابرات البريطانية، "لورانس العرب" T. E. Lawrence (1888-1935) وجون فيلبي Harry St. John Phillby (1885-1960)، قد استفادا كثيرًا من كتاب ويفل فيما يتعلق بدورهما المعروف في تاريخ الجزيرة العربية.

نميل إلى الاعتقاد بأن ويفل كان مكلفًا بهذه الرحلة؛ وأنه لم يقم بها اختياريًّا خلال إجازته مثلًا، وأن وزارة الحرب البريطانية هي من وقفت وراءها، لا "الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية" كما هو مُعلن. ومن هنا يستمد هذا الكتاب أهميته التي لا تنفصل عن أهمية الشرق الأوسط للعالم بأسره. يؤكد هذا الطرح ما ذكره "دانيال مارتن فاريسكو" في مراجعته للكتاب: "من الصعب عدم النظر إليه (ويفل) كجاسوس بالرغم من زعمه المستمر بأنه كان ببساطة مفتونًا بالرغبة في المعرفة."[1]

[1] Daniel Martin Varisco, Chair Department of Anthropology, Hofstra University, Hempstead, New York.

Much of the text is about politics, especially how the Turks were losing power in Arabia and how they, in the author's view, looked at Europe. It is hard not to regard him as a "spy" despite his constant plea that he was simply under the spell of a "lust of knowing", as Robert Irwin might say.

باستثناء مقدمة الكتاب وبعض الحواشي التي تحدث فيها ويفل عن جغرافية شبه الجزيرة العربية وتاريخ الدولة الإسلامية، وأمور أخرى أقرّ أنه استقى معظمها من كُتاب لهم باعٌ في هذا المجال أمثال "هوجارث"[1] و"مرجليوث"[2] و"واشنطون إيرفنج"،[3] والتي ارتأينا حذفها لأنها لا تضيف جديدًا للقارئ العربي، نجح الكاتب في رصد عادات الناس وتقاليدهم بموضوعية شديدة، ولزم الحرص فلم يستخدم عبارات جارحة ولا مصطلحات تنصيرية، ولم يجاهر بالعداء أو ينتقد في استخفاف، وهي الأخطاء التي وقع فيها غيره ممن سافروا إلى الشرق على وجه العموم والمنطقة العربية على وجه الخصوص.

ويطيب لنا أن نُنهي هذه المقدمة المقتضبة بالجدول التالي الذي يحصر الرحالة الإنجليز الذين زاروا مكة قبل ويفل:

العام	الاسم	الكتاب الذي سجل فيه رحلته
1680	جوزيف بتس Joseph Pitts	رحلة جوزيف بتس، ترجمة ودراسة د/ عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995.

[1] D. G. Hogarth's "The Penetration of Arabia"
[2] D. Margoliouth's "Mohammed"
[3] Washington Irving's "Mahomet and His Successors"

1853	ريتشارد بيرتون Richard Burton	رحلة بيرتون، ترجمة وتعليق د/ عبد الرحمن عبد الله الشيخ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995.
	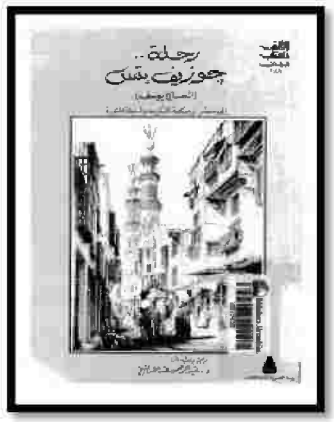	
1862	هيرمان بيكنيل Herman Bicknell	
1878	جون فراير كين John Fryer Keane	

الفصل الأول

من لندن إلى بيروت

كما نعلم فإن بمكة بيت حَظي بالتبجيل في الجاهلية. ولكي نفهم علة قضاء الرسول على عبادة الأصنام ونشر الإسلام دون المساس بقدسية الكعبة يتعين علينا أن نتتبع قصة بسيطة وردت في الكتاب المقدس، مع إعادة صياغتها طبقًا لوجهة النظر الإسلامية.

تعود أصول بناء الكعبة إلى آدم الذي سعى لمحاكاة بيت كان قد شاهده في الفردوس قبل هبوطه إلى الأرض. أعاد إبراهيم وإسماعيل البناء بعد الطوفان وكرّساه لعبادة الإله الواحد. مرت القرون وانحرف العرب عن الدين الصحيح فتعددت أوثانهم، لكن - بالرغم من هذا الميل والزيغ عن درب المعبود الحق الذي رُفعت قواعد البيت العتيق بغية مرضاته - ظل العرب يُجِلّون الكعبة. تلك كانت الأوضاع حين شرع محمد في نشر رسالته. مع بدء الدعوة ولّى المسلمون شطرهم في الصلاة نحو القدس. ولأن مفهوم القبلة هو الاتجاه نحو أقدس بقعة على وجه البسيطة، جاء الوحي ليستبدل مكة التي شرفت بأول وأطهر بيت؛ بالقدس . والحج إلى مكة وأداء المناسك مرة في العمر فرض على كل مسلم شرط توفر الاستطاعة.

يعتقد بعض النقاد من غير المسلمين أن تغيير القبلة يُعزى إلى أسباب سياسية وأن ما تناقله المكيون أنفسهم من أحاديث خلال فترة ليست هينة من حياة الرسول معهم قد شكلت هدفه الأساسي. واعتمد الرخاء المادي للمكيين في ذاك الوقت حتى يومنا هذا على قدسية المدينة، لذا كان الاحتمال الأكبر أنهم - عاجلًا أم آجلًا - سوف يصغون إلى دعوة الدين الجديد وصوت العقل، طالما أنه لن يمس قدسية البلدة. بهذه

الوسيلة الماهرة حقق محمد النجاح بل قد أضاف الكثير إلى هذه القدسية. كما يعتقد هؤلاء النقاد أيضًا أن صراعه مع اليهود كان أيضًا سببًا من أسباب تحويل القبلة.

مهما كان التفسير فإنه قد استقر في ضمير المسلمين أن الكعبة ومكة بل والإقليم المحيط بهما يتمتعون بصفة التقديس الشديد؛ حتى أنه لا يجرؤ غير الموحِّد على وطء هذه الأراضي المقدسة. هناك احتمال ضعيف أن الرسول حرمها على اليهود والنصارى. فقد تمتع بعقلية أكثر تفتحًا من خلفائه، لكنهم فسروا أحاديثه على هذا النحو. ومن الغريب أنه لم تُسجل واقعة واحدة لشخص جاهر بانتهاك هذه التعليمات وعاد يحكي لنا قصته.

امتد تأثير هذا الحظر ليشمل المدينة التي تمتعت بقدسية خاصة؛ ذلك لأن الرسول وكثيرًا من صحابته قد دُفنوا فيها. من أجل هذا تضع أغلب الفرق الإسلامية قيمة كبيرة على هذه الزيارة، ويرى الشيعة أنها تعدل حجة.

لذا ليس من المستغرب حقًّا أن تُثير هاتان المدينتان بسِماتهما الفذّة الفضولَ الشديد لأوروبا الغربية. وقبل أن نستطرد ليكن واضحًا أنه بمقدور أي شخص أن يزورهما بعد أن يعلن إسلامه. ينبغي عليك لكي تعتنق هذا الدين أن تذهب إلى القاضي لتردد بعض الصيغ، ثم تخضع، في أغلب الأحيان، إلى عملية جراحية بسيطة،[1] ويلي ذلك التورع لكي يشهد المسلمون الذين تخالطهم بأنك مخلص في اعتناقك لهذا الدين، ومن ثم تستطيع أداء فريضة الحج. وإذا كنت من الصابرين ودأبت على مراسلة ديوان الخارجية والباب العالي فقد تظفر بعد استنفاذهما لكل الذرائع والحجج والأعذار بجواز سفر خاص. عند حصول شخص ما على هذا الجواز تصبح الحكومة العثمانية مسؤولة عن شئونه فتُمكنه من السفر إلى مكة والمدينة دون التعرض لمخاطر، وربما وفرت له أيضًا العناية والإرشاد. وعلى وجه

[1] الختان. (المترجمان)

العموم فإن هذه الشرعية أو الحماية لا تدفع عن هذا الشخص فضول الناس أو شكوكهم.

البديل الوحيد لزيارة هذه الأماكن هو التنكر، وهو أمر قد لا يروق للبعض. سلكت هذا النهج بين عامي 1908-1909 مدفوعًا بحب الاستطلاع جزئيًّا وكليًّا برغبة في التوغل داخل هذه الأراضي متخفيًا. بعد أداء المناسك بمكة في أيام معدودات يُعرف الشخص بالحاجّ، وهو لقب عظيم النفع للمسافر في الأقطار الإسلامية لما يقترن به من سمعة طيبة.

وتروي الصفحات التالية التي قمت بتدوينها عقب عودتي قصة هذه الرحلة التي لم يخطر على بالي آنذاك فكرة نشرها في كتاب. تُظهر هذه الرحلة بكل الأشكال الممكنة حقيقة أن الحجاز - كما كان دومًا - أرض عصيّة على الاختراق. وأجد لزامًا عليّ أن أوضح عند هذه النقطة أن "مسعودي" هو شخص من أصول سواحلية عملت على اصطحابه من "مومباسا" إلى إنجلترا ليساعدني في إنجاز مشروعي هذا؛ وأما "عبد الواحد"[1] فهو عربي من حلب مقيم في برلين وعمل لحسابي لاحقًا.

تجمع ثلاثتنا في ميناء "مرسيليا" يوم 23 سبتمبر 1908. كان من المفترض أن يبدأ الحج ذاك العام في مطلع شهر يناير. ويرجع تبكيرنا إلى ما عقدت عليه النية من زيارة المدينة (المنورة) أولًا، وقبلها المكوث لبعض الوقت في دمشق حتى أتقن تقمص الشخصية الشرقية، فيطمئن قلبي قبل ولوجي في الأراضي المحرمة.

أول ما واجهنا من صعاب هو استخراج جواز سفر لي ولمسعودي. كان لعبد الواحد جواز يحتاج فقط إلى التجديد. قمنا ببعض الإجراءات لكي نتغلب على هذه المشكلة فظفرت بجواز سفر تركي أُدعى فيه "علي محمد"، في الخامسة والعشرين من

---

[1] في عرضه للكتاب بمجلة "Asian Affairs"، عدد نوفمبر 2006 أوضح John Shipman أن ويفل عمد إلى إخفاء شخصية عبد الواحد؛ وأن الأخير كان يُدعى "عبد المجيد" ويقيم بلندن ويمتهن التدريس والترجمة؛ وأنه كان شيعيًّا من بغداد. (المترجمان)

العمر، مواطن من "زنجبار" يقصد مكة. وقعت هذه الوثيقة لاحقًا في يد السلطات التركية فأثارت بعض المتاعب، ولم يكن أمامي مناص من الادعاء أن المسؤول الذي أصدرها لم يدرك أنني إنجليزي وأنه لم يتقاض أي رشوة لإنهاء هذا الأمر.

وصلنا إلى تسوية مُرضية فيما يتعلق بمسألة جوازات السفر، وتطلعنا إلى مغادرة مرسيليا. كان الفندق الذي أقمنا به رخيص الثمن (ثلاثة فرانكات في اليوم)، كما كان نتن الرائحة. أمضينا الظهيرة في التردد على شركات الملاحة آملين أن نحصل على تذاكر نوم درجة ثانية إلى مصر أو سوريا، لكن باء سعينا بالفشل. الحجز الوحيد الذي وجدناه متاحًا كان على الدرجة الأولى أو الثالثة لباخرة مملوكة لشركة P & O[1] وكلاهما لا يناسبنا.

عندها لاحت لي فكرة الذهاب إلى "جنوة" لمعرفتي أن بها شركات بحرية أقل شهرة تزاول نشاطًا في الشرق وفيها - كما هداني تفكيري - يصعب اكتشاف حقيقة أمرنا إذا اضطررنا للمكوث لفترة طويلة، زد على ذلك أني لم أطأ هذه المدينة من قبل. بعد أن عقدنا العزم أمضينا بعض الوقت في عمل الترتيبات الجديدة، وغادرنا "مرسيليا" عند انتصاف المساء لنصل "جنوة" في اليوم التالي في تمام الساعة الرابعة عصرًا. أوينا إلى فندق رخيص في الطريق المؤدي إلى محطة الركوب. كانت حالة الفندق مزرية، لكن أسوأ ما فيه وأكثر ما أثار حنقي هو الضجيج الذي لا ينقطع في الشوارع الممهدة، لدرجة أننا ألفينا صعوبة في سماع بعضنا البعض من فرط الصخب. مع حلول المساء مضينا إلى مكاتب الملاحة، وحصلنا أخيرًا على قمرة درجة ثانية على متن باخرة تدعى "فاليرنو"، وكانت أول السفن المُخطط إبحارها بعد ثمانية أيام. لم يكن أمامنا بدّ من الصبر والانتظار بسبب هذه الظروف.

---

[1] "شبه الجزيرة والشرق" Peninsular and Orient . (المترجمان)

لم نفعل في "جنوة" أي شيء جدير بالذكر عدا تناول الطعام والنوم والقراءة والتجول في المدينة حتى تملكنا السأم. كان جيراننا من نزلاء الفندق تجارًا إيطاليين لا يميلون إلى الخلطة ولا يتمتعون بحب الاستطلاع.

مساء يوم وافق الثلاثاء ركبنا الباخرة. كانت "فاليرنو" التي تناهز حمولتها الألفي طن سيئة المنظر. جُهزت قمرتنا بستة مضاجع وردهة متعددة الأغراض. خلا سطح المركب تمامًا من نزلاء الدرجة الثانية، واقتصر على عدد محدود من ركاب الدرجة الأولى المميزة. مضت الأيام الأولى على السفينة بشكل هيّن يسير فلم يكن بها غيرنا، لكن بعد أن رست في "نابولي" شُغلت كل المضاجع. وفي الأوقات التي ثار فيها البحر أصاب المقيمين في قمرتنا الدوار وحين هدأت ثائرته رفعوا عقائرهم بالصخب. استغرقت رحلتنا إلى الإسكندرية تسعة أيام كاملة. حملت السفينة جنسيات أوروبية عديدة عدا الإنجليز. لم نخالط أحدًا بطبيعة الحال، وجلسنا مُنْزَوِين في نهاية سطح المركب.

لإلمامي ببعض الفرنسية رحت أتحدث بها من حين إلى آخر مع شخص حسن الطلعة والهندام أخبرني أنه كان ضابطًا في معية الخديوي،[1] لكن غلب عليّ ظن قويّ أنه لا يعدو أن يكون خادمه الشخصي.

ربطت السفينة في الإسكندرية في غسق الدجى، لكننا لم نغادرها إلا صباح اليوم التالي. تم اصطحابنا إلى مكتب الجوازات فأخذنا تأشيرة الدخول حسب الأصول المرعية، ثم انتقلنا إلى صالة الجمارك حيث أقررنا بعدم وجود ثمة ما نعلن عنه. ويتعين عليّ أن أنوّه أنه قبل الوصول إلى اليابسة أخذت كل التدابير لإخفاء المسدسات والذخائر في حوزتنا وكذا بعض المستندات التي قد تُعرضنا للخطر كجواز سفري الإنجليزي ودفتر الشيكات وهلُمَّ جرًّا. حوت حقائبنا بعض ساعات اليد وأشياء أخرى

[1] عباس حلمي الثاني، 1874-1944. (المترجمان)

جلتها عظيمة القيمة، انتوينا تقديمها كهدايا لاحقًا. وضعنا ما خفّ حمله وغلا ثمنه في جيوب الملابس حتى نجنّبها الكسر، كما كان معنا حقيبة أدوية وأربطة وأشياء أخرى من هذا القبيل. طلبوا منا فتح كافّة الأمتعة وإخراج محتوياتها، وقاموا بفحصها بكل عناية، كما انكبّوا على قراءة كل الوثائق، وفتحوا كل الكتب، ووضعوا أيديهم بشكل عنيف على كل ما ظنوا أنه ذو قيمة. بعد تفريغ الحقيبة الأولى أمرونا بإعادة تعبئتها. أدركنا بعد كل هذا العناء مع الحقائب أنهم سيعرجون على جيوبنا، فدبرت أنا ومسعودي أمر إخفاء المسدسات والمستندات والأشياء الأخرى. وبهذه الطريقة أمكننا تفريغ جيوبنا من محتواها، بيد أنه لم يكن من اليسير التحدث إلى عبد الواحد فأدركت أن في الأفق غيوم كارثة وشيكة. صدق ظننا فلقد اقتادونا بعد الانتهاء من حقائبنا إلى مبنى داخلي وفتشونا. لم يُعثر على أي ممنوعات معي أو مع مسعودي ولم يخرج من ملابسنا ما يثير الدهشة؛ اللهم إلا مائتي جنيه ذهب.[1] أما عبد الواحد فقد أُجبر على إخراج ما في حوزته من مسدسات وذخيرة وبطاقات بريدية ومجوهرات أخذت تنهال بشكل غير منقطع. عمت الإثارة المكان، وانقض الموظفون على المضبوطات. بعد تشاورهم فيما بينهم أزمعوا القبض علينا كأفراد مشتبه فيهم، وعينوا علينا حراسة حتى مجيء المدير الذي رأى - عقب وصوله بساعتين من الانتظار- أن القضية أكبر منه فأحالها إلى الباشا. ولأنه كان شهر الصوم فقد تأخر ظهور الباشا حتى الواحدة ظهرًا، وعندما وصل أدركت على الفور أنه واحد من هؤلاء الناس الذين يعانون من الصوم. لقد كان مزاجه عكرًا، فأخضعنا للتفتيش والاستجواب. أثارت حقيبة الأدوية والأدوات على وجه الخصوص الاهتمام، وقوبلت بعدم الارتياح. تعذر عليهم تخيل مدى جدوى هذه الأشياء لنا. من حسن الطالع أني أوعزت إلى عبد الواحد آنفًا أنه في حالة احتدام النقاش فعليه أن يدعي ملكية هذه الأشياء ويمسك بتلابيب الحديث. لقد كنا

[1] خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين حتى اندلاع الحرب العالمية الأولى عام 1914 كان التعامل يتم بالمقياس الذهبي. (المترجمان)

مدينين بنجاتنا لهذه البصيرة وحسن الحظ الذي أرجع لنا الوثائق دون تدقيق. تحول جل الريب إلى عبد الواحد بصفته المخالف الرئيسي، وخرجت أنا ومسعودي من دائرة الملاحظة، وبقي فيها عبد الواحد الذي لم يشك أحد في حسن نواياه بصفته عربي المنشأ. ظل عبد الواحد يُزبِد ويرغي حتى حل بهم التعب فصرفونا في نهاية المطاف بحذر، واحتفظوا بالموجودات في الجمرك لحين إعادتها لنا عند رحيلنا إلى بيروت.

رأينا ضوء الشمس مرة أخرى في حدود الساعة الثانية والنصف بعد الظهر، وقد استبدّ بنا الجوع وحل بنا التعب، ومع هذا غمرنا شعور جليّ بأننا - بعد كل ما جرى وقيل - قد خرجنا بأقل خسائر. رفعت رأسي زهوًا وأنا أستقبل تهاني عبد الواحد الحارَّة فيما يتعلق بالتخلص من الوثائق. لم يكن يعلم بهذا الصنيع، ورأى- حال الإمعان في تفتيشنا على الملأ على نحو لا يضاهيه شيء في السوء- أن النقاب سيُكشف حتمًا عن ما في الجراب، لكن عندما مرَّ الأمر بسلام تملكه مزيج متساوٍ من مشاعر الدهشة والارتياح؛ وأحسست منذ ذلك اليوم أني زدت تقديرًا في عينيه.

طلبت من حارس البوابات أن يُشير علينا بفندق رخيص يناسب حالنا المتواضع ففعل دون تردد. كان الفندق أعلى محل حلاقة، ويتكون من مجموعة من الغرف المتراصة. عندما دخلنا لتُلقي نظرة أدركت أن الحارس قد بالغ في التقليل من شأننا. كان الفندق جد رخيص (فرانك يوميًّا)، لكنه كان نظيفًا إلى درجة معقولة. بعد نزاع شديد مع الحمالين لمتاعنا سوينا معهم الأمر في النهاية. استبدلنا ملابسنا وتناولنا بعض الطعام. جددنا نشاطنا بقيلولة قصيرة، واستعدنا قوتنا بالذهاب في المساء إلى حمّام تركي.

عملت من باب الاحتياط على حلق شعر رأسي؛ حتى أنفيَ عنِّي قدر المستطاع الشكل الأوروبي، كما ارتديت ملابس عربية وكذلك فعل الآخرون. كنا

جميعًا قبل هذه اللحظة نرتدي ملابس عادية، والإضافة الوحيدة هي الطربوش. أحسست بالسعادة عندما وجدت أن مظهرنا لم يثر أي اهتمام من نوع خاص. خلال الأيام القليلة التي أمضيناها في الإسكندرية كنا نُواجَه من حين لآخر بالسؤال عن مسقط رأسنا؛ حيث بدا واضحًا أننا غرباء. عادة كان عبد الواحد يجيب بالنيابة عنا: "بغداد"، وفي الحالات التي كان من الضروري فيها التوضيح فإن "زنجبار" كانت تُرضي غرور المتطفلين.

في اليوم التالي حصلنا على ترخيص بالسفر على ظهر سفينة البريد الخديوية إلى بيروت التي كان مقررًا لها الإبحار بعد ثلاثة أيام. أتاحت لي هذه الفترة فرصة التأقلم مع الظروف المعيشية الجديدة، وكذا ممارسة المصرية الدارجة. إن عائق اللغة الذي يواجه غالبية المسافرين المتخفين ليس كبيرًا كما يبدو. تتسم اللغة العربية بوجود لهجات عديدة شديدة التباين في نطقها وألفاظها، ويحتفظ كل منها بخصوصيات لم تحظ باهتمام واضح. على سبيل المثال قد لا يفهم شخص من اليمن حوارًا بين مصريَّيْنِ بسهولة، بالرغم من أنه قد يتحدث معهما دون صعوبة. ويُعزى ذلك إلى أن الغرباء يميلون عند التواصل إلى ضبط النطق والقواعد ومحاكاة اللغة الكلاسيكية أو المكتوبة، ويتجنبون الدارجة أو أي تنوع للنطق العامي الذي من شأنه جعل حديثهم يستعصي على الفهم. زد على ذلك وجود أعداد غفيرة من الناس في دول الشرق تنسب نفسها إلى العرب لكنهم في حقيقة الأمر فرس وأكراد وأتراك... إلى آخره، وأعضاء النطق عند جلتهم عاجزة عن الإتيان بالنطق البدوي السليم فيما يتعلق بخصائص الأصوات الساكنة المتعددة في اللغة العربية. وينطبق ذلك أيضًا على المصريين، فمواليد القاهرة لا يحسنون نطق الضاد، ويستوون في ذلك مع قاطني "كلافام كومون"[1]. تغلبتُ على كل الصعاب بطريقة بسيطة وهي الادعاء بأن اللغة

[1] Clapham Common، منطقة تقع جنوب لندن. (المترجمان)

العامية في زنجبار هي السواحلية؛ وأنه لا يتحدث أحد هناك العربية، وهذه حقيقة. لم يتحدث أحد ممن قابلت السواحلية على الإطلاق، وبناء عليه كان بمقدوري التشاور مع مسعودي وقت الشدة على الملأ دون أدنى خوف من افتضاح أمرنا، وتلك ميزة لطالما استغللتها. حرصت دومًا على التحدث معه بسرعة حتى أترك لدى الآخرين انطباعًا بأني أتحدث لغتي الطبيعية، وفي المناسبات القليلة التي اضطررت فيها إلى التحدث بالسواحلية لأناس تعتبر لغتهم الأم، كنت أعمد إلى قلب الجملة، وأتحجج بأني ولدت في مسقط، وأن لغتي الأصلية هي العربية. لم أقابل شخصًا على دراية بهاتين اللغتين، وعانيت كثيرًا - بطبيعة الحال - لتجنب الاحتكاك بمن يمكنه ذلك حتى لا ينكشف أمري؛ وأحسب أن "بيرتون" انتهج نفس الأسلوب في رحلته، وهو أسلم شيء تفعله في مثل هذه الظروف.

غادرنا الإسكندرية حوالي الساعة الرابعة عصر يوم وافق الأربعاء. قبلها بساعتين توجهنا إلى صالة الجمرك لاستلام متاعنا ثم اقتادونا إلى نقطة الشرطة لفحص جوازاتنا وهيئتنا فحصًا دقيقًا؛ للوقوف على أوجه الاشتباه بيننا وبين صور المجرمين المسجلين التي عُلقت على الحائط. بعد أن اطمأنت الشرطة إلى هذا الأمر أحالونا إلى الحجر الصحي حيث فُتحت أمتعتنا من جديد. تم إعفاؤنا من التبخير لأن ملابسنا كانت نظيفة. انتقلنا إلى حجرة الانتظار لحين العرض على الطبيب. كان الفحص هزليًّا جدًّا. وقفنا في طابور، وانتقل الطبيب من شخص لآخر، وقد أخذ ينقر منطقة الإبط بغرض اكتشاف أي تضخم للغدة، وهو العَرَض المميز للطاعون، لكن بالطبع لا يمكن كشف الحالات المتقدمة للمرض بهذه الطريقة، كما أن هذه الحالات لا تقوى على القيام بمثل هذه الرحلة، ومن ثم أرى أنه لا طائل يُرجى من وراء هذه الشكليات. إذا كان الفحص حتميًّا فلا بد أن يكون دقيقًا ليشمل قياس درجة الحرارة

التي تكفي لاكتشاف الحالات الأولية للمرض. إن لوائح الحجر الصحي المعمول بها في الوقت الحالي في هذا الجزء من الشرق ما هي إلا إجراءات مزعجة.

بعد انتهاء هذه المراسم أُخلي سبيلنا، وسُمح لنا بالصعود إلى الباخرة، وهي من أكبر السفن التي تمخر عباب البحر في هذا الخط الملاحي؛ وتصل حمولتها إلى 5000 طن إذا أسعفتني الذاكرة. ازدحمت الباخرة أو على الأقل سطحها بالركاب. لم نجد مكانًا إلا في مؤخرة السفينة، وبدا جليًّا أننا تأخرنا في الصعود؛ حيث شُغلت أفضل الأماكن. بعد شجار كبير نجحنا في فرش حصيرتنا على صندوق ضخم رُبط إلى متراس الميناء. كان الموقع مميزًا؛ لنظافته وبعده عن الزحام. بعد فترة قصيرة من الإبحار جاءنا من يعترض على هذا المكان، لكن سبق السيف العزل فلم يكن من اليسير تغييره. اتضح بعد ذلك أنه صندوق الثلج وتعين علينا طوال الرحلة طي أغطيتنا وجمع متعلقاتنا والنهوض كلما أراد الطاهي فتحه، الأمر الذي سبب لنا ضيقًا شديدًا، وساهم في تسلية بقية الركاب. كان معدل تكرار هذا الأمر يوميًّا حوالي عشر مرات في المتوسط. ذاك المساء عرض علينا السفّان[1] - وهو تركي الجنسية - قمرته مقابل جنيهين. اقترحنا عليه عشرة شلنات، ثم تراضينا كحلّ وسط على فرنك.

كانت القمرة فوق الدفة مباشرة، وحوت فراشين. صحيح أنها منحتنا بعض الخصوصية التي كنا ننشدها وجنبتنا الطقس الرديء، لكن النوم جافانا فيها بسبب الحرارة والجو الخانق والبراغيث التي استوحشت أحجامها.

شكل الركاب خليطًا من شتى الأجناس والألوان: اليونانيون والإيطاليون والمصريون والأتراك والعرب من سوريا والمغرب العربي. عج بهم السطح وضاق؛ حتى تعذر على المرء شق الطريق دون أن يطأ أحدهم بقدميه. كلنا في الهم سواء، فالبحر كان هائجًا ورُزقنا ببحارة لا يتمتع جلتهم بالمهارة الكافية، ومن ثم لازمت

[1] الشخص المسؤول عن سطح المركب. (المترجمان)

المناكفة والمشاكسة رفقاء السفر. كانوا جميعًا فقراء بشكل عام، لكن العديد منهم أفضل حالًا بلا شك من أترابهم، ولديهم القدرة على توفير أجرة الدرجة الأولى. يميل المسلمون بصفة عامة إلى السفر على سطح السفن بسبب مشكلة الطعام التي تمثل للأشخاص الذين ينتهجون أساليب الحياة القديمة صعوبات أكثر من غيرهم، فطبقًا للشريعة لا يصح تناول اللحوم إلا إذا ذُبح الحيوان بطريقة ما وبيد رجل مسلم. في الدول التي تتبع الديانة المحمدية تُختم اللحوم التي تُذبح طبقًا للشريعة، ويحق للزبون رؤية هذا الختم إذا أراد ذلك. يعزف المسلمون بالإضافة إلى ذلك عن تناول الطعام الأوروبي؛ خشية أن يكون الخنزير قد استُخدم بأي شكل في إعداده. في الواقع لو طُبقت شرائع المسلمين بحذافيرها فإنه يُحظر عليهم[1] أيضًا السفر إلى أوروبا على الإطلاق، ومن يفعل ذلك يتجنب أي شيء يحتوي على لحم الخنزير إمعانًا منه في الالتزام بروح الشريعة.

وصلنا بورسعيد في صباح اليوم التالي، وأمضينا النهار بطوله على الشاطئ، الأمر الذي يعكس سخافة قوانين الحجر الصحي. كان بمقدور أي شخص من هناك الصعود إلى السفينة معنا، مدعيًا ببساطة أنه قادم من الإسكندرية. لم تبد لي بورسعيد مكانًا لطيفًا في أي وقت من أوقات اليوم، ولم أكرهها بهذا القدر من قبل. في صباح اليوم التالي شعرنا بالراحة لمغادرتنا السفينة مرة أخرى مع بلوغنا يافا التي تُعد الميناء الخاص لبيت المقدس. هناك ودع السفينة عدد كبير من الركاب بينما صعد عدد أكثر منهم إلى سطحها. كان المُكلأ[2] مفتوحًا. ارتفعت الأمواج كالجبال؛ وفي خضم الطقس العنيف الذي مررنا به أصبح النزول في القوارب أمرًا شاقًّا وعسيرًا. ولأننا وصلنا مناطق السيادة التركية فقد تحتم علينا دخول الحجر الصحي مرة أخرى. جُلبت

[1] لا يوجد في الشريعة الإسلامية ما يمنع من سفر المسلمين إلى أوروبا اللهم إلا نهي عمر بن الخطاب رضي الله عنه من الإقامة في دار الكفر أثناء الحروب. (المترجمان)

[2] مكان خارج الميناء يمكن للسفن الرُسُوّ فيها انتظارًا لدخول الميناء. (المترجمان)

ماكينة التطهير إلى سطح السفينة، وطُلب منا خلع ملابسنا حتى تُعقم؛ علاوة على فحصنا. عند هذه النقطة قررت ألا نقوم بذلك فقمت بتقديم دولار كرشوة لأحد المسؤولين حتى نُعفى من هذا الإجراء. أخذ الرجل الدولار عن طيب خاطر فأدركت على الفور أني أفرطت في الدفع أكثر مما ينبغي. حصلنا على ما يفيد بأننا انتهينا من التعقيم ثم جاوزنا ذلك إلى ردهة بنهاية السفينة حيث يجلس الطبيب المنوط به إعطاؤنا شهادة نزول إلى بيروت. استمتعنا بمشهد تبخير الركاب. لابد أن شعورنا كان سيختلف لو أننا وقفنا ننتظر دورنا معهم. استمتعنا أيضًا بسبابهم حين أُعيدت إليهم ملابسهم مبتلة؛ والملون منها باهت تمامًا. انبرى موظفو الحجر الصحي بعد إتلافهم الملابس يرشّون ما تبقى من السائل على السفينة بشكل عشوائي فأُصِيبت عيون المسافرين؛ الأمر الذي زاد من تذمرهم. بعد التسبب في إثارة كل هذا الشعور العام بعدم الارتياح للركاب غادر موظفو الحجر الصحي في زورقهم البخاري، وسُمح لنا بمتابعة الإبحار.

ظلت أمواج البحر في ارتفاع مضطرد طيلة اليوم بسبب الريح العاتية. وصلنا خليج حيفا بالقرب من جبل "الكرمل" مع هبوط الليل. مكثنا هناك ساعةً؛ نعمنا خلالها بالوقاية من الأنواء. حين هممنا بالرحيل تعرضنا لأمواج جدّ عنيفة؛ ضرب العديد منها سطح السفينة، حتى غدا مكاننا على صندوق الثلج محفوفًا بالمخاطر. أوينا أنا ومسعودي إلى القمرة، أما عبد الواحد - الذي تخطى منذ أمد طويل حاجز الخوف من الغرق - فقد أبى أن يتحرك. خشينا أن ينزل به مكروه في هذه الأحوال؛ فقمنا بنقله هو وأغراضه إلى بالوعة صرف المياه. لقد بدت لنا أأمن وأجف مكان على سطح السفينة؛ بالرغم من أن مياه الأمواج قد غمرتها. لم يكن الوضع على سطح السفينة لطيفًا، ومن ثم فقد هنأت نفسي لاستئجارنا القمرة. أمضينا ليلة لَيْلَاء؛ ولا بد أنها كانت عشرة أضعاف في السوء لمن هو على السطح. أخيرًا دلفنا في المياه الهادئة لميناء

بيروت مع شروق الشمس. توجست خيفة بشكل كبير من المتاعب التي قد ننساق إليها مع السلطات. ما فهمته دومًا أن الأتراك حذرون من السماح للغرباء بالدخول دون أوراق سليمة تمامًا. أخذت أهبة الاستعداد بشكل كافٍ لتلقِّي أي أسئلة مزعجة تتعلق بنا، وجُلت بخاطري في احتمالية اعتقالنا لمدة معينة؛ ومن ثم فقد شرعنا في عمل ترتيبات مُحكمة حيال كل هذه الاحتمالات، زد على ذلك أننا كنا مهيأين وجاهزين تمامًا بالإجابات التي تعين علينا استنباطها ردًّا على أي استفسار وارد. على سبيل المثال لو أثار صندوق الأدوية الخاص بي أي شكوك فإن عبد الواحد سوف يتدخل مدعيًا أن شقيقه الطبيب في بغداد هو من طلب منه ابتياعها من أوروبا؛ وهذا يبرر جهل عبد الواحد بمحتوياتها أو استخداماتها. وهكذا حدانا الأمل في تجنب تكرار المتاعب والمصائب التي حطَّت فوق رؤوسنا في الإسكندرية آنفًا.

في واقع الأمر لم يكن هناك داعٍ لهذه الاحتياطيات التي اتخذناها، فبمجرد نزولنا من السفينة تم مرافقتنا إلى مكتب صغير حيث ختم رجل في زي رسمي جوازات سفرنا بعد أن ألقى نظرة عابرة على بياناتها. أبدى الرجل اهتمامًا محدودًا بسيفي الذي صُنع في مسقط على طراز خاص وفريد، لكنه أعاده لي دون تعليق بعد أن طعن به منضدة الغرفة عدة طعنات. تابعنا التقدم نحو الجمارك؛ حيث طلبوا منا فتح صناديقنا دون حتى الاستفسار عما إذا كان في حوزتنا ما نود الإفصاح عنه. استفسروا عقب فحص سريع عن الأسلحة التي أظهرناها. حين عرفوا أننا حجاج لم يبدوا أي اعتراض لحملها؛ شريطة أن نسدد رسومًا لا تُذكر.

أُتيح لي الوقت أثناء انتظارنا انتهاء هذه الشكليات لملاحظة الإجراءات التي يخضع لها الركاب الآخرين فوجدت أن منهم من لا يتخطاها بسهولة. بدا لي أن بعض المسافرين الأوروبيين يتعرضون لكثير من المحن من النوعية التي خضناها في الإسكندرية. أحسب أن عصر الحريات الجديد الذي أشرق على تركيا في ذاك الوقت

له علاقة بحالة المرونة التي واجهناها في استفسارات الشرطة التي عُرف عنها التعنت في الماضي. على أي حال؛ ومهما يكن التفسير فقد اجتزنا هذه النقطة دون صعوبة تُذكر، لنجد أنفسنا في نهاية المطاف على أرض تخضع للسيادة التركية، نتمتع بالحرية للذهاب أينما نريد.

حصلنا على غرفتين كبيرتين نظيفتين مقابل فرانكين للَّيلة في أحد الفنادق - إذا جاز لنا أن نُطلق عليه هذه التسمية - لعدم توفر الطعام في مبانيه أو الأرض الملحقة به. أمضينا النهار نتجول في البلدة، ونبتاع بعض الأغراض الضرورية. بيروت مدينة شيقة؛ لها طابع خاص وشخصيتها أكثر شرقية من أي مكان زرته في مصر، لكنها لا تعدل دمشق في هذا الشأن. يتألف سكانها بشكل أساسي من النصارى واليهود. راق لي أن أمكث بها عدة أيام، لكننا قررنا التوجه نحو دمشق لأسباب متفاوتة. شعرنا براحة شديدة للكف عن السفر بحرًا (أو هكذا ظننا) وابتهجنا بسبب التوفيق الذي حالفنا حتى الآن. جلسنا ندخن بعد تناول وجبة العشاء في الحيز الخارجي لمقهى يشرف على ميدان البلدة الرئيسي؛ ونتجاذب أطراف الحديث مع أناس شتى. أوينا بعدها إلى مضاجعنا في التوّ؛ حيث تعين علينا الاستيقاظ مبكرًا في صباح اليوم التالي.

الفصل الثاني

دمشق

فاض الناس واستفاضوا في وصف مشاهد جبل لبنان. إن منظر البحر المتوسط من فوق قمته جميل بشكل خاص.

سافرنا في مقصورة الدرجة الثالثة، ورافقنا بها خمسة تجار سوريين من دمشق؛ لم ينقطعوا عن الحديث في أي موضوع يُمكن تخيله، لكني وجدت صعوبة بالغة في فهم معظم كلامهم.[1] كان التين والعنب اللذان حصلنا عليهما تقريبًا من كل المحطات التي توقفنا بها في غاية العذوبة، وعزاء لنا عن المشقة والحرارة. انكببنا على تناولهما متخطين الحدود الضارة بالصحة. عاينت عربات الدرجة الأولى فوجدتها مريحة بشكل طيب، لكنها تقريبًا خالية الوفاض. يبدو أن التوفير خلال الترحال من العادات الأصيلة للشرقيين. لطالما اعتقدت شخصيًّا أنه على المرء أن ينال قيمة جيدة مقابل ماله. لقد قيل إن الاستمتاع بالثروة يكمُن في قدرتها على وضع حاجز ذهبي بين مالكها والأشياء البسيطة التي تعكر صفو الحياة. على أي حال، ينجح المال أثناء السفر إلى حد ما في القيام بذلك، بيد أني لم أقابل مطلقًا رجلًا شرقيًّا لا يتظاهر بالفزع حين يتلقى مجرد عرض بالحجز على الدرجة الأولى أو استئجار جمل

[1] كان ويفل قد بدأ في تعلم اللغة العربية أثناء وجوده في شرق أفريقيا. (المترجمان)

إضافي بالرغم من أنه على استعداد لينفق عشرة أضعاف هذا المبلغ على شيء غير ضروري بالمرة لمجرد إرضاء نزواته.

دمشق واحدة من أجمل مدن الشرق وأكثرها سكانًا. تحوي هذه المدينة أميالًا من الأسواق المغطاة ذات المظاهر الشرقية الخالصة. تواتر أيضًا أنها تضم ألف مسجد وسبعين حمامًا تركيًّا، لكني متيقن من أن كلا الرقمين غير صحيح. يقطع المدينة وريفها المحيط العديد من الجداول الجارية، بينما تمتد المروج والزراعات في أطرافها إلى مساحات شاسعة. تصل الفاكهة والورود بشتى أنواعها إلى كمال النضج؛ والجو رائق وجافّ، ولا بد أنه مفيد للصحة بشكل كبير. بالرغم من ارتفاع درجة الحرارة أثناء النهار في فصل الصيف إلا أن لياليه منعشة وحرارتها فاترة؛ فلا تصل إلى الدرجة التي تدفع الناس للنوم على أسطح المنازل، كما هو الحال في بغداد ومدن عربية أخرى. تتساقط الثلوج في الشتاء، ومن هنا كانت فكرة الأسواق المغطاة. يُعد الجامع الكبير الذي يقع في وسط المدينة المبنى الرئيسي بها؛ وأحسب أنه الأكبر في العالم.[1] كان عبارة عن كنيسة قبل الفتح الإسلامي لسوريا. فيما يختص بالآثار تبدو دمشق مُحبطة، ولا وجه للمقارنة بينها وبين القاهرة. لا يوجد سوى قلة قليلة من هذه الآثار تثير الاهتمام. تبدو الطلعة العامة للمنازل عادية، أما الأسواق التي يُقيم بها معظم التجار ويزاولون أعمالهم فلها سَمْت الخاصة.

تنقسم المدن كما هو متأصل في الشرق إلى أحياء لأتباع ملة محمد[2] وكذا لليهود والنصارى، والأول بطبيعة الحال هو الأكبر والأغنى. يوجد في دمشق فندق وحيد لائق للإقامة؛ ينزل فيه الأوروبيون، خلا العديد من دور الضيافة يقيم فيها الزائرون من الأجناس الشرقية. قصدنا واحدة من تلك الدور، واستأجرنا حجرة كبيرة بها. كان رفقاؤنا في القطار هم من أشاروا علينا بهذا الخان، لكننا اضطررنا فيما بعد للانتقال

[1] المسجد الأموي. (المترجمان)
[2] أفضل ترجمة وصلنا إليها للفظة Mohammedans. (المترجمان)

منه لأنه لم يكن الأفضل بين أمثاله، كما كانت كلفة الإقامة به مرتفعة إلى حد ما. تناولنا وجباتنا في مقاهي متنوعة لأن هذه الخانات لا تقدم الطعام.

يوافق اليوم العشرين من رمضان؛ ولأننا لم نكن قد اعتزمنا التحرك صوب المدينة (المنورة) قبل شهر على الأقل فقد قررنا أن نُنَعِّم أنفسنا ونُروِّح عنها. بالرغم من ذلك خالطني شعور بأن الوقت الباقي أمامنا لن يسعفني لأصطبغ بالحياة الشرقية بدرجة كافية قبل بلوغ مقصدنا. يتحتم عليّ إتقان عبارات محددة ومقتبسات وأساليب التحية والردود اللائقة عليها. يجب ألا أرتكب الأخطاء أثناء حضوري المناسبات الإسلامية المتنوعة داخل وخارج المسجد. يتعين كذلك في الأحوال العادية أن أَأْلَف ارتداء وترتيب هندامي، والاضطلاع بالأعراف الأخرى؛ فلا أكون ملفتًا للأنظار. تمثل هذه العادات والمراسم المتفاوتة العقبة الكئود للأوروبي الذي يُريد أن يُدخل في روع الآخرين أنه ولِد وترعرع كرجل مسلم، فهي شائعة في شتى البلاد، وأقل خطأ فيها سوف يكشف سره بكل تأكيد. مهما كان مظهره شرقيًّا أو ملابسه مهندمة ولغته متقنة؛ فإنه حتمًا سيوضع في زمرة الفرنجة إذا فشل في الرد على كلمة "نعيمًا" بعد أخذه حمامًا، وسيبدو كما لو كان يسير في أحد الأزقة وقد ارتدى قبعة سفاري وواقيًا للظهر.[1]

[1] قطعة استحدثها الجيش الإنجليزي لحماية العمود الفقري من ارتفاع درجة الحرارة. (المترجمان)

إن مجرد ارتكاب خطأ خلال الصلاة أو زيارة المقابر أو حتى في المقتطفات المرتبطة بالطقوس الدينية قد يكون قاتلًا بمنتهى البساطة. في الحقيقة لكي تنجح في البقاء لأي فترة زمنية؛ عليك بقوة الملاحظة والتدريب المُسبق. تكمن الصعوبة في هذه الأشياء تحديدًا، لا في اللغة ولا التنكر. إن عدد الناس من ذوي البشرة البيضاء في مكة يفوق تقريبًا بمراحل أصحاب البشرة الداكنة والقمحية. وغالبًا ما يمتلك السوريون العرب شُعورًا ناعمة وعيونًا زرقاء تمامًا كبعض سكان المدن المقدسة أنفسهم. ذات مرة سُئلت عن اللون الذي دهنت به بشرتي خلال هذه الرحلة، تمامًا كمن يدهن الممثل جسمه كله بالسواد ليؤدي شخصية "هاملت". يكشف هذا السؤال النقاب عن الجهل العجيب القابع في إدراك ما يُطلق عليه التحيز العرقي، ذلك الذي يفخر بعض الناس بتبنيه وانتهاجه!

بالرغم مما سبق، لا يجدر بنا الخلوص إلى ضرورة أن يكون المرء مُمثِّلًا جيدًا لكي يفلح في الترحال متنكرًا. أهم شيء هو أن تُبقي عينيك مفتوحتين وفمك مغلقًا. إن السهولة في اكتساب المرء العادات الأجنبية حين يعيش في بيئتها لهو أمر رائع. أحسب أن سر النجاح يكمن في تبني أدوار صغيرة بقدر الإمكان ثم التعامل معها بحذر، علاوة على السعي للعثور على نفسك بشكل كثيب في الشخصية التي تضطلع بها، سواء في السر أو في العلن.

ليس عمليًّا أن تُغلق عليك بابك وتتحاشى الحديث مع أي شخص. إذا كنت تسافر متقمصًا شخصية ذات حيثية، وترتدي ملابس حسنة، ويحوط بك الخدم؛ فمن المستحيل تجنب مقابلة الناس والتعرف عليهم - وإلى حد ما – قبول واجبات الضيافة وردها. يُحبذ بالطبع الشروع في الاختلاط مبكرًا، عقب دراسة خاصة ومتعمقة قدر الإمكان؛ كي يتسنى التعود على الأحوال الاجتماعية بسرعة أكبر. إن فطرتي الخجلة جدًّا مع غالبية الناس قد ساعدتني شخصيًّا بشكل كبير. تنأى هذه الطبيعة الجلية التي لا

يشوبها التظاهر عن اتخاذ المبادرات بشكل مطلق. لقد مكنتني هذه السجية من تدقيق الملاحظة وتقليل الكلام، بيد أنها تفسر من دون شك تلك الأعمال الخرقاء التي أتحمل غالبًا المسؤولية عنها بكل تأكيد.

إذا كان الهدف هو مجرد زيارة مكة أو أي مكان آخر في السر؛ فإن أبسط الطرق هي الذهاب متنكرًا؛ كشخص فقير يرتدي ثيابًا رثّة، ولا يحوي جيبه إلا خمس قطع من النقود ولا شيء آخر. سيؤوب هذا المسافر ولم يكتسب الكثير منذ لحظة انطلاقه لأنه لم يعرض للجوانب المتعددة المثيرة في وجهته. إذا خُطط للرحلة أن تستغرق فترة ممتدة من الوقت فالاعتراضات على ما سبق واضحة بشكل كاف؛ وغالبية الناس تؤثر إمتاع أنفسهم بطرق مختلفة.

لطالما هنأت نفسي لاختياري دمشق وليس مصر لإقامتنا المؤقتة في المرحلة التمهيدية، ففرص كشفنا في الأخيرة كبيرة، ناهيك عن أن أهلها أكثر فضولًا وإلمامًا بمظهر وسلوك الأوروبيين من سكان آسيا الصغرى، علاوة على ذلك فإن بشرتهم داكنة؛ ومن ثم سأبدو دومًا غريبًا بينهم. في المقابل لا يوجد ثمة ما يميزني عن سكان دمشق لاسيما كلما ارتديت الزي الشعبي كما فعلت بين الفينة والأخرى. ظن الناس في بعض الأحايين أني من سكان المدينة (المنورة) لأن عددًا كبيرًا يقبل - بعد اكتمال خط السكك الحديدية - على زيارة دمشق، خاصة في هذا الأوان قبيل موسم الحج.

لأننا أقمنا بعد ترحال فلم يعد هناك سبب للإفطار. إن صوم رمضان أحد أربع فرائض في الإسلام واجبة على كل أتباعه. يُعفى منه المسافر والمحارب، علاوة على السقيم بكل تأكيد. لم يدعُ النبي للامتناع عن مباهج الدنيا. رصدت في ملاحظاتي التزام الناس بالصوم بشكل كبير. قيل لي إن التهاون العلني به في الشق الأوروبي من تركيا يتزايد، بيد أني أؤكد على عدم معاينة أي ملمح لهذا الأمر في الأماكن التي زرناها.

بسبب تفريطنا في الشعائر الدينية الواجبة فقد توخينا الحرص بالطبع لتجنب إعطاء أي مسوّغ للشك فينا. أتخم عبد الواحد نفسه بحلوى "الشكلمة"[1] سرًّا في حجرتنا.

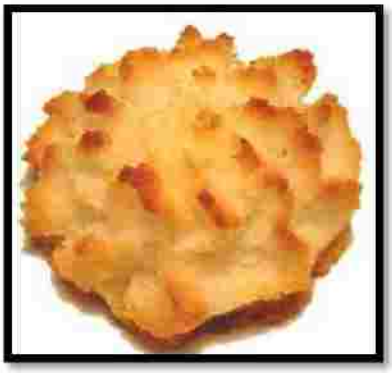

لم يردعه كل ما زدناه وعدناه عن هذا الموضوع، بل إن بعض فقرات الكتب الدينية التي كنت أعاينها؛ والمتعلقة بمصير من يتحدى الشريعة - ومنهم المنافقون الذين يفعلون ذلك في السر - لم تُفلح في إعادة تشكيل عقله بشكل أفضل. كلما تكلمنا عن اللعنة والجحيم كلما بدا عبد الواحد أكثر استمتاعًا بالحلوى.

لم أجد في الصوم أي صعوبة خاصة، خلا بالتأكيد الحرمان من التدخين بشكل أساسي، لكن حتى هذا الأمر لم يستفحل مداه؛ لأن المرء يستطيع أن يفعل ما يحلو له بعد الغروب، ولأنني اعتدت النوم جيدًا خلال النهار. سار روتين يومنا إلى حد ما على النهج التالي: نستيقظ في التاسعة والنصف، ثم نتوضأ حسب الطريقة المحددة. نقرأ الجريدة أو الكتب حتى الحادية عشرة، ثم نخرج. بعد التجول في الأسواق لمدة ساعة تقريبًا نقصد المسجد الكبير انتظارًا لصلاة الظهر. يذهب عبد الواحد إلى وجبة الغداء عامة بينما أمكث أنا ومسعودي في المسجد نقرأ ونستمع إلى الدروس حتى صلاة العصر في الثالثة والنصف. ونختم النهار بابتياع ما يلزمنا ونحن

[1] حلوى تُصنع من الدقيق وجوز الهند. (المترجمان)

نترجل في طريق العودة إلى الفندق: الكعك والفواكه وخلافه مما يُكَون فطورنا. يتم الاحتفاء بالغروب الذي يستهل اليوم الجديد في هذا الشهر - طبقًا لحساب أتباع ملة محمد - بإطلاق قذائف المدفعية. بعد أداء صلاة المغرب التي لا تستغرق سوى دقيقتين؛ يقوم المسلم بتناول طعامه، أما نحن فبعد أن نأخذ ما يقيم أودنا نتوجه إلى المقهى لندخن الشيشة في رواقه الخارجي، بعدها بساعتين نقصد مطعمًا لننعم بالوجبة الأساسية، ومعها المزيد من القهوة وأحجار الشيشة، ولا بأس أيضا بحمّام تركي. نستمتع أحيانًا بالغناء، أو نستمع إلى الفرق الموسيقية في أنواع معينة من المقاهي، أو ربما ذهبنا إلى مقهى أكثر هدوءًا؛ حيث تمنح القراءة أو الحكواتي تسلية أكثر وقارًا. نتناول بعد ساعة أو ما يناهزها بقليل وجبة أخرى نلتهم فيها قدر استطاعتنا، ليس عن رغبة ولكن لكي تقوتنا خلال اليوم التالي. قبيل الفجر ينطلق مدفع الإمساك محذرًا، تعقبها دانة أخرى بعد دقائق معلنة بداية الصوم.

تسير الأعمال في دمشق بشكل عادي في رمضان. لا بد أن الحرمان من المياه في الصيف - حين يطول النهار ويزيد القيظ - يسبب المعاناة للعمال، لكني أحسب أن عددًا كبيرًا من هؤلاء الذين لا يقومون بعمل عضلي يستمتعون بشهر الصوم، ويأسفون على رحيله. يعجّ الليل بالكثير مما له علاقة بالطعام. إن شهر الصوم بشكل خاص هو موسم لطهي ما لذّ وطاب في معظم البيوت. تتسابق المحلات التجارية في بيع ألوان وأصناف من الأطعمة الشهية التي لا تُرى في أوقات السنة الأخرى، ويشعر الناس أن لديهم المبرر للإسراف والترف.

ذهبنا في اليوم التالي لوصولنا إلى تاجر جملة دمشقي بخطاب تعريف أحضره عبد الواحد معه من إنجلترا. كان متجره يقع في واحد من البازارات الكبيرة. رحب الرجل بنا بعد قراءة الخطاب مستفسرًا عن هويتنا ونوايانا. ظللنا نتحدث معه لمدة نصف ساعة. عرض علينا أي مساعدة يستطيع تقديمها، وحين عرف أننا نرغب

في ابتياع بعض الأغراض اصطحبنا إلى حوانيت عديدة وقدّمنا لأصحابها. هذه البازارات كبيرة ومزدحمة بشكل يجعل من الصعب مطلقًا أن تجد طريقك فيها من أول مرة. يُخصص لكل حرفة في الشرق سوق أو شارع حسب طبيعتها. يوجد على سبيل المثال سوق للحرير وآخر للسُّرُوج وثالث للخيول، وهكذا. تحتل الأسواق الكبيرة أكثر من شارع، وتحوي ربما مائة حانوت. لا يوجد سعر محدد لأي سلعة، ومن ثم يتعين على المرء دومًا أن يفاصل. يُقدم الزبون بوجه عامّ العرض الأول. أظهر عبد الواحد مهارة كبيرة في المساومة، فبينما يتشبث بكلمته ويناوئ زيادة السعر دون حاجة ماسّة يفلح في إبقاء البائع في مزاج جيد. لدى هؤلاء الناس قدر كبير من الترفع؛ فمع أقل بادرة من السماجة يطلبون منك أن ترحل وتبتاع أغراضك من مكان آخر. يمثلون في هذه الجزئية تباينًا شديدًا مع شرذمة البائعين الهنود في دمشق، الذين يتحملون - مثل اليهود - كافة أنواع الإساءة حتى لا يخسروا زبونًا. يتسبب هذا الأسلوب في البيع والشراء في خسارة هائلة للوقت، لكن يبدو أنه جدّ متأصل في حياة الناس بهذا المجتمع، رغم أنهم يقرون قاطبة بسخافته ويشعرون بالضيق منه.

لقد أسهب الآخرون في وصف مساجد دمشق، وعلى رأسها الجامع الأموي، سواء فيما يختص بتاريخها أو أسلوب بنائها، لذا سأحصر نفسي في تناول الأغراض التي تُستخدم فيها. إن فكرة المقاربة بين مساجد أتباع ملة محمد والكنائس تحتاج إلى تصحيح.

يُستشفّ مما سبق ذكره أن الإسلام ليس دينًا وحسب، بل مجتمعًا بكل ما تحمله الكلمة من معنى. هناك قواعد محددة تربط بين أتباعه على نسق الماسونيين؛[1] لا يتحول المرء عنه بعد اعتناقه خشية الموت.[2] هناك خصوصيات معينة تُميز المسلمين من هندام وأساليب تحية وبها يعرفون بعضهم البعض. ومن هنا فإن المسجد

[1] وقع ويفل في فخ المقارنات فالقياس هنا مع الفارق، والإسلام دين بينما الماسونية حركة. (المترجمان)
[2] يشير ويفل إلى عقوبة المرتد عن الإسلام وهو أمر فيه اختلاف. (المترجمان)

هو أقرب للمحفل الماسوني من الكنيسة. لا يُعد تناول الطعام بداخله أو النوم فيه أو الخوض في أمور الدنيا أو قراءة الكتب والصحف وخلافه - أمرًا غير لائق، ولا يتعارض بشكل عام مع مراعاة أقصى درجات الاحتشام. يُستخدم المسجد بنفس القدر كملجأ للمشردين ومأوى للغرباء وأبناء السبيل، ومكانًا لاجتماع سكان البلدة، وملاذًا لهؤلاء الذين ينشدون السلام والوداعة وراحة البال. تُقام الصلاة خمس مرات في اليوم في توقيتات مناسبة: الفجر والظهر وبعد الظهر والغروب وبعده بساعتين حين يهبط الظلام تمامًا. يتصدر الصلاةَ رجلٌ مُخصص لهذا الأمر يُدعى "الإمام" أو أي شخص آخر يتصادف وجوده، على أن يكون عادة الأكبر سنًّا في جماعة المصلين. يوجد بوجه عام في المساجد الكبيرة قرابة ستة أئمة، يمثلون المذاهب المختلفة، ويؤمون الصلاة كلما يتجمع عددٌ كافٍ. لا يحتوي المسجد على أي أثاث عدا السجاد والمصليات، أما في الخارج فهناك الميضأة، وهي عبارة عن صهريج أو فسقية. عادة ما يُخصص جزء صغير أعلى المسجد للنساء. في المسجد النبوي يُخصص لهن شق منه، أما في مكة فيصلين مع الرجال في أحد جوانب المربع. تتباين المساجد في تصميماتها، لكنها متشابهة في تعامد أطول نقطة تُعرف بالقبلة على الكعبة؛ والاستثناء الوحيد هو الحرم المكي نفسه.

ليس ضروريًّا بالفعل أن تقصد المسجد للصلاة، لكن الجماعة من شخصين أو ثلاثة هي أفضل وأكثر ثوابًا. قد يتم أداؤها خارج مقهى، أو في غرفة الانتظار لحمّام تركي، أو أثناء تحرك الجيش، أو داخل المعسكر، أو في أي مكان آخر. يُقدم الحاضرون إمامًا، ويصطفون في خط خلفه، ثم يتبعونه في حركات الركوع والسجود. يجهر الإمام بالصلاة في الصباح والمساء، وعدا ذلك يبقيها خافتة في سرّه. أنا

شخصيًّا تقدمت للإمامة في مناسبات عديدة؛ حين حل وقت الإقامة ولم يتواجد شخص ذو حيثية ليؤمّنا.[1]

ينادي المؤذن، وهو غالبًا رجل كفيف، على الأتقياء بالصلاة من فوق مئذنة المسجد في توقيتات محددة. إن صوت الأذان في المدن الكبيرة التي تضم مساجد عديدة مؤثر بشكل عجيب؛ خاصة في صلاة الفجر. في حالة غياب المؤذن المعتمَد ينوب عنه الشخص المنوط به نظافة المسجد والاعتناء بالكتب.[2]

تشهد ظهيرة يوم الجمعة صلاة خاصة، وكذا صباح بعض الأعياد.[3] يقوم رجل مُتفقه في الدين ومُعيّن لهذا الغرض بإلقاء موعظة يوم الجمعة بعد الصلاة[4] من منبر يواجه المصلّين. الخطبة موحدة في كل مكان خلال هذا الشهر الفضيل، ويتم إنشاؤها في مكة، ثم تُرسل من هناك لكافة أرجاء العالم؛ حيث يوجد أتباع أمة محمد. تُختتم الخطبة بأدعية تنشد عزة الإسلام وهداية الكفار...إلخ، وكذا الدعاء بموفور الصحة وطول العمر لأمير المؤمنين، أي عبد الحميد في ذاك الوقت.[5] يتم التغاضي بالطبع عن هذه الجزئية في مساجد الشيعة؛ لأنهم لا يعترفون بالسلطان العثماني أصلًا كأمير للمؤمنين.

تتكون الركعة من قراءة فاتحة الكتاب، والتي تقابل بشكل ما "الصلاة الربية" في المسيحية،[6] ويليها تلاوة أخرى، عادة ما تكون من قصار السور. تأتي الحركة الثانية وهي الركوع، وفيه إقرار بعظمة الله. تنتهي الركعة بالجلوس واستحضار

---

[1] الراجح أنها كانت صلاة سرية وليست جهرية لأن ويفل كان أكثر الناس حرصًا على ألا يُفتضح أمره؛ وفي الصلاة السرية لا يجهر الإمام إلا بالتكبير والسلام. (المترجمان)

[2] يُسمى "قَيِم المسجد". (المترجمان)

[3] عيد الفطر وعيد الأضحى. (المترجمان)

[4] يقصد ويفل "قبل الصلاة "أو أن الأمر قد التبس عليه بين خطبة الجمعة وخطبة العيد التي تكون بعد الصلاة، أو أنه يقصد "بعد صلاة السُّنة". (المترجمان)

[5] 1842 – 1918م. (المترجمان)

[6] أبانا الذي في السموات، ليتقدس اسمك، ليأتِ ملكوتك، لتكن مشيئتك، كما في السماء كذلك على الأرض، أعطنا خبزنا... إلخ (المترجمان)

البركات والتحيات على الرسول والإسلام بوجه عام مع ابتهالات أخرى.[1] تتكون الصلاة من عدد من الركعات، بحد أدنى اثنتين، وأربعة على الأكثر. يحمل غالبية الناس المسابح، ويستخدمونها في ختام الصلاة. تحتوي المِسبحة على تسع وتسعين حبة؛ بعدد أسماء الله الحسنى. بعدها يرفع المصلي كفيه لأعلى، ويتضرع بأسلوبه لله بما يحلو له ويطيب من الكلام. تستغرق الصلاة التي تتألف من أربع ركعات ثماني دقائق، وقد تزيد إذا كانت وراء الإمام. هذه الصلوات اليومية الخمس شديدة الوجوب، لكن ليس من الضروري أن يُصليها المرء على وقتها، بمعنى إذا كنت مشغولًا فيمكنك تأجيلها حتى يصبح الوقت ملائمًا. يُصلي أغلب الناس حين يستيقظون، ثم في الظهيرة، ثم العصر والمغرب متتاليتين، ثم العِشاء قبل التوجه للفراش.

الوضوء[2] نوعان طبقًا للحدث. يتطلب الحدث الأكبر غمر الجسم كله بالماء، بينما ينحصر الأصغر في غسل اليدين والقدمين والوجه، أي الوضوء اللازم قبل الصلاة، والذي يمكن إجراؤه في المساجد حيث تحتوي جلتها تقريبًا على صهاريج مخصصة لهذا الغرض.

تلعب كل هذه الشعائر والطقوس الدينية دورًا كبيرًا في حياة الشرقيين من أتباع ملة محمد، لذا كان من الصعب إلى حدّ ما تجنب وصفها وصفًا كاملًا.

انصرم ما تبقى من رمضان، وسار على نفس الوتيرة التي تحدثت عنها دون وقوع أحداث هامة، لكن شهد آخر أيامه جلبة كان لها عواقب خطيرة في المدينة. إنها قصة جديرة بالسرد؛ حيث تُلقي الضوء على الناس وحكومتهم. تبين أن سببها تافه جدًّا، فلقد تصادف وجود رجل ينتمي إلى الوهَّابيين[3] في المسجد الكبير، بينما كان بعض الناس يزورون قبر النبي يحيى، الذي يُعتقد أنه مدفون هناك. تتلخص هذه

---

[1] يُعرف بالتشهد. (المترجمان)

[2] يقصد ويفل "الطهارة من الحدث" وهي تشمل الوضوء أو الغسل. (المترجمان)

[3] نسبة إلى محمد بن عبد الوهاب (1703 – 1791م). ظهر في نجد وتحالف مع محمد بن سعود. (المترجمان)

الزيارة في الوقوف أمام المقام والتسليم والتحية المسهبة على صاحبه. يعتقد الوهّابيون أن من يفعل ذلك إنما هو وثنيّ، ومن ثم فقد بدأ الرجل يتفوه بكلام ضد هذه العادة، فجذب إليه عددًا كبيرًا من الحاضرين. كان أحدهم عربيًّا وعالمًا معروفًا من مكة. قام العالم بضرب الوهّابي على أمّ رأسه واضعًا حدًّا لموعظته. وتصادف وجود حاكم دمشق في المسجد في ذاك الوقت، وعاين بنفسه هذه الإجراءات غير اللائقة بالمرة، فأمر بالقبض على العالم دون أن يتحمل عناء التحري عن الموضوع. لم يحدث أكثر من ذلك حتى حلول المساء؛ حين تجمع حشد من الناس أمام دائرة الحكومة التي تقع في مقابل الفندق الذي نقيم فيه وتُشرف على الميدان الكبير. كان تجمعهم بسبب ما وقع من قلاقل في الظهيرة، ويهدف إلى إطلاق سراح السجين الذي حَظِي بتعاطف شعبي كبير. عندما شاهدنا هذا الحشد ظننا أن الهلال الجديد قد ولِد، مما يعني نهاية شهر الصوم، وهو مناسبة جديرة بالغبطة والفرح. كان مسعودي مريضًا وطريح الفراش، فبادرت أنا وعبد الواحد بالخروج لنرى ما يجري. اختلطنا بالجمهور في اللحظة التي بدأ فيها الاضطراب. كسرت الغوغاء الباب واندفعت داخل المبنى من الشرفة التي لاح منها شخص ليخطب فيهم. وصلت مجموعة من جنود المشاة فوضعت نهاية للخطاب، وأعادت السيطرة على الدائرة، وطردت المقتحمين خارجها. بُذلت المساعي لتشتيت المتجمهرين الذين زاد عددهم باضطراد. وصلت التعزيزات مدججة بالبنادق المثبت فيها النصال، لكن الجنود استخدموا الدباشك وحسب.

ثار الناس لأنفسهم بالعصي والحجارة وكل ما طالته أيديهم. أُصيب العديد منهم، لكن جراحهم لم تكن خطيرة على حد علمي. هددت القوات بإطلاق النار، لكنهم امتنعوا عن ذلك لحسن الحظ. بحلول منتصف الليل تحول المكان إلى حلبة من الضجيج والاهتياج مما جعل الحاكم في موقف ضعيف - من وجهة نظري - وحدا به للنزول على رغبة الجمهور وإطلاق سراح السجين الذي حُمل إلى منزله في نشوة النصر وسط حماس عارم. تم التعامل معنا بشكل عنيف خلال الصدام الذي لم يكن هناك بد من تجنب التورط فيه. تلقيت في بداية الأحداث ضربة مؤلمة في حينها بدبشك البندقية على كتفي الأيسر.

توقفنا في طريق العودة إلى الفندق لنستمع إلى ضابط تركي كبير في السن يخطب في جماعة من سكان المدينة. كان مما قال: "إذا كانت هذه فكرتكم عن الحرية فإني أحذركم أن الدستور لن يدوم، وسوف نفقد ما حصلنا عليه بالدم والدموع. كنتم لا تجسرون قبل عصر الحريات على التصرف بهذه الكيفية التي تُظهر للعالم بأسره أن هذا البلد غير جدير بالمؤسسات الحرة." استمر الرجل مُوضحًا أن السجين كان سيُفرج عنه في الصباح على أي حال، أو بمجرد أن تستوضح السلطات حقيقة ما حدث في المسجد.

سمعنا الكثير عن الحرية في دمشق. كان الحماس لنظام الحكم الجديد في ذاك الوقت في أوج قمته. لم تنل آرائي اليمينية - مهما كانت - أي تعاطف. أثارت المشاكل في البلقان كثيرًا من السخط على النمسا. اقترح البعض مقاطعة البضائع النمساوية وطُبق هذا الأمر بالفعل في القسطنطينية. إن المؤسسات المنتخبة في الشرق - في قناعاتي الشخصية - لن يحالفها النجاح لأمد طويل لأن طبيعة الناس تستدعي ضرورة وجود حاكم قوي لا يخضع منصبه لهواهم وميولهم.

يتم الاحتفال بنهاية رمضان بإنفاق الكثير على البارود وأشياء أخرى تُدخل البهجة في النفوس. يرتدي الجميع ملابس جديدة إذا استطاعوا تدبير ذلك. تُغلق الأسواق، وتبدو البلدة في حلة العطلة الرسمية المعتادة. أردية السوريين ليست في جمال ملابس بلاد شرقية أخرى حيث يرتدي جلتهم سراويل قطنية فضفاضة وقمصان تصل إلى ركبهم وصدرية من الحرير الملون مفتوحة من الأمام. في الأجواء الباردة يضع البعض فوق كل هذا معطف طويل على الطراز الأوروبي، بينما يُفضل آخرون الجُبّة وهي زي عربي أصيل تُشبه الثوب. ويضعون على رؤوسهم طرابيش ملفوف حولها قطعة من الحرير (الشملة).

عادة ما يرتدي الغرباء ملابس مواطنهم الأصلية مما يضفي جوًّا من الألوان الزاهية في الشوارع، خاصةً قرب موسم الحج حين يزور دمشق العديد من الأجانب قبل

توجههم إلى المدينة. تبين لنا أن الملابس التي أحضرناها غير مناسبة للمناخ، ومن ثم فقد تكيفنا مع زي أهل البلد إلى حد ما، لكن عبد الواحد حال دون وضعي طربوشًا خشية أن يظن الآخرون أني تركي، وهو أمر رآه غير محبب لأسباب كثيرة، وعليه فقد ارتديت عمامة وجبة سوداء، فنلت من ساعتها بوجه عام شرف الاعتقاد أني آت من الحجاز.

زرنا يوم الاحتفال صديقنا التاجر، عبد الله الوريدي، في منزله الذي يقع في الضواحي، وتحيط به حديقة صغيرة غنّاء تضُم فسقيات. حجرة الضيوف في المنازل الشرقية هي بصفة عامة عبارة عن جناح على شكل ممر طويل، ينتهي إلى منصة مرتفعة تحوي وسائد؛ يجلس عليها القرفصاء رب المنزل وضيوفه،[1] بينما يقف الخدم أو يقعدون في المستوى المنخفض بجوار الباب. قضينا ساعات طويلة هناك كما هي العادة ننعم بكرم الضيافة. رد الوريدي الزيارة في اليوم التالي فنشأ بيننا جو من الود من وقتها.

شاهدنا في ثاني أيام العيد انطلاق المحمل إلى مكة. دأبت قوافل الحجيج على المغادرة في هذا اليوم قبل استكمال السكك الحديدية. استغرقت الرحلة إلى المدينة أربعين يومًا، ومثلت مشقة حتى للأثرياء، أما الفقراء الذين يسافرون سيرًا على الأقدام فإنهم يواجهون أوقاتًا صعبة. والمحمل هو هودج مزيّن بعناية يُرسل سنويًّا مع هدايا أخرى من دمشق إلى الحرمين للتدليل على التبجيل. ينطلق محمل مشابه من مصر، كما كان هناك محمل ثالث يخرج من بغداد، لكنه توقف في السنوات الأخيرة لأسباب ما. يحتشد جمهور كبير ليُودعوا المحمل، ويرافقه الحاكم وكبار الشخصيات في ثيابهم الرسمية لمسافة معينة، وأما الجمل الذي يحظى بشرف حمله فحجمه هائل، وأحسب أنه من أنقى السلالات.

---

[1] يُعرف بالمجلس العربي. (المترجمان)

تعرفنا بعد انصرام عدة أيام من انطلاق المحمل على أخوين يدرسان الشريعة بمدرسة كربلاء؛ كانا في طريقهما إلى الحج. سُرَّا لمقابلتنا لأنهما لا يعرفان أي شخص في دمشق. قضينا معًا أوقاتًا طيبة كثيرة خلال ما تبقى من إقامتنا. قمنا بعمل الواجب معهم بالنسبة للعشاء والمسرح، فقاما في المقابل باصطحابنا إلى المسجد الذي يُعتقد - خطأ على ما أظن - أن زينب بنت الرسول مدفونة فيه.[1] كانت رحلة لطيفة أعطتنا تصورًا عن الخصوبة الاستثنائية التي تتمتع بها أراضي هذه البلاد. أدينا المراسم اللائقة بحق الزيارة، وأما التلاوة فقد اضطلع بها أكبر الأخوين، وأعني الشيخ حسن الذي يتمتع بصوت رخيم. جلسنا بعدها في المسجد ندخن السجائر لخلوه من أي شخص. بالمناسبة لقد كان هذا أمرًا سيئًا من جانبنا. قمنا كذلك بنقش أسمائنا على الجدار الخارجي للمسجد، وهي عادة متأصلة عند العرب بشكل غريب.

تناولنا طعام العَشاء ذاك المساء معهما في منزل استأجراه خلال إقامتهما في دمشق. تمنيت لو أننا حذونا حذوهم عوضًا عن النزول في فندق. إن الافتراض بأن الطعام الشرقي غير مستساغ للذوق الأوروبي أو أن التعود عليه يستغرق وقتًا طويلًا لهو خطأ جسيم. لقد وجدته ممتاز بشكل عام؛ العيب الوحيد فيه أنه جدّ مُبَهّر في مجمله، لكن الشرقيين تقريبًا لا يحتسون الخمور، ومن ثم لا يشعرون بالقلق على أكبادهم.

عزمنا السفر إلى المدينة (المنورة) صُحبة، لكن هذا الأمر لم يتم لأن الشيخ حسن وقع في الحب. لقد أُغرم بابنة أحد تجار دمشق ففاتحه في أمر الزواج منها على الفور. لم يكن من المرتقب الاتفاق وشيكًا على الترتيبات قبل الحج، فقرر الأخوان تأجيله. إن مما أثار دهشتي هو تحمل الأخ هذا الهراء، بل وترديد نفس الكلام. لقد

---

[1] يقصد ويفل "حفيدته" فالمقام للسيدة زينب بنت علي وأمها فاطمة الزهراء. تعرف البلدة الآن باسمها وتقع على بعد عشرة كيلومترات جنوب دمشق. (المترجمان)

كانا ماضيين في نيتهما، وأجسر على القول بأن وراء الموضوع سر يُفسر هذا التغيير المفاجئ الذي طرأ على خطتهما.

اضطُررنا في ذاك الوقت إلى تغيير الفندق بعد أن تقرر هدمه. انتقلنا إلى فندق آخر، لكننا مكثنا فيه ليلة واحدة لأسباب وجيهة وكافية؛ كلما أفكر فيها أشعر برغبة في الحك. حالفنا التوفيق في محاولتنا الثالثة بالرغم من أنه تعين علينا أن ندفع زيادة بنسبة بسيطة عن المخصص الذي قررته، لكن الغرفة كانت مريحة جدًّا ونظيفة للغاية.

خلال إقامتنا في هذا الفندق تورطنا أو كدنا أن نتورط في ضم أشخاص غير مرغوب فيهم إلى صحبتنا. في أحد الأيام قابل عبد الواحد على الدرج امرأة في منتصف العمر. بادرته بالتحية مخبرة إياه أنها من حلب وأنها في طريقها إلى الحج مع بنتيها. شغلت النسوة الغرفة التي تحتنا. حين عرفن أننا في طريقنا إلى الحجاز نشدن صحبتنا لأنهن يسافرن بدون رجل. في واقع الأمر لم يراع عبد الواحد الأصول على الإطلاق فبدلًا من أن يستشيرني أولًا تطوع قائلًا إن هذا من دواعي سروره. ضعف أمام قلبه، ولم يذكر هذا الأمر لي. في اليوم التالي حوصرت على الدرج بنفس الطريقة وحين تملكتني الدهشة وصفت عبد الواحد بنفس الكلمات. علقت المرأة قائلة: "يا إلهي! لقد أبدى صديقك استعدادًا تامًّا. هذا ما أخبرنا به. ينتظر موافقتك وحسب." هربت إلى الطابق الأعلى، ووجهت عبد الواحد بنبرة حادة وصارمة أن ينزل للمرأة في التوّ، ويبحث لنا عن مخرج من هذا المأزق بأي شكل. ذكّرته بمصير أنانياس[1]، مؤكدًا له أنه لو زجّ بي ثانية فإنه سيحسد أنانياس على نهايته، مقارنة بالجزاء التعس الذي سيواجهه. أعرب مسعودي أيضًا عن دهشته من جسارة عبد الواحد الذي نزل كما اتُّفق في وَجَل. تسحبت أنا ومسعودي على أصابع أقدامنا إلى حافة الدرابزين

[1] حنانيا الدمشقي المذكور في الإصحاح التاسع من سفر أعمال الرسل. (المترجمان)

لنسمع ما سيقوله. بدأ عبد الواحد بالتعبير عن بالغ ندمه وعميق أسفه على حرمانه من متعة الصحبة التي هفا إليها. أضاف أن الشخص الثالث في جماعتنا رجل متفقه وورع ولا يمكنه السفر مع نساء لسن من محارمه. انفجرت النسوة في الضحك بعد أن استشففن أنه يعني مسعودي. لا بد أنهن خبرنه من قبل وأنهن وضعن أيديهن على حقيقة المسألة. عاد عبد الواحد أدراجه مرتبكًا من مواجهة مسعودي الذي استشاط غضبًا في المقابل. انتهينا إلى أنه من المنطقي ألا نتوقع أمانة أو لياقة عامة من شخص اتخم نفسه بالحلويات في شهر رمضان. حين صادفنا السيدات من جديد أخبرهن مسعودي أن سمعة عبد الواحد في الحضيض، وأن من تتحدث معه من النسوة تجازف بتلطيخ سمعتها في الوحل.

في واقع الحال لقد كنا في موقف لا يسمح بمساعدتهن حتى لو وددنا القيام بذلك. لم يكن من الإنصاف أن نغامر بهن في كارثة محققة لو افتُضح أمري. إن جل ما أخشاه هو أن رفضنا قد فُسر من جانبهن على أنه قسوة وخذلان.

اقترب موعد رحيلنا فبدأنا نُعِد للرحلة. ابتعنا ملابس الإحرام البيضاء الضرورية لدخول مكة والبقاء بها الثلاثة الأيام الفعلية للحج. ابتعنا أيضا خيمة وأبسِطة وحقائب سروج (غُبُط) لتحمل الاحتياجات الخاصة بالتخييم من سكاكين وشِوَك وأطباق وأواني طهي، ناهيك عن الشيشة والشاي والتبغ.

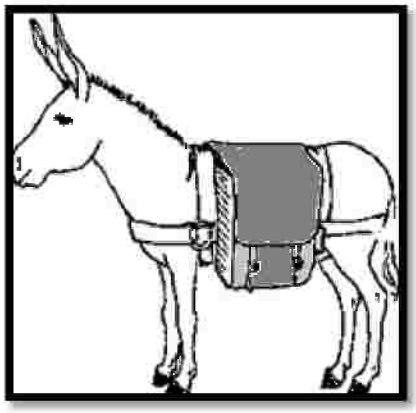

يمكن ابتياع هذه الأغراض من دمشق بسعر أقل بكثير من المدينة. أودعت مائتي جنيه إسترليني، وهي كل ما تبقى من أموالي لدى صديقنا عبد الله الذي سلمني شيكين لوكيليه في المدينة ومكة حيث لا توجد بنوك هناك.

عقدنا العزم على الانطلاق في الخامس عشر من الشهر، لكننا اضطُررنا لتأجيله حتى الثامن عشر؛ حيث إن القطارات كانت معبئة بالقوات المرسلة لتعزيز ثكنات المدينة، عقب وصول تقارير تفيد بأن القلاقل التي واجهتها مع القبائل البدوية خلال احتفالات شهر رمضان قد تحولت إلى حرب شعواء. انتشرت بصفة يومية في دمشق شائعات يصعُب تصديقها عن طبيعة هذا الاقتتال الضروس. ظلت الحقيقة بعيدة المنال فلم يُسمح للصحف بالغوص في التفاصيل، ولا للمسئولين بالحديث عما يجري هناك. بدا مؤكدًا في مستهل الأزمة أن القوات الحكومية قد مُنيت بهزيمة نكراء، وأن حصارًا قد فُرض على المدينة. نزلت هذه الأخبار على قلبي بردًا وسلامًا؛ إذ أنها تُعزز من فرص قيامي بالرحلة في أجواء ميسرة في العديد من المناحي. في زمن الحرب والاضطرابات يكون هناك ما يكفي ليشغل عقول الناس، ومن ثم يصبحون أقل تطفلًا، أضف إلى ذلك، حبي للتواجد في الأماكن المثيرة، وعليه فقد كنت توّاقًا للسفر واللحاق بالمشهد الجاري.

الفصل الثالث

سكك حديد الحجاز

تقع محطة سكك حديد الحجاز في الجانب الشرقي من دمشق، وعلى مسافة قريبة منها. استغرق الوصول إليها من الفندق ما يناهز الساعة. كان من المخطط أن ينطلق القطار في الحادية عشرة صباحًا طبقًا للتوقيت الأوروبي.[1] نُصحنا ألا نتأخر عن التاسعة حيث إنه من المتوقع أن يكون القطار مكتظًّا بالركاب. يحتوي القطار على درجتين وحسب: الأولى والثالثة. ولأن الرحلة تستغرق أربعة أيام على أقل تقدير، ولأنه كان معنا من المال ما يكفي، فقد أغراني ذلك بالسفر في عربات الدرجة الأولى، خاصة أن الفرق في السعر بينهما ليس كبيرًا. بالرغم من ذلك، رأى أصدقاؤنا الدمشقيون في هذا التصرف نوعًا من التبذير. علقوا قائلين إنه حتى "أفاضل الناس" يسافرون على الدرجة الثالثة، وإنها تضارع تقريبًا الدرجة الأولى في الراحة. تخليت عن الفكرة عندما أدركت أنه من المحتمل أن يُخصصوا لي ديوانًا بمفردي، وكنت قد رغبت إشاحة الأنظار بعيدًا عني قدر الإمكان وأن يكون وصولي بشكل طبيعي. شعرت بالامتنان فيما بعد لأني سمحت للآخرين بإقناعي، فلقد كان دخولي المدينة مثيرًا بما يكفي.

وصلنا المحطة في توقيت جيد. وضعنا أيدينا على مقاعد تركناها في حراسة مسعودي، بينما ذهبت أنا وعبد الواحد لابتياع التذاكر وشحن الحقائب. بلغت التكلفة ثلاثة جنيهات إسترلينية وعشرة شلنات لكل منا. ليس هذا مبلغًا كبيرًا بالنسبة لرحلة تقترب من الألف ميل. كان علينا أن ننتظر ساعتين ونصف فانتقلنا إلى مقهى صغير بصحبة صديقنا عبد الله الذي أتى ليودعنا. ترجلت معه فيما بعد لمسافة في اتجاه دمشق. انتهز الرجل هذه الفرصة فوجه لي بعض من نصائحه السديدة. كان مما قال: "تَذّكر أن أهل الحجاز ليسوا متمدنين كما نحن هنا. لا تتشاجر معهم حتى لا تزجّ

---

[1] توقيت أوروبا الشرقية. (المترجمان)

بنفسك في المتاعب. لقد استمرءوا كسب المال من الحجاج، فاحذر أن تقع ضحية للغش. لا تتهم أحدهم - ولو حتى تلميحًا - أنه حاول السطو على مالك. لا تتمادى في الإنفاق في البداية، فربما سلمك ذلك للعوز فيما بعد. إذا تعرضت للهجوم في القطار أو القافلة بواسطة عدد غفير فاعزف عن الاقتتال، وتخل عن متاعك بهدوء؛ حتى لا يصيبك أذى منهم." أوصاني عبد الله كذلك أن أتصدق قبل بدء الحج، وأن أؤدي الصلاة على أوقاتها خلاله بغض النظر عن أحوالي فيما سبق. حمَّلني أمانة أن أصلي ركعتين بالنيابة عنه في المسجد النبوي. حلت لحظة الرحيل فعانقني بحرارة على نحو غير مقبول في أي بقعة من أرجاء إنجلترا.

حين أُبنا إلى القطار وجدناه في حالة عارمة من الفوضى. وُضعت دككه التي صُنعت من الخشب وحسب؛ ولا تتسع الواحدة منها لأكثر من شخصين؛ في مواجهة بعضها البعض على الجانبين، سامحة بوجود ممرّ في المنتصف.

كنا قد حجزنا اثنين منها، لكن الركاب أزاحوا أغراضنا غصبًا من على إحداها، بالرغم من اعتراضات مسعودي. أضحت العربة مكدسة كمثيلاتها في القطار. لم يكن هناك ثمة حيز لفعل أي شيء حتى أننا عُصرنا مع أغراضنا بأقصى درجة من الشظف. كان أمامنا ساعة باقية من الانتظار، لكننا لم نجرؤ على مغادرة العربة، ولزمنا أماكننا حتى موعد التحرك. وصل بعض المسافرين المتأخرين، لكن الركاب

أبعدوهم عن الباب. تنفسنا الصعداء حين بدأ القطار في التحرك بعد نصف ساعة من التأخير.

ضمت عربتنا مجموعة من الضباط الأتراك في زيهم العسكري وبعض من الحجاج السوريين وثلة من المغاربة في هيئة مزرية. جلس قبالتنا في الجانب الآخر من العربة تركيان، أب وابنه، وليس في متاعهما – على ما يبدو – سوى جراموفون.

انتشرت هذه الآلة في الحجاز، كما يمكن الحصول على العديد من الأسطوانات العربية التي يحمل بعضها أجزاء من القرآن. لطالما فكرت مليًّا في هذه الآلة التي تفتقر إلى الاحتشام، ودأبت على استغلال أي فرصة سانحة لأشيطنها.

سافرنا عبر أراض زراعية منبسطة حتى غشينا الليل. في صباح اليوم التالي كان "جبل الشيخ" الذي تشرف قمته الجميلة المكسوة بالجليد على دمشق ما زال في مدى الرؤية. مر مسار القطار بمحطات كبيرة في اليوم الأول للرحلة، لكن مع حلول صباح اليوم الثاني ولج في الصحراء حيث لا يُرى إلا بضع منازل متناثرة وسط تربة جافة محروقة، وكلأ هزيل، أخذ يتلاشى كلما توغلنا جنوبًا. كنا قد ابتعنا ما يقيم أودنا من أطعمة: بيض مسلوق وخبز وكعك، لكن مع الغبار والجو الخانق لم نستطع تناول أي شيء. غفونا أشواطًا خلال الليل، لكن النوم جافانا في وضعيتنا المُقيدة. أُصبت في اليوم الثاني لانطلاقنا بنوبة من حُمى الملاريا التي لازمتني حتى بلوغنا المدينة، وفوتت عليّ فرصة الاستمتاع بالرحلة. إن التعاطف الذي أبداه رفقاؤنا المسافرون مع

حالتي الطارئة أمر يستحق الإشادة. حين عاينوا أعراض المرض بادية عليّ صمموا على التكدس حتى يوفروا لي مكانًا أتمدد فيه كلما طاوعتهم في ذلك. قام الضباط الأتراك أيضًا بطهي بعض الأشياء من أجلي في موقدهم الذي يعمل بالفحم، كلما كان ذلك ممكنًا، كما أمدوني ببعض الفاكهة؛ وكانت حماقتنا قد دفعتنا إلى التخلص من مخزوننا منها. تمكنا من رد جميلهم بشكل ما فقد كان في حوزتنا "وابور جاز" فأعددنا لهم ـ كلما أرادوا ـ أكوابًا من الشاي في غضون دقائق معدودة.

في نهاية الممر كان هناك ديوان صغير مُغلق يشغله تركي طاعن في السن بصحبة ابنه وزوجته وكريمتيه. لقد شعرت بالأسى تجاه النسوة فلم يكن هناك غيرهن في العربة. قضين معظم الوقت في إنشاد ما يُعرف بالمولد، وهو عمل شعري يصف مولد الرسول.[1]

توقفنا في التاسعة من صباح اليوم الثالث لانطلاق الرحلة في إحدى المحطات، ولم نبرحها حتى الخامسة من مساء نفس اليوم بسبب السائق. تعجبنا من عدم مواصلته الرحلة دون عذر واضح. بَيَّن الرجل أنه مُتعب للغاية وفي حاجة إلى النوم. أبدينا احتجاجات بسيطة، لكن حين سمعنا أن قضبان الوصلة القادمة محفوفة بالمخاطر، شعرنا بالسعادة حقًّا لترك القطار والتريض خارجه. حوت المحطة –

[1] يقصد ويفل بردة البوصيري أو ربما إحدى قصائد شوقي الخمس عن المولد النبوي. (المترجمان)

كأغلب مثيلاتها على الخط - كوخين من القصدير وصهريج مياه. سرعان ما عدنا أدراجنا إلى عربة القطار بحثًا عن مأوى من حرارة الشمس. إن الرمال الحمراء للصحراء العربية وبادية الشام لا تُجهد العيون في ضوء الشمس المبهر كما تفعل رمال مصر، كما أن هضابهما تزيل بشكل عام الوحشة من النفوس مقارنةً بالصحراء الكبرى.

استأنفنا المسير بعد أن جدد السائق نشاطه بشكلٍ كافٍ. مرت ليلة طويلة أخرى ونحن نجتاز مناطق تقطعها بصورة خلابة تلال تغطيها أشكال غريبة من الجلاميد الهائلة. وقف بعضها شامخًا كمسلات كليوباترا الضخمة، بينما ذكّرني البعض الآخر بصخور "ستون هينج".[1]

اخترقنا لمدة ساعة تقريبًا سهولًا لا يُرى فيها على مدّ البصر سوى الصخور التي تُشبه إلى حد ما "صخرة الضفدع"[2] بمنطقة "تنبريدج ويلز".[3]

---

[1] Stonehenge مجموعة من الصخور في سهل "ساليسبري" بإنجلترا. (المترجمان)

[2] Toad Rock.

[3] Tunbridge Wells، منطقة في مقاطعة "كنت" بإنجلترا. (المترجمان)

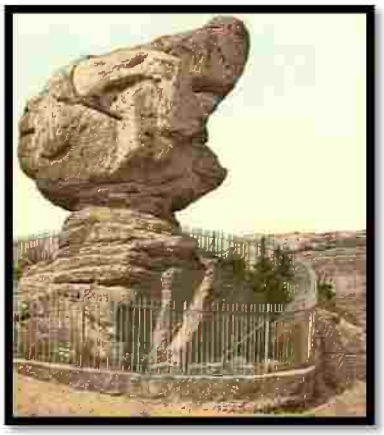

دخلنا الآن شبه الجزيرة العربية، وكلما توغلنا فيها كلما اتسع نطاق المشهد. ظهرت سلاسل جبلية شامخة على كلا الجانبين، وأصبح التواء نتوءات للصخور أكثر غرابة. أخذ القطار مسارًا متعرجًا بين جبال تتعلق على حوافها الحادة صخور ضخمة مما يهدد السلامة. بلغنا مدائن صالح قرب منتصف النهار. تُعتبر هذه البقعة حد منطقة الحجاز؛ لا يُسمح بعدها بالمرور إلا لمن يدينون بملة محمد. أثناء مد سكك حديد الحجاز تم صرف المهندسين الأوروبيين كافة عند هذه النقطة. تحمل الأتراك والعرب تبعة ما تبقى من الأعمال بالكامل. يميز محطة "مدائن صالح" - التي لا تعدو أن تكون كوخين من القصدير - وجود منازل صخرية استثنائية لطالما أثارت دهشة الرحالة منذ أبد الآبدين. لقد أبدع المكتشف "داوتي"[1] وآخرون ممن ارتادوا الجزيرة العربية في وصف هذه المدائن. نُحتت كهوف بأبواب في بطون الجبال الهائلة المنفصلة بتلك الرقعة. تُشبه هذه الكهوف إلى حد كبير معبد أبي سمبل الصخري في أقاصي النوبة. هناك المئات من هذه المنازل جميلة الصنع، لكني لم أتمكن من فحصها عن كثب. طبقًا للرواية العربية كان هذا المكان - كما تشير تسميته - مدينة يسكنها النبي صالح.[2]

---

[1] Thomas Doughty، 1545 – 1578م. (المترجمان)

[2] نبي الله صالح من أنبياء العرب، ولم يُذكر في الكتاب المقدس، مثله في ذلك مثل هود وشعيب عليهما السلام. (المترجمان)

أشار القرآن إلى أن قومه كانوا غلاظ القلوب، فرفضوا الاستماع إلى تعاليمه، بل وتعدوا ذلك إلى قتل ناقته الخارقة. ونتيجة لما سبق نزلت عليهم في نهاية المطاف نوبة من غضب الطبيعة، كتلك التي اجتثت مدن الغور[1] عندما حل بهم العذاب صبحًا ومعهم زوجة لوط. "ولوطًا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون. أئنكم لتأتون الرجال شهوةً من دون النساء بل أنتم قومٌ تجهلون. فما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوا آل لوطٍ من قريتكم إنهم أناس يتطهرون. فأنجيناه وأهله إلا امرأته قدرناها من الغابرين. وأمطرنا عليهم مطرًا فساء مطر المنذرين."[2]

توقفنا في ظهيرة اليوم الثالث بقرية كبيرة نسبيًّا يحوطها النخيل. كانت هذه القرية أول منطقة آهلة بالسكان نراها منذ أن غادرنا سوريا. قضينا بها ساعة، قمنا خلالها بتعويض إمداداتنا، كما احتسينا بعض القهوة. لاحظت أن جميع محطات السكك الحديدية جنوب مدائن صالح محصنة بالخنادق والأسلاك الشائكة. إن المشهد برمّته يستدعي الحرب في جنوب أفريقيا. شهدت هذه المنطقة اقتتالًا بينما كان الخط الحديدي تحت الإنشاء. ما زالت بعض المواقع هنا تتعرض للهجوم بين الفَيْنة والأخرى على يد قبائل البدو الرحّل. مررنا بقاطرات خرجت عن قضبانها لأنه لم يتم وضعها بأسلوب سليم. تعين على سائق القطار التقدم بحذر شديد عند اجتياز هذه الوصلة. قيل لنا إنه من المحتمل أن نتعرض للإغارة في أي مكان بين هذه النقطة والمدينة، لا على يد القبائل المتناحرة، بل بواسطة عصابات السلب والنهب التي تحترف السطو المسلح، ومن ثم فقد تأهب كل منّا بسلاحه. كان من المتوقع أن نصل المدينة بحلول منتصف نهار اليوم التالي الذي وافق الأحد.

لم يحدث شيء أثناء الليل. ابتهجنا لمجرد التفكير أنها آخر ليلة يتحتم علينا قضاؤها في هذا القطار البغيض. شعرت أن صحتي أفضل الآن بالرغم من أنني

[1] المقصود غور الأردن، وهي خمسة مدن كما ذكر سفر التكوين. (المترجمان)
[2] النمل، 54-58. (المؤلف)

توقفت عن أخذ العلاج، أو ربما كان هذا هو السبب، سيان كان الأمر. تأخر وصول القطار إلى حدّ ما؛ ليس قبل الساعة الواحدة حين انتهت إلى آذاننا أصوات دوي مكتوم صادرة عن مدفعيات بعيدة مما أشار بأننا نقترب من وجهتنا. أضحت محطات السكك الحديدية التي مررنا بها من الآن فصاعدًا محصنة بالمتاريس والثكنات بقوام سرية أو يزيد. لم ترق لي بشكل خاص هذه الدفاعات أو حتى المواقع المنتقاة لها. ظهرت بعد فترة قليلة من بين فجوات الهضاب مآذن المسجد النبوي. بدت كالمسلات ونحن نعتلي وادي المدينة نفسها. أشار أحد الأصدقاء الأتراك وهو يقف معي على عتبة باب القطار إلى عدة أماكن ذات أسماء معروفة: جبل أُحُد حيث مُنيت قوات الرسول بهزيمة أمام قريش، قبر عمه حمزة، وأبواب المدينة المختلفة. بينما رُحنا نقترب من مقصدنا وصل إلى أسماعنا صدى إطلاق البنادق. نفثت القاطرة بخارها استعدادًا لدخول المحطة. توقعت نسبيًّا أن أجد القتال بالسلاح الأبيض محتدمًا خارج مكتب حجز التذاكر، لكنه كان في هذه اللحظة دائرًا في الجانب الآخر من المدينة، وبذلك بقيت المحطة بمنأى عن النيران. علمت أنها شهدت مواجهات في الصباح، ومن ثم عزفت الجماهير التي تتجمع عادة لاستقبال القطار عن الحضور، وكان ذلك من حسن حظي، كما اتضح فيما بعد.

أجد من الضروري في هذا الموضع أن أستطرد من جديد لأشرح دواعي وأسلوب هذه الحرب المحدودة، وكيف استطعنا المرور دون أن يصيبنا أذى من فارضي الحصار.

تخضع شبه الجزيرة العربية نظريًّا للحكم التركي، وعليه فإن عرب القبائل التي تستوطنها هم في الأساس رعايا لتركيا. وبما أن تركيا هي أقوى دولة لأتباع ملة محمد في الوقت الراهن فإن حاكمها يحمل لقب "أمير المؤمنين"، وعلى عاتقه تقع مسئولية حماية الحرمين الشريفين والحفاظ على النظام في المدينتين. ليس لتركيا في

واقع الأمر سلطة حقيقية على الحجاز عدا مكة والمدينة والموانئ الساحلية. ظل البدو على حالهم دومًا قبائل قائمة بذاتها، لكل منها مناطق نفوذ وشيوخ وأعراف وتقاليد. تنحدر هذه القبائل من أصول عريقة وتحتفظ بسلاسل النسب الخاصة بها، فتراهم ينفرون من بقية العالم، ولا يستثنون في ذلك ما يُسمى بعرب الحواضر ممن تختلط دماؤهم، أو المستعربين كالمصريين والسوريين. من المؤكد أن عددًا قليلا من الأجناس يحق لها أن تفخر بسلالاتها الخالصة أو تقاليدها المميزة، ومنهم العرب، لكن هذا العرق لم يقم بأي عمل منذ بدء الخليقة؛ عدا الاقتتال وقطع الطرق.

تسكن هذه الفصيلة - المسماة بالبدو - الصحراء. بلادهم جافة ومجدبة بشكل عام؛ اللهم إلا بضع رقع تتمتع بالخصوبة. لا يميل هؤلاء الأقوام إلى بناء المدن، بل يرتحلون من مكان لآخر. تعاف أنفسهم العادات الحضرية، ويشمئزون من مقوماتها بما فيها المنازل. طعامهم بسيط وملابسهم عبارة عن ثوب قطني وحيد. سعيهم المحبب هو السلب والنهب، أو البحث عن حرب تجلب عليهم منفعة جيدة. كلهم – سواء هذا الفارس المغوار أو سائس الجمل - يتمتعون بقوة البأس والمراس، وخلا الجرأة وسعة الحيلة، تجمع شخصياتهم بين الجسارة وكرم الضيافة من ناحية والغدر من ناحية أخرى. وبما أن الحرب ليست لعبة "كركيت" فإنهم يستحلون الأشياء. لا يُمكن اعتبارهم متعصبين دينيًّا على الإطلاق، على الرغم من الصورة المعهودة عنهم، فلا هم يصلون ولا يصومون؛ ولا يعدون أن يكونوا في الحقيقة مسلمين بالاسم وحسب.

ينظر الحجاج إلى البدو كقوم من الهمج.؛ ولديهم من وجاهة الأسباب ما يجعلهم يبغضوهم ويهابونهم، تمامًا كشعور عرب المدن إزاءهم.

عوضًا عن إرسال قوات كبيرة لترافق وتحرس قوافل الحجاج، اهتدى الأتراك لسنوات خلت إلى وسيلة لتقليل المتاعب عن طريق بذل الإتاوات لشيوخ

القبائل التي تمر القوافل عبر أراضيهم مقابل ألا تتعرض للهجمات. قد يرى البعض أن هذا أمرًا مهينًا لحكومة دولة تخضع للابتزاز في مناطق نفوذها، لكن ليس هناك بد من ذلك. إن بسط الهيمنة على شبه الجزيرة العربية ونشر الجنود في ربوعها حتى تصير أكثر أمانًا للمسافرين لهو ضرب من الخيال تمامًا مثل غزو القمر،[1] فلا الأتراك ولا عداهم يطمح في إنجاز هذه المهمة. إن طبيعة هذه البلاد وصعوبة التنقل عبرها ونُدرة المياه، كلها أمور لا تعمل على توطين جيش أوروبي، ناهيك عن أن البدو أنفسهم سيناوئون هذا الأمر بشدة، ربما أكثر من ميليشيات البرابرة الذين دمرنا جمعًا غفيرًا منهم في "أم درمان".[2] إن البدو مسلحون تسليحًا جيدًا ببنادق حديثة (نسبة كبيرة منها ذات أعيرة صغيرة). يمكنني الاستنتاج من معدل إطلاق الرصاص الذي جرى على مدى بعيد من المدينة أن البدو لا يواجهون مشاكل كبيرة في الحصول على الذخيرة. لا تُبذل من واقع مشاهداتي محاولات حثيثة لمنع تهريب البنادق والذخائر فكلاهما يُباع علنًا في أسواق مكة والمدينة.

من المستحيل تقدير عدد البدو في شبه الجزيرة العربية بما أن ثلاثة أرباعها أراض مجهولة. بالرغم من ذلك قيل لي إنه بإمكان القبائل الحجازية مجتمعة دفع مائة ألف مقاتل إلى الميدان.

استمعت الحكومة التركية مع اكتمال خط سكك حديد الحجاز[3] لنصيحة متهورة فتعجلت في ظل هذه الظروف بوقف المبالغ التي تُبذل للقبائل تقديرًا لسلوكها الآمن حيال طرق الحجيج. لم يطرأ تغيير كبير في الحقيقة على الوصلة بين سوريا والمدينة حيث لا تتعرض القوافل لمتاعب جمّة، لكن الأخبار انتشرت في الجزيرة

---

[1] تجدر الإشارة بأن ويفل كتب هذه الكلمات عام 1908. (المترجمان)

[2] الإشارة هنا إلى معركة أم درمان، 1898 بين هربرت كيتشنر وعبد الله التعايشي، خليفة المهدي. (المترجمان)

[3] يُعزى هذا العمل بصفة أساسية للسلطان المخلوع، عبد الحميد. ساهم العالم الإسلامي بأسره في التبرع لدعم هذا العمل. مُد الخط إلى المدينة في السنة التي سافرت فيها إلى هناك (1908). يوجد مقترح بمد الخط إلى مكة، لكن الاحتمال بإنجاز ذلك وشيكًا ما زال ضعيفًا. أقيم المشروع بغرض تيسير الحج وجعله أكثر أمانًا، فضلًا عن أهدافه الاستراتيجية.

العربية ونبهت القبائل المؤثرة بين المدينة من جهة ومكة وينبع من جهة أخرى. لو لم يُسمح لهذه القبائل بالسطو أو تُبذل لهم عطايا لتمتنع عن ذلك فإنها سوف تنحى منحى سيئًا بشكل واضح.

أثار وصول الرحلة الأولى للقطار لدى البدو الكثير من الفضول. لم يدركوا في البداية المغزى من جلبه. تساءلوا: "هل يمكنه أن يحمل شيئًا في ضخامة الجمل؟" بعد انصرام عدة أيام ومع رؤية القطار يأوي مئات الرجال ويتسع لأطنان من الأمتعة، أدركوا وقتها أن أمرًا جديدًا قد طرأ على بلادهم المحافِظة، ومن ثم امتعضوا من وجوده. بدا جليًّا أن هذا الأمر سوف يجعل من السفر بالبعير أثرًا بعد عين، وعليه فسوف يفقدون كل الأرباح التي كانوا يجنوها من تأجير الجمال والإتاوات التي كانوا ينتزعوها لأزمنة طويلة. تخيل البدو في ظل التشويش الذي ألم بهم أنه من السهل تعطيل وإعاقة هذا القطار، لكن حين سمعوا أنه وصل من سوريا في أربعة أيام تجاوزت دهشتهم كل الحدود.

عقد شيوخ القبائل كما هو متوقع مشاورات في الشهرين التاليين وسط جوّ مشحون بالقلق. أرسلوا وفودًا لحاكم المدينة اعتراضًا على الخط الحديدي على أساس أنه سوف يجلب الأوروبيين إلى بلادهم. طُلب من الحاكم أن يعدهم ويعطيهم كلمة الخليفة نفسه أن ذلك الأمر لن يحدث. أوضح لهم الرجل كذلك أن الفحص والتدقيق في المسافرين عبر القطار أيسر من زمن القوافل.

عمل البدو بحمية للحيلولة دون مد الخط الحديدي لمسافة أبعد من ذلك، لكن لم تتسنَّ لهم الحجة المنطقية التي يتذرعون بها في رفضهم. لقد أُنشئ الخط، وكان مقدرًّا له الاستمرار بفضل التبرعات التي انهالت من شتى أرجاء العالم الإسلامي. وصل التحمس لهذا الخط أوجه باعتباره مشروعًا قوميًّا عظيمًا يدحض التهم الموجهة للدين الإسلامي بأنه يتراجع بعد أن فقد حيويته. لقد نال المشروع أيضًا مباركة شيوخ

المذاهب الدينية، وساهم الأغنياء والفقراء على حدّ سواء في دعمه بنفس القدر من البذل والعطاء.

اهتدى البدو إلى أن أفضل ما يقومون به هو افتعال عراك لأسباب أخرى. حين تشتعل الأجواء لفترة سينشغل الأتراك بدرجة ما بهذا الأمر فيتصدر أولوياتهم مجتازًا فكرة مد خط السكك الحديدية. ثم حدث أن سنحت الفرصة للقيام بهذا الإجراء. على بعد أربعة أميال شرق المدينة يوجد قبر عم محمد، حمزة الذي خرّ صريعًا في غزوة أُحد، وهو موضع مهيب يحرص الحجاج على زيارته. كان مناطًا بأولاد علي، وهم قبيلة كبيرة وهامّة تسكن وتزرع حول المدينة، حراسة هذا الطريق مقابل مبلغ من المال. في نهاية شهر رمضان لقي رجلان مصرعهما أثناء إيابهما في ساعة متأخرة من الليل على يد اللصوص. أرسل الحاكم اعتراضًا إلى شيوخ القبيلة طالبًا منهم تسديد غرامة. جاء فحوى الردّ بأنهم لن يدفعوا أي شيء، فضلًا عن أنهم لن يتولوا مسئولية حماية الطريق بعد الآن. جرت جولات من المفاوضات، لكن سلوكهم اتسم بالحدة والمشاكسة، ونمَّ عن جاهزيتهم للاقتتال. في الثالث من شوال وصلت قوة قوامها ألف رجل مدعومين برشاش "ماكسيم" لتفريق الحشود التي تجمعت من القبائل لتهديد المدينة.

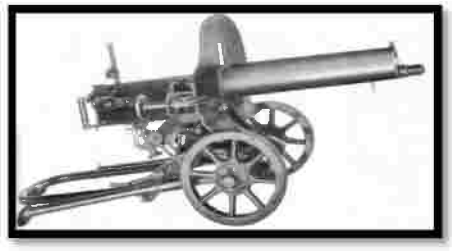

تقدم الأتراك بجسارة عبر أشجار النخيل مدعومين بمدافع نُصبت عند الأسوار، بيد أنه لم يمض وقت طويل حتى تم تطويقهم بالكامل بواسطة ميليشيات راكبة عدائية وصبت الطلقات الحانقة عليهم من كل جانب. حاول الأتراك الانسحاب لكن البدو

هاجموا بأسلوبهم الانقضاضيّ المعهود، فأحكموا قبضتهم على مدفع "الماكسيم" وقتلوا مائة جندي، وأرغموا الآخرين على الارتداد إلى المدينة وسط تخبطٍ شديدٍ. منذ ذلك الوقت جرت مناوشات كثيرة، لكنها ظلت محدودة ولم تتطور إلى قتال محتدم. تخلى الأتراك عن كل شيء عدا المدينة نفسها وحاميتين خارج الأسوار حظيتا بتحصينات قوية. وصلت التعزيزات العاجلة من تركيا وسورية، واشتملت على قطع مدفعية عديدة تم توزيعها بامتداد الأسوار.

من جانبهم قام أولاد علي بالإعلان عن نوع من الحرب المقدسة ضد الأتراك، ودعوا الجزيرة العربية قاطبة لمؤازرتهم. صرحوا كذلك أنهم لن يتعرضوا للحجيج بالأذى أو التحرش، فلهم مطلق الحرية للمجيء والانتقال كما جرت العادة، بل والتحرك خلال المواقع المحصنة للقبيلة لأن خلافهم هو مع الحكومة وحسب.

جاءهم الدعم الذي نشدوه حثيثًا على شكل تنظيمات شبه عسكرية أخذت في التدفق من شتى الأرجاء. لقد بدا لوهلة أن القبائل على قلب رجل واحد.

قُدرت القوات التركية حين بلغنا المدينة بعشرة آلاف فرد مدعومين بعشرين مدفعًا، مقابل ما يقترب من عشرين ألف عربي، والعدد مرشح للزيادة بصفة يومية.

تقع المدينة في وادٍ منبسط على ارتفاع ثلاثة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر. تحيط الجبال بالوادي من ثلاثة جوانب عدا الحدّ الجنوبي، وتمتد لعمق من خمسة إلى عشرة أميال. تأخذ المدينة شكلًا بيضاويًّا بصفة عامة، ويصل قطرها في أرحب نقطة إلى قرابة الميل. تتألف المدينة في الواقع من بلدتين التحمتا معًا. تحتوي البلدة الأقدم - التي لها سور منفصل - على المسجد النبوي والحوانيت والبيوت المأهولة. وتعتبر البلدة الأخرى أحدث نسبيًّا، وتحوي المباني العامة والأسواق والثكنات. تضم أيضًا منطقة فسيحة مكشوفة تتجمع فيها القوافل في حلّها وارتحالها. تم بناء سور أصغر نسبيًّا حول هذه الربوع لحمايتها، كما توجد أبواب عديدة أُخِذت

أسماءها من الأصقاع التي تُفضي إليها الطرق. يُعرف أحد هذه الأبواب على سبيل المثال بباب الشام أو الباب السوريّ، وآخر بالباب المكيّ، وهكذا. تأتي الإمدادات بالمياه من عدد من الآبار، وهي متوفرة ونوعيتها جيدة. تحوط المدينةَ بالكامل أشجارُ النخيل وزراعاتٌ أخرى، تمتد جميعها لأميال عديدة. تقع محطة السكك الحديدية غرب المدينة على مسافة ربع ميل تقريبًا من سورها الخارجي. عندما كنت هناك لم يكن هذا السور قد اكتمل بناؤه بعد، كما أن بعض المباني الرئيسية المشيدة من الحجر كانت في طور الإنشاء، وهي - والشيء بالشيء يُذكر - ضد الرصاص تمامًا وأثبتت جدواها خلال القتال. تقع مقبرة البقيع الشهيرة في الجانب الجنوبي ملاصقة للسور. دُفن فيها الكثير من أشهر الرجالات في تاريخ الإسلام، وبعضهم يحتفظ بدرجات متفاوتة من قرابة الرسول. عند تواجدي هناك كانت المقبرة دومًا في مدى النيران.

في تقديري الشخصي تصل الكثافة السكانية الطبيعية في المدينة، بمعنى عدا القوات العسكرية والحجاج، إلى ثلاثين ألفًا كإجماليّ كُليّ. ترتبط أعمالهم تقريبًا بشكل كامل بالحجيج، ويعتمدون عليهم في قوام حياتهم. يكدحون خلال الثلاثة أشهر الخاصة بموسم الحج، ولا يفعلون شيئًا آخر بقية العام. يوجد لكل منهم مكان في المنظومة، فالطبقات الموسرة تؤجر ما تمتلك من بيوت مقابل مبالغ مالية كبيرة، وأما الشباب فيتم استئجارهم كحراس، وغالبًا ما يُبذل لهم العطاء السخي مقابل الخدمات التي يؤدوها. ينعم أصحاب الحوانيت بالطبع بتجارة ناجحة، ويحصل كل فرد حتى الحمالون والسّقّائون على شيء طيب من الزائرين.

سبَّب الأدلة المعروفون بالمُطَوِّفين (جمع مُطَوِّف) متاعبَ جمَّة لي أثناء دخولي المدينة ومكة. ينصبّ اهتمامُهم على ملاحقة الحجاج الموسرين الذين يستطيعون توفير سبل الراحة. يعتنون بهم في إقامتهم ويدلّونهم على الأماكن الشيقة، ويتلون على مسامعهم الأدعية المناسبة والتحيات والسلامات أمام القبور ... إلى آخره.

الاسم مشتق من شعيرة الطواف حول الكعبة في مكة. لا توجد تعريفة محددة لهذه الخدمات، وتعتمد الأجرة على كرم الشخص وحجم حافظة نقوده. يميل الحجاج عادة إلى التقتير، ولهذا السبب تحتدم المنافسة بين المُطَوِّفين للفوز بالزائرين الذين يرتدون ملابس فخمة أو بحوزتهم أمتعة كثيرة ومحاطين بالخدم والحشم. في مرحلة سابقة كان وصول هؤلاء الحجاج يتسبب في إحداث شجار بينهم قد يصل إلى اللجوء إلى السلاح. منذ بضع سنوات خلت قامت الحكومة ببعض الترتيبات لتُنهي هذه الممارسات المشينة، فخصصت لكل دولة عددًا معيَّنًا من المُطَوّفين، يرأسهم شيخ يتولى فضّ النزاعات بينهم، وإليه يلجأ الحجاج بالشكوى إذا ساءهم سلوك من يعمل في معيته من المرشدين. نجحت هذه الإجراءات بشكل مثير للإعجاب لأن المُطَوِّفين المخصصين لكل دولة انكبّوا على دراسة لغتها وخصائصها، ومن ثم نَعِمَ زبائنهم بإقامة طيبة، وتحصلوا على فائدة إرشادية وتعليمية لم تتوفر لهم من قبل. أما بالنسبة لنا فقد كان هذا الأمر مربكًا ومخيفًا!

لم نسمع بهذه الترتيبات الجديدة إلا مع وصولنا الفعلي إلى المحطة، وعليه فقد شممت رائحة الخطر. إذا ذهبنا مع مُطَوِّف زنجبار فلن أجد مناصًا من الاختلاط بالقادمين من الساحل الإفريقي، ومن ثم سأكون في خطر محدق لو تعرف عليّ شخص من مومباسا، هذا إن لم توقعني اللغة في المحظور، وهو أمر وارد بدرجة كبيرة. تعين علينا أن نقرر بسرعة خطة تُسعفنا في هذا المأزق. بعد مشاورات متعجلة اتفقنا على التالي: لقد قَدِمَ عبد الواحد من بغداد، أما أنا فدرويش أقيم هناك لفترة من الوقت، ومسعودي؛ بما أنه أسود اللون؛ فهو عبد لي. قد يحتاج اللفظ، "درويش"، بعض الشرح. يشير معنى الكلمة المضبوط إلى عضو في جماعة معينة تنتهج الزهد والتقشف، وتنتشر في مصر والسودان. غدا هذا اللقب بالرغم من ذلك يميز الأشخاص

الذين لا يحبون – لأسباب عديدة – أن يُنسبوا إلى جنسية محددة، ربما بسبب معتقداتهم السياسية أو المشاكل التي تعرضوا لها في مواطنهم الأصلية أو السلالة.

كما أسلفت دخل القطارُ المحطة لنجدها خالية نسبيًّا. في الانتظار كان هناك بعض المُطَوِّفين؛ كما أنبأت أغطية رؤوسهم، العُقُلُ[1] المقصّبة وثيابُهم زاهية الألوان.[2]

سرعان ما صعدوا إلى عربات القطار. ولأننا كنا الحجاج الوحيدين المثيرين للاهتمام من وجهة نظرهم؛ فقد سألونا عن هويتنا، وأجبنا كما اتُّفق. بالرغم من ذلك راح بعضهم يستفسر عنا من ركاب آخرين ذكروا شيئًا عن زنجبار. من حسن الطالع أنه لم يتواجد مُطَوِّفي زنجبار أو بغداد فسُمح لنا أن نجمع أغراضَنا وننطلق دون مضايقة. استغرق جمع متاعنا بعض الوقت. عندما أصبحنا جاهزين في النهاية بدت المحطة شبه خالية. شققنا طريقنا داخل المدينة، وجاء الحمالون في أثرنا ومعهم أمتعتنا. اجتزنا بوابة السور الخارجي شديدة التحصين، ومنها سلكنا شارع طويل يتجاوز الثكنات، انتهى بنا إلى الميدان الكبير في مقابل البوابة الداخلية. توقفنا هناك لنسأل أحد المارَّة عن منزل مريح ونظيف ومعتدل الثمن. نظر الرجل إلينا نظرة فاحصة، ثم بدا جليًّا أنه راضٍ عن النتيجة، فانبرى قائلًا إن لديه هو نفسه غرفتين بمنزله يعرضهما للإيجار. دعانا إلى تفقدهما؛ فرحبنا بذلك. تركت أمتعتنا في معية مسعودي والحمالين، وانطلقت أنا وعبد الواحد في أثر الرجل عبر البوابة الداخلية. سلكنا الطريق الضيق

---

[1] مفرد "عِقال" ويلبس فوق الشماغ. (المترجمان)

[2] لأنه كان فصل الشتاء حيث يلبس العرب ثيابًا ملونة سوداء وبنيّة وخلافه، بخلاف الثوب الأبيض المُلازم لفصل الصيف. (المترجمان)

المنحدر كثير التعاريج الذي يُفضي إلى المسجد، ثم صعدنا ممشى إلى اليسار يقبع المنزل في نهايته. تقع الغرفتان في الطابق الثاني. تبين أنهما ما ننشد تمامًا لنظافتهما ودخول الضوء إليهما، وكذا أثاثهما الجيد، أو على الأقل أثاث حجرة المعيشة، أما الغرفة الأخرى فكانت بمثابة حمام ومطبخ مشتركين. وافقنا مستفسرين عن شروط الاتفاق. بعد مناقشة هينة وافق الرجل على جنيهين شريطة ألا تتجاوز إقامتنا مغادرة المحمل إلى مكة، الذي كان أمامه شهر تقريبًا. تملكني العجب أنا وعبد الواحد من ضآلة المبلغ. كان هناك سبب لكل هذا، كما سينجلي وشيكًا. لم يمض وقت طويل حقًّا حتى أدركت أن ملاكنا الحارس قد بخس حق نفسه في ذلك اليوم. لقد فاق الحظ الطيب الذي أوقعنا في هذا الرجل كل التوقعات.

بقيت في المنزل بصحبة ابن المالك، وهو في الحادية عشرة من العمر لحين عودة عبد الواحد الذي ذهب ليُحضر مسعودي والأمتعة. عادوا بعد ربع ساعة حاملين أخبارًا مقلقة. حين تركنا مسعودي بمفرده أحاط المُطَوِّفون به مستفسرين عن منبت رأسنا والمكان الذي ذهبنا إليه. ما حدث هو أن أخبار وصول حجاج من زنجبار قد انتشرت فأتى مُطَوِّفو هذه البلاد ينشدون زبائنهم. استشاط مسعودي غضبًا مؤكدًا أنه لم ير زنجبار من قبل. لاح عبد الواحد في الأفق، وهمَّ بالتدخل؛ مشيرًا إلى أننا جدّ متعبون بعد هذه الرحلة الطويلة، وأنه إذا كان لديهم ما يودون قوله فيمكنهم زيارتنا في المنزل لاحقًا بعد أن نغتسل ونسدّ رمقنا بشيء نتناوله. أفلحت المناشدة فخلّوا سبيلهم وتركوهم يمضون في سلام. بعد أن تجمعنا من جديد، وبمجرد دفع أجرة الحمالين وصرفهم، علمت بما حدث. التَفَتُّ إلى صاحب المنزل الذي كان حاضرًا يستمع للقصة، فشرحت له المشكلة بصراحة. أخبرته أنني أتيت بالفعل من زنجبار، لكني حُذّرت ألّا استعمل مُطَوّفين أو أن أقيم في منازلهم لأنها مكتظة ومتسخة. أضفت أن منزله قد راق لي لأني أرغب في الدراسة أثناء وجودي في المدينة، الأمر الذي لا

يتأتى مع وجود عدد كبير من البشر لا يتوقفون عن الدخول والخروج طيلة اليوم، فبماذا ينصح؟

قال الرجل أنه يتفهم تمامًا، وعلى علم بمحاولات الزائرين للنأي عادة عن استعمال مُطَوّفيهم المحددين. أضاف أن بإمكان ابنه القيام بكل ما نريد عوضًا عنهم، أو بإمكاننا استعمال شخص باليومية كما يحلو لنا. نصحنا أن نزعم بأننا قادمين من بغداد.[1] حين علم أن عبد الواحد قد زار المدينة آنفًا اقترح أن ينكر الأخير قدومه للحج، بل للدراسة والعمل، وأنني قد اتفقت معه ليصبح مُطَوِّفي، بيد أنه لم يستبعد حدوث بعض المتاعب، فلو عرف المُطَوِّفون أنني قادم من زنجبار فسوف يصممون على أخذي، والحق حينئذٍ معهم.

بدت تلك أفضل خطة في ظل الظروف الراهنة، ولم نستطع الاهتداء إلى شيء يفضُلها بأي صورة من الصور.

حضر ثلاثة مُطَوّفين خلال الساعتين التاليتين. أخذ عبد الواحد زمام الحديث وأداره بامتياز. أحدث كعادته جلبة شديدة فلم يستطع المُطَوِّفون الخروج بكلمة واحدة على الإطلاق، ولا أحسب بعد مرور بضعة دقائق أنهم ظلوا على موقفهم يرحبون به كمستأجر طرفهم بشكل خاص. روينا القصة التي اتفقنا عليها. حاول المُطَوّفون التحدث بالسواحلية مع مسعودي، لكن من الواضح أنه لم يفهم كلمة واحدة. انصرف آخرهم وهو مقتنع تمامًا بأنه - أيًّا كان المكان الذي قدمنا منه - فإنه ليس زنجبار. صعد إلينا مالك المنزل ليخبرنا - وعلى وجهه ابتسامة - أن ذاك الرجل كان آخر المُطَوّفين في أغلب الظن. أخبرنا حين جلسنا لاحتساء الشاي أنه حبشي، واسمه "أمان". قدم المدينة من مكة منذ عقد مضى. تزوج من أرملة لديها طفل هو "إبراهيم"

[1] يعيش العديد من السوريين والبغداديين في المدينة. ينزل لديهم بشكل عام الكثير من الأصدقاء القادمين من هذه الأصقاع. يرافق المقيمون أصدقاءهم في جولاتهم، ومن ثم يُسمح لهم بالاستغناء عن خدمات المُطَوّفين الاعتيادية. (المؤلف).

الذي قابلناه. قال إن لديه دخلًا خاصًّا بسيطًا خلا المنزل، وأنه يقوم بتأجير بعض غرفه كلما سنحت الفرصة. لا يوافيه مستأجرون كثر لأن عدد الأحباش الذين يقصدون الحجاز قليل بطبيعة الحال، فمعظمهم يدين بالمسيحية. فيما بعد أخبرني الرجل بقصته الحقيقية. وقع عبدًا لدى المغيرين العرب. ابتاعه في مكة أناس طيبون فتمكن من توفير المال واشترى صك حريته من سيده، ثم هاجر إلى المدينة.

كان صاحب المنزل رجلًا طويلًا، داكن البشرة، وفي الخامسة والأربعين تقريبًا. دائما ما يُرى بشوشًا ولطيفًا. بذل كل ما في وسعه ليجعلنا نشعر أننا في بيتنا. من الجدير بالملاحظة أنه في الشرق لا ينفر الناس ممن كانوا عبيدًا على النقيض من أوروبا. غالبًا ما نصادف في تاريخه قادة جيوش أو سفراء أو حتى ملوكًا كانوا عبيدًا في بداياتهم.

يُعرف المسجد النبوي هنا بالحرم، وهو نفس اللفظ الذي يُشير إلى المسجد المكي المحيط بالكعبة، وكذا مسجد "عمر"[1] في القدس ومساجد أخرى. يُلمح الجذر الثلاثي للكلمة إلى شيء مُحرم (ضد الشرع)، لكنه ينوه في السياق المذكور إلى شيء مقدس، تطور في المتن المميز للغة العربية فاشتُق منه كلمة "حريم"، وهو الجزء المخصص للنساء (الحرملك)، بل وأصبحت المفردة تطلق على النساء أنفسهن.

يتوسط المسجد البلدة الداخلية، وله ثلاثة مداخل أساسية. يوجد في منتصف المسجد مربع مفتوح تُحدده سلسلة من الأعمدة. يقع قبر الرسول أعلى الجانب الأيسر في اتجاه القبلة. يحيط سياج حديدي مستطيل الشكل بالقبر الذي تعلوه قبة تُرى ناتئة فوق مستوى سطح المبنى. تُقدر أبعاد السياج بعشرة ياردات في خمس عشرة ياردة تقريبًا. حين تنظر من خلال السياج تجد ستارة تتدلى من السقف لتخلق تحويطة أصغر داخله. لون الستارة أخضر وتزينها بدقة آيات من القرآن. داخل هذا الحيز المستور

[1] ربما قصد ويفل "الأقصى". (المترجمان)

يوجد قبر الرسول وصاحبيه، الخليفة الأول والثاني، أبي بكر وعمر، كما يوجد بمحاذاة الستارة إلى الجانب الشمالي قبر آخر يُقال إنه لابنته فاطمة، لكن الشك يكتنف هذا الأمر باعتراف الكثيرين، وعليه يتم التسليم عليها في هذا القبر، ثم يُعاد التسليم عليها في قبرها بالبقيع حيث يظن بعض الناس أنها مدفونة هناك.

عندما انتهينا من احتساء الشاي اقترح أمان أن يُرشدنا إبراهيم إلى الحرم لأداء صلاة العشاء، هذا إذا كنا قد أخذنا قدرًا كافيًا من الراحة. ذهبت أنا وعبد الواحد وتركنا مسعودي. حين بلغنا الطريق العام انعطفنا يسارًا ثم وصلنا بعد دقيقتين من المشي للبوابة الرئيسية. كان الظلام قد عمّ المكان، وبدا المشهد رائعًا ومثيرًا للمشاعر. أفضى منظر المنازل المرتفعة بشرفاتها ذات المشربيات المُميزة المُطلة على الشارع المُمهد بالحجارة؛ والمُضمخ الآن بجوّ من الوحشة والكآبة... أفضى فجأة إلى مجموعة من الدرجات العريضة تنتهي إلى بوابة ضخمة مقوَّسة. ظهرت من خلالها الأعمدة الرخامية والمشاعل المعلقة على "الأرجات"،[1] ناهيك عن مئات القناديل المتدلية.

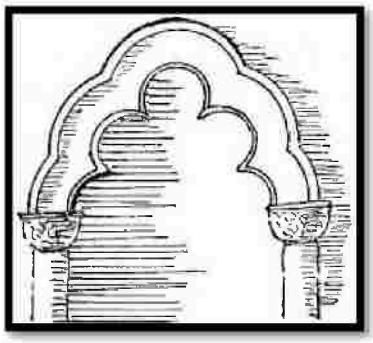

حين اقتربت خطواتنا من المسجد وصلت إلى أسماعنا أصواتٌ ملتبسة من الهمهمة والغمغمة. ناولنا أحذيتَنا لحارس البوابة، ودلفنا في المسجد يتقدمنا إبراهيم يلهج لسانه بالأدعية المناسبة التي يُفترض بنا أن نكررها وراءه. لن أترجم أيًّا من هذه الأدعية.

[1] الأقواس. (المترجمان)

إنها تفي بشكل كبير بتوقعات المرء، وتصلح – إذا استثنينا الإشارة لمحمد – للمسيحيين بشكل جيد ومتساوٍ أثناء زيارتهم لأضرحة القديسين.

يا له من مشهد عجيب ما فتئ يترك انطباعًا لدى من يراه لأول وهلة: أشخاص هنا وهناك يؤدون الحركات المتباينة للصلاة، وآخرون يرتِّلون القرآن بصوت خفيض وإيقاع رتيب؛ مصحوبًا بهزّ الجذع. في أنحاء متفرقة جلس أفرادٌ القرفصاء مشكّلين جماعات حول العلماء ليستمعوا إلى قراءاتهم وشروحهم لبعض النصوص الدينية. راح آخرون يتحدثون بنبرة خافتة في أمور دنيوية أو انهمكوا في مراسلاتهم الشخصية. اصطفت طوابير من الرجال حول سياج القبر يتقدم كل منها مُطَوّف يصدع بأدعية الزيارة على نحو منظوم، بينما يقوم الآخرون بترديده في جوقات، أو يحاولون ذلك حيث إن عددًا قليلًا منهم لا يفهم العربية، ومن ثم تكون النتيجة غالبًا هزلية إلى أقصى حدّ. شاعت قصص كثيرة عن طريقة تحريف المعاني بشكل عفْويّ، لكن من الضروري أن تعرف هذه اللغة لكي تُدرك روح الفكاهة فيها.

واصلنا التحرك نحو مقام النبي،[1] وهو المكان الذي اعتاد أن يُصلي فيه. يتصدر هذا المكان في الوقت الراهن مدخل مقوّس مزدان بالقناديل على كلا الجانبين. وُجهنا في هذا الموضع لأداء ركعتين تحية للمسجد. بينما كنا نقوم بذلك صرنا موضوعًا للكثير من التعليقات الصادرة عن مجموعة من المرشدين الواقفين حولنا. سرعان ما حددوا هوية عبد الواحد بأنه بغدادي، إلا أنهم لم يتفقوا حول أصولي، فذهب بعضهم إلى أني فارسي، بينما ألصقني آخرون بالبصرة. سألونا حين نهضنا عن منبت رأسنا، فزعمت أني درويش أهيم على وجهي على ظهر البسيطة. حاول أحدهم التحدث معي بالفارسية فهززت رأسي ضاحكًا. عرض الرجل بعدها أن يأخذنا في جولة مقابل دولار فوافقنا. أخبرني ونحن نجتاز القبر أنه سيردد علينا أدعية

[1] الروضة الشريفة. (المترجمان)

خاصة لا تسيء إلى أتباع الطائفة الشيعية، فشكرته نافيًا أني شيعي. أربك ردي الرجل حيث استقر لديه أني كذلك. يكره الشيعة أبا بكر وعمر، لذا يتم التغاضي تمامًا عن ذكرهما في أدعيتهم ويُكتفى فقط بترديد عبارة: "السلام عليك يا صاحب رسول الله." على النقيض يُسهب أهل السنة في السلام على كليهما.

جُوبهت البدع الشيعية منذ سنوات قليلة بالنفور في المدينتين المقدستين حتى أن الفارسيين وآخرين ممن يُروجون لها واجهوا مخاطر جمة فيهما، وتعرضوا غالبًا للمعاملة السيئة أو حتى القتل. يثأر الشيعة وينفثون عن حقدهم بلعن أبي بكر وعمر وآخرين ترعرعوا على بغض مجرد ذكرهم. بالرغم من ذلك سادت كلا الجانبين مؤخرًا آراء أكثر اعتدالًا. لم يعُد هناك حاجة لأن يتوارى الشيعي كالكافر، بل ويُمكنه الإفصاح عن مواقفه على الملأ. في المقابل لم يعد حراس الضريح بحاجة كذلك لخشية الأعمال التخريبية من جانب الشيعة. تُجمِل الكلمات التالية هذا الفكر العقلاني: "لن نترَضى عليهم ولن نلعنهم."

حين بلغنا السياج تم توجيهنا للنظر من خلال القضبان الحديدية. لم يظهر للعيان أكثر من ثنيات الستارة الخضراء التي قدمت أوصافها آنفًا. تراجعنا للخلف بينما قام دليلنا بترديد التحيات للرسول، وفي نهايتها قرأنا الفاتحة وأكفنا مرفوعة إلى السماء. حيينا أيضًا أبا بكر وعمر بنفس الطريقة ونحن ندور نحو الجانب الجنوبي. في الجانب الشرقي ألقينا التحية كذلك على الصحابة المقبورين في البقيع، وأخيرًا فاطمة بنت الرسول التي يُرى قبرها المزعوم خارج الستارة الخضراء، وهو مزين بكثير من الجوهر النفيس. حين استدرنا عائدين إلى الجانب الشمالي مولين شطرنا من جديد نحو مكة صلينا ركعتين أخريين. يوجد في مواجهة القبر من هذا الجانب رصيف مرتفع قليلًا خاص بالخِصْيان الذين يعملون على حراسة المسجد. تشاهد عشرين أو

ثلاثين منهم يجلسون القرفصاء بشكل عام هناك، يقرؤون أو يتجاذبون أطراف الحديث. تجد بعضًا منهم ليلًا ونهارًا في نوبات الحراسة.

تردد الآن في جنبات المكان صوت المؤذن من أعلى المآذن داعيًا للصلاة ومعه بدأت الجموع في السير مع تيار من الطوابير. أعاد من انكبّ على القراءة المصاحف إلى المكتبة وجمع الأساطين كتبهم وأوراقهم وأي مكرمة قدمها المستمعون. أخذ الإمام مكانه وصلينا الأربع ركعات الخاصة بصلاة العشاء، ثم بذلنا للدليل أجره وعُدنا إلى المنزل.

بعد تشاركنا الطعام الذي أعده مسعودي دخنّا الشيشة وبدأنا الاستعداد للنوم. جاءنا مضيفنا، أمان، ليتمنى لنا ليلة سعيدة، ويسألنا عن رغبتنا في الاستيقاظ لصلاة الفجر. لقد مثّل هذا المطلب عن حق عدم مراعاة من جانبه لأننا لم نستطع أن نقطع بالنفي، وعليه فقد وافقنا مع التلميح بأنه لو نسى فعل ذلك فلن نغضب منه بشكل كبير. تسببت هذه الملاحظة في إضحاك الرجل. نصحني بأن أبادر بارتداء لباس أهل المدينة حالما أتمكن من الحصول عليه فحينئذٍ – على حد قوله – لن يشغل أحد باله بي بعد ذلك، وإلا فإن إزعاجي بأسئلة عن منبت رأسي سوف يستمرّ.

الفصل الرابع

المدينة

استيقظنا في صباح اليوم التالي قرابة الساعة التاسعة والنصف. نسي أمان تفقدنا في الفجر، الأمر الذي لا يمكن تفسيره. اتفقنا أن رؤيتي بصحبة مسعودي شيء غير مرغوب فيه، فربما قابلنا من يعرفه، فنلفت بذلك الانتباه لي. حين أكون بمفردي أو حتى في رفقة عبد الواحد يتضاءل الخوف من افتضاح أمري إذا صادفت شخصًا له سابق معرفة بي. طبقًا لذلك الاتفاق توجه مسعودي إلى الحرم مع إبراهيم بينما ذهبت أنا وعبد الواحد للتسوق. نتيجة لعدم وجود ملابس جاهزة، قصدنا خياطًا رافقنا إلى السوق لاختيار الخامات المناسبة. ألهتني الطريقة التي تصرف بها الخياط بشكل كبير. ما إن باشر عملية الشراء حتى قبض على زمام الأمر برُمّته من حيث الألوان والخامات التي ظن أنها لائقة. لم يسع حتى إلى استشارتنا أو التعرف على أذواقنا. المرة الوحيدة التي تجاسرت فيها على الاحتجاج طُلب مني عدم التدخل. بعد أن ابتاع الخياط ما أراد عدنا إلى دكانه حيث أخذ مقاساتي. طلبت ثوبين حصلت عليهما بعد ثلاثة أيام، والتزمت بلبسهما منذ تلك اللحظة.

هذا الزيّ موحّد في مدن الحجاز كافّة مع وجود بعض التغييرات الطفيفة؛ غالبًا ما يقوم الغرباء من الزائرين أيضًا بارتدائه. يتكون هذا الزي من سروال قطني فضفاض، وقميص طويل يصل إلى الكاحل، وثوب ملوّن، ووشاح به خنجر له شكل غريب؛ غالبًا ما يكون مصحوبًا بمسدس ساقية.[1]

[1] يُسمى هذا الوشاح بالجنبية إذا كان مصنوعًا من الجلد وبه غمد للخنجر. (المترجمان)

وفوق هذا كله يتم ارتداء جبّة ذات أكمام طويلة وأقمشة وألوان متباينة. في أوقات الاضطرابات – كالتي نشهدها – يحمل أغلب الناس السيوف التي تتدلى من الآباط على الجانب الأيسر من الجسم أو تحملها الأيادي كمناسئ. بالنسبة لغطاء الرأس يرتدي البعض – خاصة ممن أدوا فريضة الحج – طَوَاقٍ من الكتان مطرزة بخيوط الحرير الملونة، ويُلف حولها وشاح أبيض بينما يضع آخرون طاقيات قطنية وفوقها قطعة قماش كعمامة.

هندمت ملابسي الجديدة فلم يُثر مظهري أي ملاحظة، ومن ثم سلمت من إزعاج المُطَوّفين إلا في مناسبة وحيدة كما سيأتي لاحقًا.

صلينا الظهر في الحرم، ثم أمضينا الظهيرة في ارتياد المدينة، فوجدناها في مجملها جميلة ومثيرة. على النقيض من معظم الأماكن الشرقية بدا كل شيء نظيفًا وفخمًا. تنحصر الأسواق التجارية للمدينة فعليًّا في شارعين طويلين وضيقين. بعد انصرام ثلاثة أسابيع؛ ومع تدفق الحجيج، أصبح من العسير على المرء أن يشق طريقه فيهما. ترتفع بعض المنازل في المنطقة السكنية لأربعة أو خمسة طوابق

ويلحق بها حدائق صغيرة في الخلف. تحتفظ جميع المساكن بالمشربيات البارزة، وهي سمة مميزة للمنازل الشرقية. تُثبت هذه المشربيات ليتمكن من بالداخل من رؤية الباب الخارجي دون أن يلحظه أحد. تأتلف المشربية من تراكيب مفرّغة يمكن من خلالها رؤية الزائرين قبل فتح الباب لهم، ومن خلالها يمكنك أن تُلقي عليهم بالتحية أو تُطلق عليهم طلقات خرطوش حسب الحالة.

في طريق العودة قابلنا رجل فارسيّ من معارف عبد الواحد القدامى حيث كان يعمل في خدمة أحد أصدقاء الأخير. كنا في حاجة ماسّة إلى طاهٍ حيث يفتقر ثلاثتنا إلى القدرة على إعداد أي طبق معقد؛ خلا البيض المسلوق الذي تقوّتنا عليه مع الليمون والخبز والعسل، أما التمور فقد فاتنا موسمها للأسف الشديد قبل وصولنا. وعليه فقد اتفقنا مع هذا الرجل على أن يطهو لنا الطعام في بيته ثم يحضره لنا في حالة يسهل معها تسخينه. ووعدناه أن نصطحبه معنا في رحلتنا إلى مكة لو شعرنا بالرضا عن الطعام. تبين أن الرجل طاهٍ حاذق ومُنجز. منذ تلك اللحظة أكلنا وشربنا بشكل جيد. في يقيني لو أن هذا الرجل يعمل في أحد مطاعم لندن لحقق ثروة.

مرت الأيام القليلة التالية دون أحداث تُذكر. أمضيت أوقاتًا كبيرة في المسجد، أتخير مكانًا مريحًا، وأسند ظهري إلى أحد الأعمدة، ثم أتظاهر بأنني أطالع كتابًا بينما أرقب الناس الذين ظلوا على الدوام مصدرًا للإمتاع والمؤانسة. وصلَتْ مع إشراق كل شمس أعداد جديدة من الحجاج. حطت قافلة ضخمة قادمة من ينبع جالبة حشودًا من الهنود والجافانيين (الإندونيسيين) والصينيين. كان بإمكاننا تمييز الجنسيات الشرقية في الحشود المتنافرة، وكذا أزيائهم المتفاوتة. بدا الأمر وكأنه حفل تنكري. اصطف معًا للصلاة الأتراك الأوروبيون في معاطفهم الطويلة وياقاتهم المرتفعة، والأناضوليون بسراويلهم الفضفاضة وأسلحتهم الرائعة، والعرب من الغرب الذين بدوا وكأنهم تجمعوا لمراسم الدفن، والبدو بحرابهم وأنصالهم، والهنود الذين أفلحوا كالعادة في أن يبدو الأقل بريقًا ونظافة رغم كونهم الأكثر ثراءً بين أترابهم، ناهيك عن الفارسيين والصينيين والإندونيسيين والماليزيين والعديد من الأجناس الأفريقية والمصريين والأفغان والبلوش (الباكستانيين) والسواحليين، فضلًا عن العرب بشتى أوصافهم. يمكن في أي يوم من الشهر السابق للحج في المسجد تعيين ممثلين لنصف الأجناس البشرية على ظهر المعمورة. يُمكنك تخيل التأثير الذي يُحدثه هذا المشكال[1] من الألوان وتباين الألسنة.

[1] أنبوب مرايا يحتوي على خرز ملون. (المترجمان)

إن دراسة سلوك كل هذه المجموعات حين يدلفون في المسجد لهو أمر شيق يعكس بشكل جيد طبائعهم العرقية. تعاين العواطف الجياشة للهنود حين يرون قبر الرسول بأمّ أعينيهم، ذلك الذي شبّوا منذ نعومة أظفارهم على اعتباره أمرًا جليلًا يستوجب الخشوع على نحو قد تشوبه بعض الخرافة، وهم في ذلك يغايرون السلوك الرزين والشعور الفاتر الذي يبديه العرب. تشعر أن الإندونيسيين والصينيين مصممون على جعل أقل الأشياء تثير دهشتهم، وهكذا لكل قومية طريقتها في تلقي الانطباعات والتعبير عنها. ينفجر الكثيرون في البكاء ويقبّلون القضبان الحديدية بهوس مُستَعِر. شاهدت من الهنود والأفغان من يُغمى عليه ويفقد وعيه بشكل لا مراء فيه. لقد بدوا أكثر تأثرًا في هذا الموضع من وقوفهم أمام الكعبة نفسها، ففي مكة تتجلى مشاعر التقوى والتبجيل، أما هنا فالبعد الإنساني حاضر ويعلن عن تواجده. يدخل في روع من يُعاين المشهد أنهم يزورون قبر شخص يعرفونه بالفعل، بل قُل صديق عزيز عليهم ربطتهم به علاقة وطيدة أثناء فترة حياته. يُصغون إلى مُطَوِّفيهم باهتمام بالغ وهم يُعطون التفاصيل المحيطة. هنا كان يصلي الرسول، وهذا هو المنبر الذي كان يخطب من فوقه، وهناك... العمود الذي اعتاد أن يُسنِد ظهره إليه. في هذا الموضع كانت توجد نافذة تفتح على المسجد. نعم إنها نافذة منزل أبي بكر حيث نزل ضيفًا لأمد طويل. في الخلف كانت تتواجد الحديقة الصغيرة التي زرعتها فاطمة الزهراء. إن جلة هذه الشواهد زائفة بدرجة ما؛ ذلك لأنه لم يبق من المسجد الأصلي ثمة أثر؛ اللهم إلا مكانه الحقيقي على أقل تقدير، لكن هذا لا ينتقص ألبتة من تقدير الحجاج لها.

لطالما تساءلت متأملًا ومتدبرًا عن أفكار وآراء الحجاج القادمين من بلاد هي الآن تحت السيطرة الأجنبية، ويتجرع فيها الإسلام المعاناة بدرجات متفاوتة على يد الطبقات المُهيمنة التي تزدري العقيدة وتعيق الشريعة حين تصطدم بأفكار الحكام عن

المدنية؟ تجد ظاهرًا للعيان هنا في مدينة الرسول على الأقل شتى صور الثروة والنفوذ. تعلو القيم الإسلامية الباقية فوق الحصون الشاهقة. تحمي بواباتها مصفوفة من المدافع. بين ربوعها ظلت شريعة القرآن تحكم بشكل جيد دون تغيير لقرون خلت. يطأ الموحِّدون وحسب ثَراها المقدس، ويقف المسجد شاهدًا على الأمجاد الغابرة لتلك الإمبراطورية.

بيد أن هذه المدافع بالية. إن مدفعًا وحيدًا من عيار 4.7 أو أي نوع آخر قد يحول هذه الأسوار إلى كومة من التراب، وينطبق ذلك على المسجد أيضًا، لكن هذه التهديدات منتفية في كلا الموضعين.

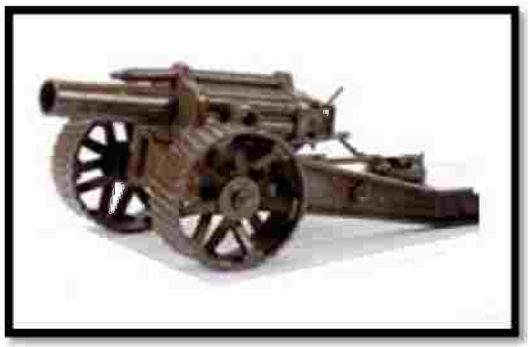

ويبقى الوهم الذي يستدعي رؤى غابرة حين كان الخليفة يحكم العالم المتحضر، رؤى يراودها بكل تأكيد آمال في أن أيامًا أفضل سوف يبزغ فجرها.

منح مسعودي رجلًا وهبةً ليرتل القرآن على روح أبيه كعمل من أعمال البرّ. كان الرجل كفيفًا كالعادة يتكسب عيشه بهذه الطريقة. من المثير للدهشة ـ كما هو بادٍ ـ وجود عدد من الأفراد يحفظون المصحف كاملًا عن ظَهْر قَلْب، ويرتّلونه دون تجاوز مقطع أو الوقوع في خطأ وحيد. من المؤسف أن تجد العمى منتشرًا في هذا الجزء من الشرق. هناك مساعٍ يضطلع بها المحسنون ليوفروا عملًا لمن رُزئ بهذا المرض. في الواقع ينعم العميان وكذا المتسولون بشتى صنوفهم بوقت طيب في الحجاز. يُعتبر من

المحبب إخراج الزكاة التي تُشكل أحد أركان الإسلام أثناء الحج بشكل خاص. رأيت أناسًا يلقون بكميات من القطع الفضية عند مغادرتهم المسجد. بالرغم من ذلك فإن العديد من المتسولين لا يعدون أن يكونوا دجالين من أسوأ ما يكون، ويجب الأخذ على أيديهم. تحدثت فيما بعد مع رجل كفيف في مكة. أخبرني أنه فقد بصره منذ عقد مضى إثر إصابته بالتهابات شديدة في عينيه. شرع على الفور في حفظ القرآن، وبعد انصرام عامين أصبح قادرًا على ترتيله بشكل متقَن. أضاف أن السور الثلاثة الأولى مثلت صعوبة حقيقية له،[1] لكن حفظ بقية السور جاء سهلا نسبيًّا.

استفسرت ذات مرة عن إمكانية أن يحصل المرء على موافقة ليدلف داخل السياج الحديدي لقبر الرسول. جاء الرد بأنه يُسمح فقط لبني هاشم - أو بالأحرى سلالة علي وفاطمة، علاوة على الخِصْيان المُوكل إليهم أمر الحراسة - بتخطيه. على أي حال لا يتقدم من يلج بالداخل قيد أنملة في سبيل الكشف عن الغموض الذي يكمن خلف الحُجب، فمن المستحيل أن يُقدم على رفع الستارة دون أن يلحظه أحد، وإذا قام فعليًّا بذلك فإن مصيره الفتك به في التوّ والحال. لقد عبَّر البعض عن شكوكهم حول إذا كان محمد قد دُفن بالفعل في هذا الموضع من عدمه.[2] في ظني من المستبعد بدرجة كبيرة أن يحوي هذا القبر رفاته، هذا دون الخوض في الدليل الذي يدعم هذا الرأي. لقد عاش الرسول ليرى دينه يعمّ آفاق الجزيرة العربية. حين وافته المنية كان في حكم الإمبراطور، لذا ليس من المتصور أن يكون قبره منسيًّا في مكان مثل المدينة، وإن ظلت دومًا الحصن الحصين للإيمان.

---

[1] يقصد "البقرة" و"آل عمران" و"النساء". (المترجمان)

[2] توفي الرسول ودُفن في غرفة عائشة. لم تدخل هذه الحجرة في توسعة عمر عام 17 هـ أو توسعة عثمان عام 24 هـ، لكن زيادة الوليد بن عبد الملك شملتها عام 88 هـ. (المترجمان)

هناك حكاية يشوبها الخيال جرت من سنوات عديدة حين دخل أوروبيان متخفيان المدينة خلسة. حاولا حفر نفق من سكنهما إلى الضريح.[1] حين افتضح أمرهما تم صلبهما. (غالبًا ما يستشهد الناس بهذه القصة وأخريات على شاكلتها لتبرير التخوفات والاحتياطيات الجمة التي تُتخذ عند مقابلة المعتنقين للإسلام من أصول أوروبية.) ماذا يصير من أمر الأوروبي المتخفي سيء الطالع إذا انكشف أمره في مكة؟ يعتقد السكان أنفسهم بشكل عام أنه لدى السلطات تعليمات بقتل أي شخص متخفٍ يُكشف أمره دون الرجوع إلى إسطنبول. من المحتمل عدم وجود ثمة أساس حقيقي لهذا الاعتقاد، لكن الثابت أن نفس القرار سوف يُتخذ إذا أُحيل الأمر إلى تركيا. إذا وصل خبر الدخيل إلى السلطات المحلية وحسب فإنها في أغلب الظن تسعى لترحيله في سلام. هذا ما سيفعلونه بكل تأكيد لو كان الشخص إنجليزيًّا.[2] أما إذا كان المُطَوّف هو من اكتشف هذه الحقيقة فإن القصة تنحصر في مسألة "كم ستدفع؟" وحسب. يمكنك رشوة أي شخص في المدن العربية. إذا افتُضح أمره على يد المكيين في توقيت خلا موسم الحج؛ فمن المرجح أنه لن يحدث شيء، لكن يتعين عليه المبادرة بمغادرة البلاد. أتخيل أن سكان المدينة أكثر مغالاة فيما يتعلق بهذه النقطة لعلمهم أن التفرد المفترض للمزار هو قرة عين المسلمين دون غيرهم. أيضًا من الصعب أن تلوذ بالهرب من المدينة مقارنةً بمكة.

أما فرسان السلطان ورجاله فلن يستفيدوا شيئًا من استنقاذ إفرنجي[3] دخيل متخفٍ افتُضح أمره في مكة أو المدينة من يد الحشود الغاضبة في موسم الحج. إن أفضل ما ينتظره على الأرجح هو ضربة سيف أو رصاصة ترسله إلى عالم أفضل

---

[1] حدثت قصة مشابهة، ربما كانت أساس كل الحكايات، عام 557 هـ في عهد السلطان نور الدين محمود الذي جاءه الرسول في المنام ليخبره بأمر النصرانيين اللذين شرعا يحفران نفقًا إلى قبره الشريف حتى وصلا إلى قدميه عليه الصلاة والسلام. (المترجمان)

[2] دونت هذه الملاحظة عام 1909، أما الآن فلست متأكدًا منها. (المؤلف)

[3] يستخدم هذا اللفظ للإشارة إلى المسيحيين الغربيين، وهو لا يعدو أن يكون تحريف للفظ "فرانكو" أو "فرنسيس" Francais. (المؤلف)

حيث يُخشى من نهايات أخرى كريهة. إن الفرصة الوحيدة لنجاة الشخص الدخيل من هذا المأزق هي أن يشرع في ترديد شهادة اعتناق الإسلام، ثم يستنجد بشخص صاحب سطوة كشريف مكة ليوفر له المأوى في داره.

يحدث أحيانًا أن يُقدم مسلمون على اتهام آخرين اعتنقوا بالفعل الدين ذاته طيلة عمرهم بأنهم مسيحيون متخفّون. لقد كاد الضابط التركي، الذي التقط بعض الصور التي ضمنتها في كتابي هذا، كاد أن يفقد حياته على يد بعض العرب المغاربة يوم عرفات. سمعت أيضًا عن حاج روسي ظل وأسرته يعتنقون الإسلام لأجيال. هذا الرجل خلصته السلطات التركية بشق الأنفس في ينبع من جمهرة حانقة أثارها غطاء رأسه الغريب، الذي يُشبه القبعات الأوروبية.

حاولنا غير مرة ولأمد طويل زيارة المقبرة التي تقع خارج السور والمعروفة بالبقيع حيث قُبر مشاهير أتباع ملة محمد عبر التاريخ، لكن بوابتها كانت موصدة نظرًا لتعرضها لنيران عدائية. في مستهل الحصار وقعت بعض الخسائر فقررت الحكومة غلقها في الوقت الراهن، فلم نتمكن لأمد طويل من الولوج إليها. لم تجر منذ وصولنا أي اشتباكات من كلا الطرفين. أكاد أزعم أنه لم يقع أي شيء غير عادي اللهم إلا انطلاق قذيفة مدفع من اتجاه الأسوار.

سلمني صديقنا عبد الله الدمشقي بعض خطابات التعريف، كما قابل عبد الواحد بعض الأصدقاء من حلب وتبادل معهم الزيارات. أصبح الطقس شديد البرودة، فراود الأمل الناس بأن الإرهاق سوف يحلّ على البدو المخيمين حول المدينة، ومن ثم يعودون إلى مواطنهم، لاسيما أن عددًا كبيرًا منهم قد أتى من الجنوب حيث الطقس أكثر دفئًا. لوحظ هنا وجود نفس الحماس للدستور كما في دمشق، أو ربما بدرجة أقل. يبدو أن العرب والأتراك قد فتحوا عقولهم أخيرًا للمبادئ الليبرالية والتمثيل البرلماني. إن تظاهري بكره هذه الأفكار وضعني في خانة الرجعيين من ذوي الأفكار البالية

الذين لا أمل في تغييرهم. أخشى أنني نجحت للأسف في ترك انطباع بأن زنجبار دولة متخلفة أو أنني أوصم بالغباء المستحكم. في المدينة يُعتبر من لا يعرف أي كلمة من اللغات الأوروبية شخصًا مُطبق الجهل. إن أغلبية الذين تعاملنا معهم هناك يتحدثون الفرنسية وأحيانًا الإنجليزية أيضًا بدرجات متفاوتة. لقد كنت حريصًا على نفي علمي بهذه اللغات.

تتمتع إنجلترا والإنجليز بحظوة كبيرة في كل مكان، وتفوق الدولَ الأوروبيةَ الأخرى حال مقارنتها بهم. يُعزى ذلك جزئيًّا إلى موقفنا الحاليّ من البوسنة والهرسك، وسوء الفهم بيننا وبين النمسا التي تسعى لضمهما، لكنه يعود بشكل أكبر لإعجاب واحترام حقيقي للمؤسسات البريطانية والوسائل التي تنتهجها بريطانيا.[1]

توجد عدة مَقَاهٍ في المدينة اعتدنا ارتيادها في المساء حيث نجلس وندخن، رغم كونها متسخة وسيئة بشكل عام إذا ما قورنت بمقاهي دمشق. من المشروعات التجارية الرائعة التي تدرّ على أصحابها ثروات هنا الفنادق الجيدة والمطاعم، وربما أيضًا مستودعات الأطعمة الباردة، فاللحوم باهظة الثمن والأسماك لا يمكن الحصول عليها بطبيعة الحال. تُباع في حوانيت المدينة بعض الأصناف الأوروبية من الأطعمة. من الغريب أن ترى في الأرجاء المحيطة إعلانات لمنتجات مثل شيكولاته "كادبيوري" وبسكويت "هانتلي وبالمر".

[1] لم يعد هذا الشعور موجودًا للأسف الشديد، فلقد فقدنا هذا التأثير وأخذت ألمانيا دورنا. (المؤلف)

بحثت هنا طويلًا عن صنف ابن بيئته يصلح لحمله كهدية تذكارية، لكن لم أهتدِ لشيء يحمل هذا الوصف، فلا توجد صناعات ولا تُطبع الكتب هنا. ابتعت بعض الأحجار الغريبة يعرفها أهل المهنة على حد علمي بالجرانيت المنقوش، ويُعتقد أنها تُؤخذ من هضبة في الجوار.[1]

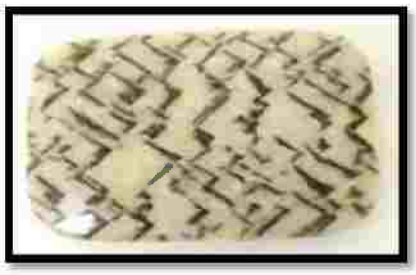

عندما عدت إلى مصر فيما بعد وجدت هذه الحجارة نفسها تُباع في القاهرة بنصف الثمن الذي دفعته فيها. يبدو أن حُجاجًا آخرين قد تعرضوا للخداع بنفس الطريقة، ومنهم عبد الواحد الذي ابتاع بعض مخطوطات الكتب بسعر مُبالغ فيه على أمل أن يبيعهم في أوروبا ويحقق من ورائهم أرباحًا طائلة. أحد هذه المخطوطات عبارة عن كتاب بالخط الكوفي يُعتقد أنه يعود إلى زمن الرسول، مما يُعظم بالطبع من قيمته. في أحد الأيام، وبينما كنت أتسلى محاولًا فك شفرة بعض أجزاء منه، وقعت عيناي على اسم رجل عاش بعد هذا التاريخ بقرون، مما حدا بي لأستنتج أن كلًّا من عبد الواحد والرجل الذي باعه الكتاب كانا أحمقين كبيرين.

عقدنا صداقة مع الشيخ المسئول عن المكتبة الجميلة الملحقة بالحرم. قمت بزيارته هناك عدة مرات أراني خلالها أعمالًا شيقة لا يرقى شك إلى أصالتها. ورغم كونها مكتبة صغيرة، إلا أنها مرتبة بشكل طيب ومفروشة على نحو يوحي بالترف. الدخول إلى المكتبة مجانًا، لكن لا يُسمح باستعارة الكتب منها.

[1] في الحقيقة يتم جلب هذه الأحجار من اليمن. (المؤلف)

يوجد حمامان تركيان في المدينة، كلاهما سيئ وجدّ مزدحم بشكل مخيف في هذا الموسم. هناك تناقض واضح في شتى الأماكن بين القذارة والحقارة من جانب والرفاهية المفرطة في الجانب الآخر. من غير العاديّ فهم التضاد بين حرص هؤلاء الناس على النظافة الشخصية وتحملهم الأوضاع الكريهة كما هو الحال في الحمامات العامة في كلٍ من مكة والمدينة.

طقس المدينة في هذا الوقت من العام رائع جدًا؛ النهار دافئ وهواؤه منعش، لكن الليل قارس البرد بحيث ننام دومًا ملتحفين بطانيتين على الأقل. لا تستطيع الأغلبية العظمى من الحجاج تدبير منازل لإقامتهم فيلجئون إلى أي مكان في الهواء الطلق، لاسيما في الميدان الكبير الذي يقع بين شقي المدينة. يعاني القادمون من الجنوب من البرد؛ الأمر الذي يعلل دون ريب معدل الوفيات المرتفع بينهم.

قضينا حوالي أسبوعين في سلام قبل أن تتجدد المتاعب مع البدو آخذة أبعادًا خطيرة. وادع البدو مناوئيهم منذ وصولنا حتى حسب الناس أن الأمر قد انتهى، فسعى أصحاب المنازل والبساتين خارج الدفاعات إلى تفقد ممتلكاتهم. لقد كان ذلك ضربًا من الحمق فدفعوا حياتهم ثمنًا لهذا التهور. استيقظنا فجر اليوم التالي على صوت إطلاق نار كثيف مصدره جنوب المدينة. علمنا أن البدو تقدموا إلى المواقع الأمامية من هذا الاتجاه وهم يفتحون نيرانهم على الدفاعات. نزلت وعبد الواحد إلى البوابة التي تفضي إلى البقيع فوجدناها مغلقة ومؤمّنة. سألنا الضابط المسئول عن الحراسة إذا كان بإمكاننا الارتقاء إلى الأسوار لنشاهد ما يجري. لم يمانع الرجل، لكنه حذرنا فقط من تعريض أنفسنا للخطر. صعدنا بحذاء المتراس حتى وصلنا إلى مزغل يوفر رؤية جيدة لما يدور حيث يقع في الجانب الجنوبي الغربي عند ملتقى الجدارين. وجدنا في الموقع مدفعًا في حجم الـ 12 رطلًا يُطلق البارود الأسود ويتألف طاقمه من ستة جنود تحت إمرة ضابط حديث.

رأينا اثنين من الخصيان جاءا مثلنا للفرجة يجلسان على راحتهما وراء الساتر. كانت الأرض أمامنا منبسطة، تمتد لآلاف الياردات وتذخر بنقط نافرة تمثل القبور، فضلًا عن جدار أو اثنين مهدمين في منتصف المسافة، تمتد خلفهما مزارع النخيل الكثيف. أخذ قرابة خمسين جندي من الرماة الجدار الأيمن كساتر دفاعي وراحوا يطلقون وابلًا من النيران من ورائه، وهم يمرحون بسرعة متعاقبة وبشكل عشوائي. على امتداد الخط الخافت الذي حددته أشجار النخيل انتشرت غلالات متفرقة من الدخان محددة مواقع العدائيات. شعرنا بصفير بعض الطلقات الفردية فوق رؤوسنا، تلك التي راحت تصطدم بالجدار دون وقوع خسائر. انطلق مدفعنا بين الحين والآخر بقذائف متفرقة في اتجاه غلالات الدخان السميك.

تحصنّا في مكان نستطيع من خلاله مشاهدة ما يدور بشكل جيد دون تعريض حياتنا للخطر بلا طائل بالمرة. لسوء الحظ لم يكن الضابط يتحدث العربية؛ الأمر الذي جعل عبد الواحد يتحدث معه بتركية مكسرة. بحلول منتصف اليوم ومع وجود احتمال ضئيل بوقوع اشتباكات أخرى قصدنا المسجد للصلاة، ثم ذهبنا لتناول وجبة الغداء. سرت أخبار ذاك المساء تفيد بخروج عدة أفواج[1] من أفضل قوات الجيش مسلحة ببنادق على أحدث طراز من القسطنطينية في طريقها إلى هنا تحت إمرة باشا

[1] الفوج هو تشكيل عسكري يُعادل كتيبة مدعمة. (المترجمان)

يتمتع بسمعة عسكرية عالية، ومن المقرر أن يتولى زمام الأمور في المدينة. من الواضح أن الحكومة الحالية قد وصلت إلى قناعة بضرورة عمل شيء لوضع نهاية للوضع الراهن المُخزي.

دفعت التكهنات بالتغيير الوشيك الحاكم الحالي إلى اتخاذ إجراءات مفعمة بالحيوية. قنع الحاكم عند نشوب هذه الأعمال المُفجعة بالدفاع السلبي المحصن على أمل بأن البرد والجوع والشجارات الداخلية سوف تعمل بلا شك على تشتيت قبائل البدو دون إراقة مزيد من الدماء. كان الرجل عازمًا على القيام بعمل خلال الأيام القليلة الباقية له في السلطة، وقرر كخطوة استهلالية أن يُنفذ عملية عسكرية تُعرف بالاستطلاع بقوة، وتعني الاندفاع إلى مواقع العدو الأمامية لاكتشاف مكان القوة الرئيسية وما تقوم به. تصف مذكرة "التدريب المشترك" هذا الأمر - إذا أسعفتني الذاكرة - بأنه أسلوب خطير وغير مرضٍ في الحصول على المعلومة، ولا يجب السماح به إلا في الظروف الخاصة كما في هذه الحالة بكل تأكيد.

تحيط مزارع النخيل بالمدينة من ثلاثة جوانب. الأرض مفتوحة نحو الغرب على نحو متفاوت، فتارة ترتفع بشكل طفيف لمسافة معينة، وتارة تقطعها التلال السفحية التي تتوزع بين ثناياها أشجار النخيل. وقعت هذه الرقعة المنبسطة في المدى المؤثر للمدفعية المرابطة على الأسوار، وكذا الحصن القائم بذاته شمال غرب المدينة. مع بزوغ فجر اليوم التالي تقدمت قوة قوامها أربعة آلاف فرد في تشكيلات منتشرة. سرعان ما واجهت هذه القوة عدائيات. بحلول العاشرة اشتعل خط المواجهة بالنيران بشكل عام. أنبأت هذه الطلقات بحدوث شيء ما فنزلنا إلى بوابة البقيع ولدينا النية للتوجه لمواقعنا السابقة. شعرت بالإحباط حين رفضوا السماح لنا بالدخول. عدنا أدراجنا بحكم الظروف. بعد الغذاء كان صوت الاشتباكات الدائرة مغرٍ فصممت على إعادة الكرّة من جديد. ومرة أخرى أخبرونا بتعذر هذا الأمر. هذه المرة عقدت العزم

على عدم قبول الرفض. تقدمنا لنرتقي الدرج، لكن الحارس أشهر سلاحه فما كان منا إلا أن تقهقرنا. بينما وقفنا نتجادل معه حضر الضابط المسئول وهو ينعتنا بالحمقى، موضحًا أن هذا القسم من الدفاعات واقع برمته تحت تأثير النيران. أقسمنا أننا سنتَوَخَّى الحذر ونحتمي بساتر، هذا إذا سمح لنا بالدخول. صمم الرجل على موقفه مضيفًا أن لديه أوامر صارمة من المستحيل خرقها. في غضون المناقشة رحنا نرتقي بالتدريج حتى بلغنا منحنى فضاعفنا الخطوة واختفينا عن الأنظار. توقعت مائة في المائة أنهم سيقومون باقتفاء أثرنا وإعادتنا بأسلوب مذلّ ومخزٍ، لكن بدا من الواضح أنهم خلوا سبيلنا على اعتبار أننا معتوهان، مفقود فيهما الأمل ويُحسن تركهما وشأنهما حتى يخرّا صريعين بالطلقات. عقب الارتقاء أسلمنا أرجلنا للريح بحذاء السور إلى حيث موقعنا القديم، لكننا لم نجد أثر للمدفع، ويبدو أنه تم نقله. أكملنا الدوران حول السور، ثم دنونا نحوه لحماية الجانب الأيسر من خط المواجهة فوجدنا أصدقاءنا القدامى تحت إمرة ضابط جديد. كان موقعنا جيدًا، وتمكنا من مراقبة ما يجري دون أدنى خطورة. وجدنا حوالي ستة من المُطَوّفين، فضلًا عن بعض الخصيان منخرطين في الاشتباكات. يُعتبر الخصيان من الفئات المُميزة في المدينة، ويلقون معاملة محترمة. لم يعتد سكان المدينة تلقي الأوامر، وهذا يُفسر وجودهم في هذا الموضع في تحدّ للأوامر.

في الحرب الحديثة يُمكن تتبع البنادق المستخدمة من كلا الجانبين، وتقريبًا كل المدافع التي تُطلق البارود الأسود، ومن ثم أيضًا رصد تطور الاشتباكات بشكل أسهل من ذي قبل. في جنوب أفريقيا كان من الصعب بوجه عام الحصول على فكرة صحيحة عن مواقع وتحركات القوات المعادية على أي مسافة من مسرح العمليات؛ أما هنا فإن الدخان المتصاعد من الخطوط الممتدة يحدد بوضوح كل موقع على حدة تمامًا كما يظهر على الخريطة.

عند وصولنا كانت القوات التركية قد تقدمت حوالي ثلاثة أميال عبر الأرض المفتوحة؛ وهي تشتبك مع البدو الذين يحتلون التلال المنعزلة ومزارع النخيل المتوغلة. أطلق الأتراك القذائف واستخدموا عددًا مهولًا من الذخيرة، بينما لجأ البدو إلى أسلوب القنص كلما لاحت الفرصة. دأبت المدفعية على القصف العشوائي، وبدا لي أنها تتدرب بشكل جيد. استُخدمت الدانات العادية والقذائف ذات الشظايا المتناثرة التي تعمل بنظرية الطرق، فلم أعاين مفجرًا زمنيًّا بها. على مسافة من يميننا نُصب مدفعان يقصفان بارودصا لا ينبعث منه دخان. أُتيحت لي فرصة فحص هذين المدفعين عن كثب ومن جميع الاتجاهات، وكان حجمهما هائلًا بشكل ملحوظ.

بدا من العسير الوقوف على هدف معقول من وراء هذه العمليات، فقذائف المدفعية من هذا المدى تفقد تأثيرها، ولا تجبر العدو على التقهقر إلى دياره. اقترح بعضنا أن الطريقة الوحيدة لتأمين المكاسب والنتائج الحاسمة هي التقدم عبر مزارع النخيل وإجلاء العدو منها، ثم احتلال الأراضي التي تقع خلفها بشكل دائم. علق الضابط المسئول قائلًا: إن هذا هو رأي الغالبية، لكن يبدو أنه لا يوجد من يتحمس لوضعه في حيز التنفيذ لسوء الحظ. في الحقيقة كانت معظم القوات من المجندين قليلي الخبرة الذين لا يضاهون العدو فيما يتعلق بالقتال الملتحم.

لم نراوح مكاننا لعدة ساعات، ولم يحدث خلالها أي تقدم ملموس، اللهم إلا إطلاق بعض القذائف بين الحين والآخر في اتجاه أي جماعات تلوح في الأفق. اقتلعت هذه القذائف بعض النخلات، وكان هذا أسوأ ما حدث على حد ظني. أتحفنا عبد الواحد والخصيان الذين كانوا على دراية بكل ما يجري بأطروحات مطولة عن التكتيكات والاستراتيجيات على وجه العموم أو الحملة الراهنة على وجه الخصوص، إذا جاز لنا أن نبجلها بنعت "حملة". بدأت أتساءل ما الذي يمكن أن يحدث عندما ينسحب

البدو، وهو ما يبدو وشيكًا؟ من غير المحتمل على ما يبدو أنهم سيسلمون من الإيذاء مع الأخذ في الاعتبار طبيعة شخصيتهم وأرضهم.

فكرنا أنه من المستحسن الحصول على رؤية أفضل من البوابة المقابلة للمحطة، ومن ثم فقد ارتقينا حتى صرنا أمام السور المحطم تقريبًا. ثم ترجلنا إلى منفذ جانبي أفضى بنا إلى المدينة، ثم اختصرنا المسافة إلى الطريق الرئيسي الذي قادنا إلى المحطة. وجدنا البوابة الكبيرة مفتوحة، وتجمع عندها حشد ضخم من الناس لمشاهدة ما يجري. تم تحصين المباني التي لم يكتمل تشييدها بشكل يشوبه بعض الجلافة، واحتلالها بقوة كما هو الحال بالنسبة للجدار الملاصق للبوابة، بل والبوابة نفسها التي نُصب عليها مدفعان. عند رؤيتي لمجموعة صغيرة من المدنيين كما تُنبئ ملابسهم يجلسون في بقعة مرتفعة نسبيًّا على مسافة تزيد عن ربع الميل تقريبًا - لم أجد ما يمنع من التقدم نحوهم أو يحول دون الانضمام إليهم. توجد بعض المقاهي الصغيرة خارج البوابة مباشرة في المسافة بينها وبين المحطة حيث يجلس أناس كثيرون بينهم جماعة من المُطَوّفين أخبرونا أنهم متواجدون في هذا المكان منذ الصباح. لم يترك سير العمليات الحربية انطباعًا إيجابيًّا عندهم، فحسب قولهم لم يتم إنجاز أي شيء سوى مرور طابور من الجرحى والقتلى أمامهم طيلة الوقت. شاهدنا نحن أيضًا أربعة من هؤلاء في طريقنا للخارج. أخبرنا أحدهم وكان مسلحًا ببندقية أنه من المتطوعين المحليين، وأنه تُرك في الخلف هذا الصباح لأنه كان مستغرقًا في النوم. تم تجنيد هؤلاء المتطوعين منذ عدة أيام من سكان الحواضر، كما تم تزويدهم بالبنادق. أُوكِل إليهم حراسة الأسوار خلال الليل، أما أثناء النهار فيُطلب منهم الاستيلاء على أي بقعة من الضروري احتلالها. رُوعي في فكرة استعمالهم أن يبقوا بقدر الإمكان بمنأى عن الاتصال الفعلي مع العدو نتيجة للحالة الغريبة الراهنة، التي قمت بتوصيفها من قبل. لم يُصرف لهؤلاء المتطوعين زي عسكري، ورفضوا من جانبهم تغيير أرديتهم التي

لا تتناسب مع الحملات الحربية رغم كونها جميلة ومريحة. يُشبه حراس المدينة في سيرهم صوب الاشتباكات حوضًا لنبات الزعفران في إبريل، وأجد لزامًا عليّ أن أقول إنه من السهل جدًّا إنزال الإصابات بهم. استفسرت عن إمكانية قبولي كمجند فأُخبرت أنه لا يوجد أي مانع. عرض علينا صديقنا أن يصطحبنا في جولة ويقدمنا للشيخ المسئول عن المعسكر في اليوم التالي، هذا بالرغم من احتجاجات عبد الواحد وسخطه.

جاوزت الساعة الآن الخامسة. بدأ رجوع القوات منذ فترة وجيزة إلى ثكناتها. استطعنا على مدد البصر مشاهدة قفول القوات في تشكيلات مُنظمة وبطريقة تقليدية حيث تعود أجزاء من خط المواجهة عَدْوًا ثم تدير ظهرها حتى تحمي بنيرانها ارتداد بقية القوات.

عندما أصبحت القوات على بعد نصف ميل منا بدأنا نفكر في العودة، لكن التحرك المُنظم الذي انتهجته التشكيلات برُمتها ولَّد لدينا شعورًا بعدم وجود حاجة للعجلة بشكل خاص على ما يبدو. شاهدنا فجأة خارج المقاهي وقوع اضطراب بين الناس الذين هبّوا على أقدامهم، وتزاحموا وهم يحاولون العودة عبر البوابة. أصابت رصاصةٌ رجلًا كان جالسًا هناك يحتسي القهوة في رأسه فأردته قتيلًا في التوّ. تزامن مع ذلك تقريبًا تلاشي الفرقعة المعتادة لقذائف المدفعية وتنامي خشخشة الطلقات الفردية التي تُطلقها البنادق، وردّ النيران من الجانب المقابل وطنين الرصاصات حين تطير فوق الرؤوس. شُوهد في نفس الوقت الجنود المتمركزون بمنشآت المحطة يهرعون إلى أماكنهم.

بدا جليًّا أن مكاننا الراهن قد تحول إلى صفيح ساخن، ومن ثم فقد شرعنا في العودة أدراجنا. كان دوي إطلاق النار قد تضخم واستفحل قبل أن نبلغ البوابة. نظرنا خلفنا لنرى الجنود يسابقون الريح. تكشفت الأرض مُعبأة بالدخان المتصاعد. سيطر

التردد علينا، وفي الأثناء اندفع جمهرة من البدو على ظهور الجمال والخيول المتفرقة عبر خط النار يصيحون في حنق وتستعر بنادقهم بطلقات النيران. عم الذعر الجماهير التي ما برحت تجاهد لعبور البوابة. أُصيب العديد منهم وجُرح آخرون وسط الزحام. أطلقت المدافع المنصوبة فوق البوابة نيران تفتيش في الاتجاه العكسي أو على الأرجح قذائف شظايا. ترافق مع ذلك إطلاق الرصاص من الأسوار ومواقع دفاعية أخرى، الأمر الذي ساعد على شلّ حركة البدو ودحر هجومهم، ومنح القوات المرتبكة - الوقتَ لإعادة تنظيم صفوفها. باستثناء صديقنا المسلح الذي أبى بجسارة أن يبرح مكانه حتى يتمكن من المشاركة في القتال، استفدنا نحن من فرصة الهدنة القصيرة التي تلت ما حدث لنعود عبر البوابة التي صارت خالية الآن.

مشهد من الارتباك الكبير كان دائرًا داخل البوابات. اندفع المسعفون هنا وهناك وانطلقت الأبواق بالتحذير. تلاشى ضجيج البنادق والمدافع بينما كنا نجتاز البوابة عدا الرجّة العنيفة لقطعتين راحتا تقصفان مباشرة فوق رؤوسنا تقريبًا حتى عمَّنا الغبار والدخان. هرع فوج من حملة الحراب فتخطونا وانتشروا أمام البوابة. لقد أصبح الأمر مثيرًا جدًّا.

لم يُر سوى عدد قليل من الحجاج حيث راود غالبيتهم رغبة في العودة لأوطانهم تاركين أهل المدينة والأتراك والبدو يسوون خلافاتهم بأنفسهم. هَمَّ سكان الحواضر ممن يمتلكون بنادق لبذل يد العون في الذود عن المدينة التي ساد انطباع عام برغبة البدو في اقتحامها.

سرعان ما أرخى الليل سدوله. لم يحاول العدو تكرار الهجوم، واكتفى بمجرد إطلاق الرصاص كلما أمكنه ذلك على الثكنات العسكرية القريبة. جرت اشتباكات متلاحمة بسيطة في بعض الأماكن؛ كما نما إلى سمعنا بعد ذلك.

جلب الظلام معه أمانًا نسبيًّا، الأمر الذي ساعد على استرجاع القتلى واستنقاذ الجرحى. لم تكن خسائرنا هينة على ما يبدو. أحدثت بنادق "الماوتزر" عيار 74 من البوصة[1] جروحًا خطيرة في الاشتباكات القريبة.

بالطبع سحبنا فقط من خرّ صريعًا قرب البوابة، وكان من بينهم العديد من حرس المدينة المتطوعين.

أميل إلى مشاركة البدو الاعتقاد بأن سكان المدينة غير مُحتملين. لا يوجد ثمة ما يُبرر سلوكهم خلال حالة الطوارئ تلك من رخاوة وفتور عند رؤية الدماء المسفوكة. لقد خبت جذوة روح القتال القديمة لديهم، بل قل لقد انطفأت تمامًا. خالج كل من كان حولي شعور بالرغبة في الانتقام، واقترح العديد منهم شن غارة شاملة للتخلص من العدو.

حين حلت دياجير العتمة مبددة إمكانية شن هجوم وشيك بدا لهم أن أفضل ما يمكن فعله هو العودة للديار. حتى عبد الواحد الذي أكد على مبدأ حرمة جميع الدماء عامة ودمه بصفة خاصة عاد منذ فترة إلى المنزل. في طريق إيابي إلى البيت قابلت مسعودي كلية في لباس الحرب. لقد ظل يبحث عني في الأماكن المحتمل تواجدي بها، وخشي أن أكون عالقًا وراء البوابة. عدنا معا إلى المنزل لنجد مضيفنا وعبد الواحد يعدان وجبة العشاء.

[1] بندقية ألمانية الصنع. (المترجمان)

غادر أمان بعد ذلك ليشارك في حراسة السور شأنه في ذلك شأن أصحاب العقارات الموقرين كافة في تلك الليلة. عرضت عليه أنا ومسعودي الصحبة، لكنه جعلنا نعدل عن ذلك لعدم وجود بنادق لدينا. أخذ بي الإجهاد كل مأخذ فنمت دون حراك بالرغم من استمرار القصف المدفعي طيلة الليل.

اكتشفنا في الصباح أن البدو قد ابتعدوا عائدين لسيرتهم الأولى في قنص الدفاعات من مسافات طويلة. بالطبع حملوا معهم عددًا هائلًا من القتلى والجرحى كما هو حالهم دومًا. لم نظفر من عمليات الأمس إلا بثلاثة أسرى تم عرضهم على الملأ ثم قُطعت رؤوسهم وعُلقت على بوابة دمشق عبرة لمن يتجاسر على تحدي حكومة عظمة السلطان. تغيرت معالمهم للأسف؛ بحيث يتعذر حتى على المتمردين أنفسهم - إذا توفرت لديهم نظارات ميدان دقيقة – التعرف عليهم. وبما أنه لا يوجد من يهتم بتذكارات النصر تلك فقد أُنزلوا ودُفِنوا في ميدان السوق. عج المكان بالدهماء من العرب الذين استمتعوا بما يجري بشكل كبير. صعقني ما جرى، ووجدت فيه سذاجة، علاوةً على تعارضه مع الصحة العامة. أسررت بهذه الملاحظة لأحد المتفرجين فرد قائلًا: "هذا صحيح، لكن الغرض هو مضايقة البدو حين يسمعون بما جرى." أتفق مع هذا الرجل فإن أي إجراء يحقق هدفك أثناء الحرب – خلا الغدر - هو أمر مسموح به، وسوف تكتسب هذه الأفعال قبولًا أكثر على المدى البعيد.

مهما بلغت خسائر البدو في هذه الواقعة، زادت أو قلت، فلا يوجد شك أنها تضارع خسائرنا، وهذا أمر يؤسف له. لم أصل بالرغم من ذلك إلى رقم محدد. تراوحت التقديرات بين مائة إلى ألف، أما أنا فأحصرها بشكل تقريبي في مائتين مع ارتفاع نسبة القتلى ذلك لأن الجرحى الذين تُركوا في الميدان كان مصيرهم القتل أثناء الليل.

بدأت الآن في أعقاب الأحداث الأخيرة عملية منظمة لتجنيد السكان. بالرغم من مناخ الإحباط الواضح الذي تركته هذه الواقعة فقد أقبل الكثيرون على التطوع. زودتهم السلطات بالبنادق لانتباهها التام إلى ضرورة تأمين وسلامة المدينة نفسها. وقف الحجاج بالطبع بمنأى فليس لهم ناقة ولا جمل في هذا الخلاف، على عكس المُطَوّفين الذين ظهروا في هيئة الحرب فوضعوا أحزمة الرصاص العريضة على أكتافهم وحملوا الحراب والمسدسات والخناجر في أنحاء متفرقة من أجسامهم أينما تيسر لهم ذلك. شن المتطوعون في الأيام القليلة التي تلت الواقعة بعض الغارات بشكل منفرد واشتبكوا مع العدو غير مرة. أخبرني نفر أنهم أبلوا بلاءً حسنًا، لكن يبقى هذا رأيهم على أي حال.

لم أشأ أنا ومسعودي أن نبقى بمعزل عما يجري. اعترض أمان دون جدوى مشيرًا إلى أننا غير معنيين بهذا الصراع، ومن الحماقة أن نورط أنفسنا فيه. في ذاك الوقت لم أعد أشعر بالقلق من رؤيتي بصحبة مسعودي بعد أن تأكد لي عدم وجود من يمكنه التعرف على كلينا بمجرد النظر في المدينة. سألْنا بضعَ أشخاص عما ينبغي علينا فعله من أجل التطوع، لكن لأن عدد الحجاج الذي أقدم على ذلك قليل فلم يعرفوا إلى من نتوجه. أخيرًا قابلْنا ضابطًا تركيًّا كان قد قدم معنا من دمشق ونشدنا عونه. استمع الرجل إلى طلبنا ثم اصطحبنا لمقرّ القيادة حيث أفلح في إدخالنا على ضابط الأركان المسئول عن تجنيد المتطوعين. تعاطف الأخير معنا، بل وسرّ بنا، لكنه أبدى أسفه لعدم قدرته على فعل شيء؛ نظرًا لصدور أوامر حديثة تُشدد على منع قبول متطوعين من الحجاج. تقضي هذه الأوامر بضرورة منع الحجاج لأقصى مدى من المشاركة في أعمال القتال الدائر، والسبب وراء ذلك واضح فلو سُمح للحجاج بالخوض في العمليات العسكرية فإنه سيتوفر لدى البدو الحجة الدامغة لاعتبارهم أعداء فيشرعوا في توقيف القطار والقوافل. ترغب الحكومة التركية في أن تبدو أمام

العالم الإسلامي كالسلطة المهيمنة وحاضنة السلام في أرض العرب وسلامة الحجاج خلال إقامتهم بها. إذا حِيل بين وصول أعداد كبيرة من الحجاج إلى المدينة فإن هذا الأمر سيصير فضيحة، لكن الفضيحة الأكبر هي سقوط قتلى وجرحى بينهم لأن الناجين سوف يعودون إلى بلادهم وهم يتبنون على الأرجح رأيًا سلبيًّا حول عجز السلطان عن الاضطلاع بدور حامي الأماكن المقدسة.

ناشدناه أن يعطينا خطابًا إلى أحد الشيوخ بالمعسكرات يُوجه فيه إلى تجنيدنا، لكنه لم يفعل. طلب منا أن نهون على أنفسنا حيث عاد الطرفان المتحاربان إلى طاولة المفاوضات هذا الصباح مع تعاظم الاحتمالات بتوقف القتال للأبد، فما كان منا إلا أن قنعنا بهذا الكلام ورضينا به.

بدأ التفاوض بالفعل، لكنه لم يؤت أُكله. خرجت مطالب البدو عن حدود المنطق، واستفحل استعلاء كبرائهم بشكل غير محتمل عقب نجاحهم الأخير. على أي حال لم تجر أي اشتباكات مثيرة خلال ما تبقى من إقامتنا في المدينة. جمد العدو نشاطه عند حدود قنص الأسوار، وفي المقابل اكتفى الأتراك بالقصف المدفعي واحتلال الهيئات الحاكمة المتاخمة للمدينة خلال ساعات النهار.

بعد مرور عدة أيام وصل الحاكم الجديد بصحبة فوجين ومدافع إضافية. شاهدنا الجنود الأتراك وهم ينزلون من القطار فأذهلني مظهرهم العسكري المتأنق ورشاقتهم، الأمر الذي يُمثل تباينًا مع القوات التي قابلناها هنا. سُلح هؤلاء الجنود ببنادق "ماوتزر" عيار 256 من البوصة، ومُركب على كل منها "سونكي".

مر الأسبوع التالي دون أحداث تُذكر عدا شِجاري مع أحد المُطَوّفين يُدعى حمزة، شاب كردي وابن لأبوين موسرين. كان نطاق تخصصه فارس، ويقوم عادة خلال هذا الموسم بإرشاد عدد كبير من الزوار القادمين من هناك، كما يمتلك والده على ما أظن دارًا لطيفة لنزولهم بها.

أرى لزامًا عليّ أن أوضح أن الفرس يتمتعون بين الأقطار الشرقية بنفس السمعة التي تلازم الإنجليز في القارّة الأوروبية، فينظر إليهم دائمًا على أنهم مليونيرات ويُتوقع منهم أن يدفعوا الضِّعف في كل شيء. ونتيجة لهذا وبسبب التجادل بين السنة والشيعة الذي ما انفك يخلق أحيانًا أجواء كريهة - يلجأ الفرس عادةً إلى الادعاء أنهم عرب خلال إقامتهم في هذه الأماكن. كان لدى حمزة ووالده دكان لبيع الكتب في الشارع المُفضي إلى الحرم ابتعت منه أغراضًا بسيطة غير مرة. لسبب ما استقر في عقليهما أني فارسي وأن عبد الواحد بتصرفاته التي جعلته يبدو كمرشدي قد سلبهم حقًّا أصيلًا. لطالما أزعجني حمزة بهذا الأمر كلما تقابلنا مخاطبًا إياي بالفارسية، فأؤكد له دون فائدة أني لا أفهم كلمة واحدة من كلامه. ذات يوم وبينما كنت

أمرّ على حانوتهما ألقيت التحية مستخدمًا في مزحة حمقاء عبارة "خُدا حافظ"،[1] وهي كل ما أعرف من الفارسية. لا بد أن نُطقي لهاتين الكلمتين كان سليمًا لأنه اعتبارًا من هذه اللحظة لم يفلح أي شيء في إقناعهما بأنهما كانا مخطئين فيما يختص بحدسهما حول مسقط رأسي. أضف إلى ذلك قلة عدد الحجاج القادمين من فارس ذاك العام نتيجة للقلاقل الجارية في فارس والصراع الدائر مع البدو هنا، وكذا الخوف من تجدد الكوليرا التي ضربت الحجاز العام الفائت، ومن ثم لم يظفر حمزة بأي حجاج مطلقًا مما زاد من سخطه علينا بطبيعة الحال نتيجة لاعتقاده أننا دلسنا عليه. في الواقع لقد راق لي هذا الشاب، وكنت سأُسَرّ بإقامتي طَرَفه لو كان هناك إمكانية. حدث في أحد الأيام أن اعترض حمزة سبيل عبد الواحد، وانبرى يقرعه بشكل عنيف، فما كان من عبد الواحد إلا أن قال له: "اذهب للجحيم!" دأب حمزة ووالده على مهاجمتي وازدرائي والتعريض بي على مرأى ومسمع من الناس باستخدام أساليب بات وضع حد لها أمرًا ضروريًّا بشكل واضح.

قررت بعد مشاورات مع عبد الواحد انتهاج أسلوب المواجهة. قصدنا دكان الكتب لنتحدث مع حمزة ووالده. أخبرتهما أن زيارتي للمدينة قد فسدت بسبب إزعاجي المستمرّ حول انتمائي لدولة لم أرها في حياتي، ولغة لا أعرف منها سوى العبارة التي تلوتها على مسامعهما. أخبرتهما كذلك بأني سأتوجه من فوري إلى شيخ الحرم بالشكوى، وأطلعه هو فقط على جواز سفري لأن هذا الأمر ليس من شأنهما! انطلقنا بعد كلامي هذا لننفذ تهديدنا بشكل لا يخامره شكّ. كما توقعنا فقد نكصا على *عَقِبَيْهما*. شرع حمزة يعدو ورائي مسرفًا في الاعتذار والتوسل إليّ بالعودة. نزلت على رغبته أخيرًا. أوضح والده أيضًا أنهما لم يقصدا إلحاق أي أذى، وأنه بما أنني قد أكدت أني لست فارسيًّا فإنهما يقبلان هذا الكلام بكل تأكيد... إلى آخره. يعلم حمزة علم

[1] تعني "حفظك الله"، وتُقال غالبا في الوداع. (المترجمان)

اليقين أنني لو نفذت تهديدي لوقع في مشاكل خطيرة، فشيخ الحرم ليس ممن يتحمل الترّهات، ناهيك أنه من مصلحة السلطات مراقبة المُطَوّفين والاستماع للشكاوى التي ترد في حقهم. بالطبع كان تهديدي بالشكوى مجرد خدعة.

تراضينا في النهاية واعدًا حمزة أن يصطحبنا يومًا ما في جولة إلى البقيع وأماكن أخرى عندما تصبح زيارتها ممكنة.

تمكنّا من القيام بذلك بعد مرور عدة أيام. لم ينشب اقتتال في هذا الجانب من المدينة مؤخرًا. أخيرًا واستجابة لطلبات عديدة ملحَّة تم فتح بوابات المقبرة على مصراعيها. حضر حمزة بعد الغداء، ورافقنا للمقابر. من المضجر وصفها، لكن الملمح المميز للقبور قاطبة هو طبيعة إنشائها وحالة الإهمال التي بدت عليها. يثير هذا الأمر العجب العجاب لاسيما حين يفكر المرء في الملايين التي أُنفقت على الصروح الدينية بدول أخرى، فضلًا عن مساجد القاهرة ودمشق الخلابة، ناهيك عن القباب الذهبية في كربلاء حيث البذخ المفرط الذي عُني بوصفه المسافرون الهنود. أما هنا في مهد هذا الدين فإن قبور زوجات محمد وابنه إبراهيم وحفيده الحسن وشخوص أخرى لا تُذكر أسماؤها دون الترضي على أصحابها أقل حجمًا ورونقًا، ولا تحظى بترميم جيد مقارنةً بقبور أشخاص عاديين في أماكن أخرى. حقيقة لا أجد تفسيرًا لهذا الخلل والقصور.

برهن حمزة عن اقتدار في عمله كمرشد. التزم بتلاوة الأوراد الخاصة بزيارة المقابر بالنيابة عنّا وبصوت حسن ونطق سليم، وأفلح في الإجابة عن جميع الأسئلة التي وجهناها له. بالرغم من ذلك فإن لدى الرجل لعثمة متقطعة في حديثه العادي تُسبب نوعًا من الضجر.

لم يُسمح لنا بالمرور إلى مقابر النساء لوجود حارسات هناك يَحُلْن دون حدوث هذه الزيارة غير اللائقة، فاكتفينا مرغمين بالوقوف على الحدود الخارجية لها. استغرقت الجولة بأسرها عدة ساعات.

في اليوم التالي اصطحبنا حمزة إلى بعض الأماكن الشيقة في الجانب الآخر من المدينة، ومنها قبر عبد الله، والد النبي. توجد إشكالية هنا واجهتْ فطاحل علماء المسلمين. بما أن عبد الله قد قضى نحبه حين كان الرسول طفلًا. إذًا فمن الواضح أنه لم يكن مسلمًا؛ في الحقيقة لقد مات وثنيًّا. وعليه هل ينبغي معاملته بتلك القدسية؟ أخبرنا حمزة أن الرسول دعا ربه ذات ليلة ليجعل أباه من الناجين. في هذه اللحظة ظهر عبد الله حيًّا أمامه فنطق بالشهادتين، واعتنق ملة ابنه كالدين الواحد الحق ثم عاد إلى قبره. يعتقد أتباع ملة محمد - والشيء بالشيء يذكر – أن كل شيء فانٍ قبل يوم الحساب، ويشمل هذا أيضًا ملك الموت نفسه فلا دائم في الكون إلا خالقه وحسب.

أخبرنا حمزة أننا لا نرتاح لهذه المعلومة الخاصة بوالد النبي، ونجد صعوبة في تقبلها. أجاب أنه لم يؤمن بها هو نفسه، لكنها قصة جميلة تحل الإشكالية التي سبقت الإشارة إليها، ولا يُمكن بأي حال دحضها، ومن ثم لماذا نشغل بالنا بها؟ لقد كشفت ملاحظات حمزة عن فلسفة معينة، لكنها افتقرت غالبًا إلى الفطنة.

تابعنا تفقد ما تبقى من المشاهد، ومنها الخندق الشهير الذي حفره أتباع الرسول للدفاع عن المدينة خلال حربه مع قريش. يتشكك معظم الناس في حقيقة الموقع، لكني – عملًا بنظرية حمزة – لا أرى سببًا عمليًّا لعدم الاعتقاد بأنه هو؛ إذ أنه من المستبعد انزواء عمل بارز مثله في ذاكرة النسيان.

زُرنا في يوم آخر مسجدين صغيرين على بعد ميل تقريبًا من البوابة الشمالية.[1] مَثَّل هذا الأمر مخاطرة غير مرغوب فيها؛ إذ يمكن أن يلفت أنظار القناصة المعادين، لكن شيئًا لم يحدث. دُفن في أحد هذين المسجدين ابن عم للرسول سقط اسمه من ذاكرتي.[2] اعتاد الرسول تأدية صلاة العشاء في المسجد الآخر بعد مشاهدة مباريات العَدْو والمطاردة، ويبدو أنه كان جدّ مغرم بهذه التسلية. من السمات التي يُمكن أن تُضاف لمحمد في هذا السياق أنه الرسول الوحيد الذي لم يكن رياضيًّا بمعنى الكلمة، كما أنه حرم بشدة الرهانات على نتائج السباقات.

أدمن حمزة بشدة وضع الكحل داخل جفنيه. والكحل مادة كيمائية مسحوقة، وممارسة محببة لدى العرب حتى قبل وقت الرسول الذي عُرف عنه استخدامه له.[3] يقولون إنه يصون النظر بشكل ممتاز ويدرأ عن العيون الالتهابات. جربته بنفسي لعدة مرات حتى بدوت في النهاية أقرب لفتيات الجوقات. أسرف عبد الواحد بدوره في استعماله حتى كاد يفقد بصره. حاول إزالته عن طريق الغسل بإسفنجه فلطخ جل وجهه بلون بنفسجي فاتح. أمضى عبد الواحد بقية اليوم يحاول كشط الكحل باستخدام حجر الحمام فلم يحقق سوى نجاح جزئي لأن المادة كانت ملتصقة في الجلد بقوة.

---

[1] المساجد المتعارف عليها في الجهة الشمالية من المدينة هي: الشجرة، القبلتين، الأحزاب (الفتح) ومسجد أُحُد. (المترجمان)

[2] لم نهتد بعد بحث إلى اسم ابن عم الرسول الذي أشار إليه الكاتب. (المترجمان)

[3] يُروى عن محمد أنه قال بأن مرود الكحل (المُكحلة) إحدى أشياء ثلاثة ينبغي على المرء عدم إعارتها لصديقه. الغرضان الآخران هما سواكه وزوجته. تعود أصول هذه المزحة الخفيفة دون شك إلى العصور الغابرة (الجاهلية). (المؤلف)

أمضينا في المدينة حتى الآن ثلاثة أسابيع، وبدأنا نفكر في الانتقال. عقدنا العزم في البداية على السفر إلى مكة بصحبة المحمل السوري، أو مع أي قافلة أخرى إذا حل بنا السأم قبل انطلاق المحمل. في هذا الموسم السنوي وفي الأحوال العادية تنطلق قوافل كل بضعة أيام، لكن نتيجة للحرب لم تتحرك أي قافلة منذ وصولنا، واستبعد العديد من الأشخاص احتمالية هذا الأمر، بل لقد شاع أن المحمل ذاته قد يستكمل مساره عبر البحر، وهو ما لم يحدث من قبل.

ساهم كل هذا في شعوري بالقلق من استمرار مكوثنا في المدينة. خالطتني ريبة شديدة بأن موقف البدو من حياد الحجاج لن يستمر لفترة طويلة، خاصة إذا ما أقدمت التعزيزات التي وصلت حديثًا على شن عمليات عدائية، وهو أمر زاد الكلام بشأنه مؤخرًا. بالفعل ربما وجدنا أنفسنا في أي وقت محاصرين وغير قادرين على الخروج مطلقًا. لا أتصور بأي حال تفويت الحج إلى مكة لأنه كان هدفي الأساسي.

كان أمامنا العديد من الخيارات المتاحة. أحد هذه الخيارات هو الانتظار في المدينة، ثم المغامرة بالالتحاق بركب إحدى القوافل المتجهة إلى مكة، أو إلى ينبع ومنها إلى جدة عن طريق البحر. الإياب إلى دمشق هو خيار آخر يتمتع بميزة الأمان والمسار المحدد. بالرغم من ذلك لم تَرُق لي كثيرًا فكرة ركوب القطار مرة أخرى، ولم أشأ أن أفوت تجربة التنقل ضمن القافلة في جزيرة العرب. ترامى إلى مسامعنا

كلام حول قافلة تستعد للمغادرة إلى ينبع في القريب العاجل، لكن لم تُعرف تفاصيل عنها. قدّم كل من استشرنا نصيحة مختلفة عن الآخر. سخر البعض من مخاوفي مؤكدين أنه من غير المتصور أن يُحال بيننا وبين أداء فريضة الحج، فهناك حدّ لا يتجاوزه البدو في تجاسرهم. نصحنا آخرون بالتبكير في الرحيل والوقت ما زال أمامنا.

ثم وقعت أحداث كان لها تأثير على التعجيل بقرارنا. في أحد الأيام عاد مسعودي إلى المنزل في ساعة الغذاء يحمل أخبارًا غير مواتية. كان يقف في المسجد قبيل صلاة الظهر حين شعر بيد توضع على كتفه. التفت ليجد نفسه وجهًا لوجه مع خمسة من السواحليين القادمين من مومباسا. كان الخمسة يعرفونه عن كثب، ومما زاد الطين بلّة أن اثنين منهما يعرفاني حيث تردَّدا على منزلي في مومباسا غير مرة في عمل يتعلق بشراء أراضٍ. انهالت بطبيعة الحال السلامات والأسئلة على مسعودي من على شاكلة: متى وصلت هنا؟ ومع من تمكث؟ وكيف صارت أموره في إنجلترا؟ وأين تركني؟

أظهر مسعودي سرعة بديهة وحضورًا ذهنيًّا فأجاب أنه تركني في إنجلترا. ولأنه أفلح في ادخار بعض الأموال فقد رأى أنه لن يحظى بفرصة أفضل من تلك لأداء فريضة الحج. حين وصل مصر حصل على عمل كخادم لدى بعض الحجاج المصريين الموسرين، وهو يقيم معهم. في مقابل هذه المعلومات أخبره السواحليون أنهم قدموا من ينبع منذ يومين، وأنهم يقيمون طرف مطوع زنجبار الذي لا يروق لهم، لا هو ولا منزله.

خرجوا من الصلاة زمرة. ترك مسعودي مسبحته عمدًا في المسجد. سألوه عن المكان الذي ينزل فيه فأبلغهم أنه سيريهم إياه. في منتصف الطريق تذكر

مسعودي فجأة المسبحة، فهرع عائدًا للبحث عنها. توارى في الزحام بسرعة خاطفة، وسلك طريقًا ملتفًا للعودة إلى المنزل.

في البداية لم أجنح إلى تعليق أهمية كبيرة على كل هذا. غلب عليّ الظن بأنهم لن يُفلحوا في التعرف على حقيقتي إذا تقابلنا صدفة في الطريق أو المسجد. يتعين عليّ بطبيعة الحال الحرص في المستقبل فلا أظهر برفقة مسعودي مطلقًا، كما يجب عليه ألا يُحضرهم للمنزل بأي شكل وتحت أي ظرف. أدركت بالرغم من ذلك أن بعض التهديدات تحدق بنا، فلا يمكننا بأي حال شد الرحال إلى مكة في نفس القافلة مع هؤلاء الرجال. تبنى عبد الواحد رأيًا خطيرًا حين صرح بأن حياتنا غدت محفوفة بالخطر. لقد ظل معارضًا بشدة طوال الرحلة لاصطحاب مسعودي معنا من أجل هذا السبب.

دق الحظ السعيد بابَنا ذاك المساء، حيث أعلن منادي البلدة أن القافلة المتجهة إلى ينبع سوف تُبحر بعد الغد. قررنا أن نستغل هذه الفرصة. لقد جاءنا الفرج، فخرجنا من الطريق المسدود بحلّ يوافق أهواءنا جميعًا.

أمضينا اليوم التالي في الاستعدادات. رتب عبد الواحد ثلاثة جمال على إحداها هودج بينما خُصص الآخران لحمل المتاع. ابتعنا الطعام الذي نحتاج إليه: أرز وتمور وخبز مقدد. رتبنا لاصطحاب "جافا"، الطاهي الفارسي معنا، ونسيبه، إبراهيم، للقيام على خدمتنا بشكل عام، وهو فارسي أيضًا. صرفت شيكًا بمائة جنيه إسترليني لأدفع منه الإيجار وبعض الفواتير، وابتعت بندقية وخمسين طلقة ذخيرة. بحلول الظهيرة كان كل شيء قد أصبح جاهزًا. استدعينا الشيالين ليحملوا متاعنا إلى حيث مكان القافلة. وبمجرد أن رأى أول من وصل من الحمالين غرفتنا حتى أخذ في الصراخ وهو ينطلق عدْوًا على الدرج ثم إلى الشارع. استغربنا من تصرفه هذا فأسرعنا إلى النافذة نزعق عليه ليخبرنا عن علة الأمر. ردّ علينا أنه لم يأت لحمل جثة

إلى المقابر. حدّقنا في بعضنا البعض من فرط الدهشة. نظرنا في الحجرة فتجلى لنا حل اللغز. لقد بدَت خيمتنا المطوية والموضوعة على صناديق الأمتعة تمامًا مثل جثة ملفوفة مُجهزة للدفن. أخبرنا هذه القصة للحمالين الآخرين الذين أتوا تباعًا، فنال ما تنطوي عليه من فكاهة إعجابهم. ليس لدي شك أن هذا الشيال الهارب سيمضي بقية عمره يُعيِّر بهذا الموضوع.

نقلنا متاعنا الثقيل إلى الميدان الكبير حيث تنتظر القافلة. كان من المتعيّن أن نمضي ليلتنا هناك أيضًا. تركنا مسعودي بجوار أغراضنا، وانطلقت أنا وعبد الواحد إلى الحرم لنقوم بزيارة الوداع. يتم تكرار نفس الأدعية السابقة أمام القبر، لكنها تُعد مناسبة مواتية لصلاة النافلة، وما لها من ثواب جمّ كما أكد البعض لنا. كان حمزة هو من رافقنا خلال هذه الزيارة. حين هممنا بالخروج ناولناه خمسة دولارات نالت رضاه تمامًا. سار معنا حمزة وهو يودّعنا بالأمنيات الطيبة والدعاء لنا بالسلامة. قال إنه يأمل أن ننزل طرفه إذا قُدر لنا العودة مرةً أخرى. هنأت نفسي حين غادرنا المسجد للمرة الأخيرة على ترك المدينة سالمين بأي حال من الأحوال. كانت هذه التهنئة سابقة لأوانها كما هو الحال دائمًا مع من يتعجلون الأحداث.

ساد الظلام ربوع المكان، لكن بعض الحوانيت ظلت مفتوحة. عَنّ لي بغتة في طريقنا إلى المخيم ابتياع الشيكولاته. طلبت من عبد الواحد الانتظار لدقيقة، وعدت أدراجي قاصدًا أحد الحوانيت التي شاهدت بها الشيكولاته. وجدت مُطَوِّفَيْن يقفان أمام الدكان. حين بلغت المحل علّق أحدهما قائلًا: "أترى... ها هو." بدا جليًّا أني لُبّ حديثهما، بغضّ النظر عن موضوعه. سمعتهما يتشاوران همسًا بينما كنت ابتاع الشيكولاته. عندما استدرت لأذهب لحال سبيلي تقدَّما نحوي. قال أحدهما: "أنت... انظر هنا. من أي دولة قدمت؟ نعرف أنك لست من بغداد! لماذا تلفّ الأمر بكل هذا الغموض؟" (إن ترجمتي لكلامهما تنصبّ على المضمون إلى حد ما، لا على نص

الكلمات.) أجبتهما: "ما علاقتي بهذا الأمر بحق الجحيم؟" أجابا: "علاقة كبيرة. لكل منا حق في إقليم بعينه، ونريد أن نعرف إلى أيّ الأقطار تنتمي؟" طلبت منهما أن يخرجاني من حسبتهما. مشيت مبتعدًا فتبعاني، ثم أمسك أحدهما بذراعي فنفضت يده عني بقوة وأنا أسبّه بأمه. أما هو فقد رمى جدودي عن بَكرة أبيهم بالكفر، وبأنهم مدمنين (ثم ذكر رذيلة محددة). بالرغم من أن الجزء الأول من الاتهام كان صحيحًا تمامًا، إلا أن الغضب بدأ يتملكني. بدا أن عراكًا سوف ينشب وشيكًا، وأن كلانا سيسحب سلاحه. حين شاهد الرجلان مسدسي الأوتوماتيكي الساقية من طراز "كولت"،[1] سارعا بأخذ ساتر؛ ربما لوعيهما من تجربة سابقة أو ما شابه بعواقب هذا السلاح. في هذه اللحظة ساقت العناية الإلهية مالك العقار، أمان، فظهر على الطريق برفقة صديقين. تدخل الرجل على الفور. تجمع الناس في وقت وجيز، وتلاشى وسط الزحام السبب الرئيسي للشجار. في النهاية انهال علينا الوعظ حول ذمّ العراك في الطرقات، ومغبّة أن تأتي دورية المغفر فتجدنا على هذا الحال.

بعد أن هدأنا لفترة تخلينا دون أسى عن قناعاتنا. أدرك الرجلان جيدًا أنهما مخطئان، وأن المعلومات التي يسعيان وراءها لا تعوض الضرب والحبس، دع جانبًا احتمالية الإصابة بالرصاص المتفجر عيار 450 من البوصة خلال الصراع. لذلك توقفنا عن الصياح في وجوه بعضنا البعض.

[1] Colt.

سألني أمان في طريقنا للميدان عن سبب هذا العراك. أخبرته بما حدث، لكن الحيرة ارتسمت على وجهه. لا شك أنه بعد مرور كل هذا الوقت قد تولد لديه هاجس فيما يتعلق بحقيقة الموضوع.

وصلنا إلى مكان أغراضنا فودعنا أمان وابنه إبراهيم. كنت قد أعطيت مسعودي ساعة فضية ليقدمها لإبراهيم الذي سُرّ بها كثيرًا. أعتقد أنهما شعرا بالأسى لفراقنا. قال أمان كلامًا طيبًا، وأعرب عن أمله في أن يحالفه الحظ فيحظى بمستأجرين مثلنا.

تحلل مسعودي الآن من نوبة حراسته، فهرول إلى الحرم ليقوم بزيارة الوداع. عندما عاد تناولنا معًا وجبة بسيطة، وخلدنا إلى النوم بقدر ما تيسر لنا ذلك.

أصبح الميدان الآن يعجّ بالأمتعة والجمال والهوادج وتجهيزات أخرى خاصة بالقافلة. ضاق علينا الميدان، وتعذر عليّ تصور كيف سننهض في الصباح؟ بدا لي أن تنظيم هذا الأمر قد يحتاج عدة أيام.

أمضينا ليلة باردة وغير مريحة بالمرة. قرابة الواحدة صباحًا انهار الهودج الذي كنت أنام فيه، أو قل أحاول النوم فيه. هذا الهودج الذي يوضع على ظهر الجمال هو عبارة عن هيكلين خشبيين مغطيين بالخيش أو قماش القنب.[1] يجلس أو يتمدد راكبان داخل الهودج موزعين على الجانبين، بينما توضع أغراضهما في الوسط بينهما. إن رجرجة هذه التجهيزات عندما يتحرك الجمل بتثاقل فوق الأرض الوعرة هو أشبه بقارب طوربيد في عين العاصفة. من الضروري أن يكون الراكبان في نفس الحجم تقريبًا، وأن يدلفا ويخرجا من الهودج في نفس اللحظة تمامًا، وإلا انقلب كل شيء. إذا تعثر الجمل أو برك بغتةً أو جثا على ركبتيه فإن الراكبين يغادران ومعهما متعلقاتهما في حركات أشبه بالعرض البهلواني. يحدث كثيرًا أن يرى الناظر مشهدًا

[1] القماش المستخدم في اللوحات الزيتية Canvas . (المترجمان)

مثيرًا وغريبًا حين يجلس في الهودج ضابط تركي سمين ومعه زوجته وثلاثة أطفال وكلهم في لبس الإحرام. تشمل التجهيزات الأخرى للسفر على ظهور الجمال محفّة معلقة على قائمين ممتدين بين جملين من الأمام للخلف.

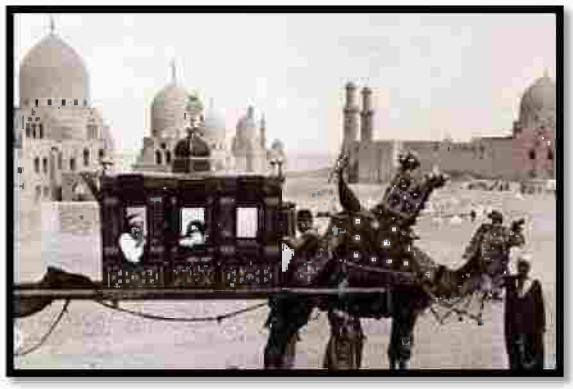

هناك إحدى التجهيزات الأخرى تُشبه صينية الشاي مربوطة بالحبال على ظهر الجمل.[1] تُخصص الأولى غالبًا للنساء الموسرات، ويُقال إنها مريحة جدًّا، أما الأخيرة فيلجأ إليها الذين لا يُطيقون تحمل تكلفة الهودج. يجلس العديد من المسافرين فوق أمتعتهم، وهذه في الحقيقة أكثرها راحة. يمتطي البعض جمال مناسبة للركوب ومزودة بسروج، لكن ميزتها الحقيقة تتلاشى مع سير القافلة البطيء للغاية.

توضع الأمتعة على جانبي الجمل بشكل يسمح بتوزيع الأحمال بالتساوي. تُلفّ الصناديق في أغطية من الخيش تُخاط حولها. تُربط هذه الصناديق معًا بالحبال بحيث يصبح من المستحيل الوصول إلى ما فيها إلا في نهاية الرحلة.

استيقظنا في الصباح على هدير تدريب المدفعية. اعتدنا هذا الصوت لدرجة أننا لم نعد نشعر به. في البداية عمّ المكان هرج ومرج بطبيعة الحال، لكن تم تحميل الجمال في وقت قياسي، ومن ثم فقد شرعنا في مغادرة المدينة عبر البوابة الشمالية، وتوقفنا خارجها حتى يتم تنظيم خط المسير.

---

[1] تُشبه وسادة بمسندين. (المترجمان)

تعود ملكية الجمال إلى الأعراب الذين يتكسبون عيشهم على تأجيرها والأخذ بنواصيها على الطرق. توجد رابطة تجمعهم تُشرف عليها الحكومة، كما يوجد تعريفة ثابتة للرسوم يتم الاتفاق عليها سنويًّا، ولا يمكن زيادتها إلا في الحالات الاستثنائية. يوجد في كل بلدة شيوخ مسئولون أمام السلطات المحلية عن توريد عدد معيّن من الجمال ومن يسوسهم من الرجال. يُصدر هؤلاء الشيوخ تذاكر للحجاج يتم جمعها منهم في نهاية الرحلة؛ للاحتجاج بها كدليل على سلامة الوصول. من خلال نفس الخطوات يتم الإبلاغ عن الجمال الرديئة أو السلوك السيئ من جانب الرعاة. تعكس هذه الترتيبات - التي ساعدت كثيرًا في تقليل الانتهاكات - جدارة الإدارة التركية. بالرغم من ذلك لم تؤت هذه الإجراءات ثمارها هذا العام تحديدًا؛ نتيجة للفوضى التي تسببت فيها الاضطرابات الجارية.

تتَّسِم القوافل الكبيرة التي تنطلق في السنوات العادية بالنظام، خاصة القافلة التي تنقل المَحَامِل إلى مكة. يرافق هذه القوافل - محلّ الذِّكر - حراسة كبيرة مدججة بالسلاح، فضلًا عن العيون التي تنتشر نهارًا، ونقاط التفتيش والتأمين الخارجية ليلًا. يُقام سوق لا بأس به مساء كل يوم وسط المخيم يباع فيه الطعام والحطب طبقًا لتسعيرة مُتفق عليها. في هذا المكان يفض القاضي النزاعات، وينظر في أمر محاكمة ومعاقبة المجرمين. إذا كان لدى أي حاجّ شكوى من أحد قائدي الجمال فسيجد آذانًا صاغية. يتم عمل وقفات لأداء الصلاة، ثم تنطلق الأبواق منبهة إلى استئناف المسير. تجرى الأمور كافّة بدقة متناهية كما في الجيش. تُعتبر هذه القوافل باهظة الثمن، فقد تصل تكلفتها إلى عشرين أو حتى ثلاثين جنيهًا للراكب الواحد، لذا لا يقدر عليها إلا الطبقة الموسرة من الحجاج.

مثّلت قافلتُنا تبايُنًا مع ما سبق، فغالبية المسافرين - إن لم يكن كلهم - فقراء. يُعزى السبب في هذا إلى قلة عدد الحجاج الواردين من المدينة هذا العام، علاوةً على

أن هؤلاء الحجاج اضطروا إلى السفر عبر دمشق عوضًا عن ينبع. يُعدّ طريق ينبع بشكل خاص الأسوأ والأخطر في الحجاز بالنسبة للرحلات التي تسلكه، لكنه يتمتع بميزة الرخص، ولا يقتضي السير على دروبه ارتداء ملابس الإحرام، وهو أمر ضروري إذا قصدت مكة من المدينة مباشرة. لم يكن لدينا حراس أو ترتيبات شرطية من أي نوع. لم نحظ أيضًا بسوق؛ حيث يتعين على كل راكب أن يدبر مؤنه ومياهه بنفسه. بلغ إجمالي عدد الجمال في القافلة حوالي خمسة آلاف تخضع كلها لقيادة شيخ أعرابي يعمل تحت إمرته عشرون رجلًا يمتطون جمالًا سريعة الحركة. في المتوسِّط يحمل واحد من كل ثلاثة من سائسي الجمال البنادق والسيوف، أما غالبية الحجاج فيحتفظون بشتى أنواع الأسلحة.

الفصل الخامس

من المدينة إلى ينبع

وصلنا أخيرًا في حوالي الساعة العاشرة بعد أن فتشَنا ضابطٌ تركيٌّ ووقّع على تذاكرنا. رافقنا والد إبراهيم - الذي سافر على هذا الطريق عدة مرات من قبل - حتى البوابة، وأسدى لنا النصح عندما ودّعنا. أوصانا أن نكون جدّ حذرين مع سائسي الجمال، وألّا نُجبر على دفع المزيد من النقود لهم، أكثر مما دفعناه بالفعل، وألا نترك القافلة لأي سبب كان خلال مسيرنا أو نقترب من أطرافها بالليل. كما أوصانا أن نضع كل أمتعتنا داخل الخيمة، وننام بعين مفتوحة، ونضع أسلحتنا بجوارنا.

وجدنا أنفسنا بالقرب من أول القافلة تقريبًا؛ حيث كان أمامنا أقل من اثني عشر جملًا، أما في الخلف فقد كانت الجمال تمتدّ لعدة أميال. كنا قد سرنا لمدة ساعة كاملة قبل أن يغادر الجزء الأخير من القافلة المدينة. جلس مسعودي وعبد الواحد في المحفة، بينما ركبت أنا أفضل الإبل التي كانت تحمل الأمتعة - الجمل الذي كان يحمل أقل الأحمال وزنًا. تناوب إبراهيم وجافا في ركوب الجمل الآخر. كان سائس الجمل الخاص بنا يدعى "سعد"، وهو بدويّ ذو شعر أجعد، ويكسو بشرته السواد من كثرة تعرضه للشمس والهواء. كانت ملامحه ذات طابعٍ ساميّ بَحْت لا يشوبه أيّ شك في أن له أي أصولًا أفريقية، ولكن ملابسه كانت تعطي انطباعًا أنه سائس أفريقي من أصل هولندي. في المدينة، كان مهذبًا للغاية وراح يُمَنّينا بالوعود التي سيقدمها لنا خلال الرحلة، ولكن سرعان ما تغير هذا الأمر بمجرد مغادرتنا للمدينة.

أُجبرت القافلة الأخيرة التي سافرت من "ينبع" إلى المدينة على الدوران حول المدينة لتتجنب مجموعةً من قطاع الطرق كانوا قد تربصوا بهم في الطريق لنهبهم وسلب أمتعتهم. لا بد أنّ هذا الأمر كان سيئًا للغاية بالنسبة للحجاج تعساء الحظ الذين

اضطروا إلى السير لمدة ثمان ساعات على أراض وعرة للغاية، فالطريق نفسه وعر جدًّا بكل ما تحويه الكلمة من معانٍ. كان الأمل يحدونا ألا نُضطر لهذا الأمر، ولكننا أُخبرنا أن احتمال تعرضنا لمثل ذلك هو أمر قائم بأي حال من الأحوال. بعد أن قطعنا مسافة حوالي ثلاثة أميال من المدينة اتجهنا غربًا، وعبرنا خط السكة الحديدية، ومن ذلك المكان بدأنا نصعد ببطء. اجتزنا أراضي الأعداء بدون مضايقة تُذكر، ولم تصوب أي طلقة في اتجاهنا، على الرغم من أن القذائف كانت تنفجر على مسافة أقل من نصف ميل على يسارنا. دخلنا منطقة الهضاب بحلول الساعة الثالثة عصرًا، وعندئذ توارت المدينة عن الأنظار. بعد مرور ساعة أخرى اقتنصنا نظرة وداع أخرى للقبة ومآذن الحرم التي كانت تظهر من خلال شقّ بين الهضاب.

تابعنا المسير ببطء وبخطى ثابتة، كان الطريق يزداد وعورة وصلابة مع كل خطوة إلى الأمام. في بعض الأوقات كنا نترجل ونسير لبعض الوقت حتى نمدد أرجلنا ونرتاح من رتابة الحركة المجهدة للإبل. بحلول الغروب، عندما توقفنا لمدة خمس دقائق لنصلي المغرب، كنا قد صعدنا حوالي مسافة ألف قدم، وعندما حل الظلام أصبح الصقيع قارسًا، وهبت رياح شديدة أصابتنا بالقشعريرة من شدة البرد الذي تغلغل إلى عظامنا. عندما واصلنا الصعود واجهنا ما هو أشبه بالجرف. لحسن الحظ كان القمر منيرًا، وهو الأمر الذي جنّبنا العديد من الحوادث.

بدأ الحجاج الذين كانوا هادئين طوال اليوم في الحفاظ على روحهم المعنوية عن طريق الغناء والصياح وإطلاق النيران في الهواء. عندما انخرطوا في فعل ذلك ظننت أننا نتعرض للهجوم لا محالة، ولكن يبدو أن هذه طريقة شائعة لتمضية الوقت. طوال الطريق إلى "ينبع" كانت هناك موجة من الطلقات. يقول بعض الناس إن السبب في إطلاقها هو تخويف قطاع الطرق من البدو من خلال إعلامهم أن الحجاج مسلحون. لطالما كنت أعتقد أن مثل هذه الطلقات قد تُعرّض من يطلقها للهجوم.

بحلول الساعة الحادية عشرة، كان معظم الحجاج قد أعياهم التعب، وكانوا يتضورون من شدة الجوع، وعند منتصف الليل لم يستطيعوا حتى مواصلة ما كانوا يفعلونه. بدأت أتساءل: ما إذا كنا سنتوقف أبدًا. كنا قد أمضينا أربع عشرة ساعة متصلة في المسير، ولم نأكل أي شيء منذ الصباح؛ باستثناء بضع تمرات اضطررنا إلى ابتلاعها قدر المستطاع ونحن على ظهر الجمل، وهو أمر ليس باليسير، ويمكنه أن يعرّض المرء للإصابة بعسر هضم حادّ.

في تمام الساعة الثانية عشرة والنصف ترامى إلى أسماعنا خبرٌ أسعدنا، وهو أن الشيخ المسئول عن القافلة قد هرول إلى الأمام ليختار مكانًا لنخيم فيه. وبعد بضع دقائق توقفت الجمال التي في المقدمة وتوقّفنا تمامًا في وادٍ رحيب بين الهضاب المرتفعة. تشكَّل المعسكر بطريقة بسيطة جدًّا، فقد كونت الإبل التي في الصدارة والتي أناخت إلى الأسفل نقطة تمركز تجمّع حولها بقية الإبل التي تصل، وبهذا كونت القافلة معسكرًا دائريّ الشكل تقريبًا ومكتظًّا في أصغر بقعة ممكنة من الأرض.

كان المشهد مكسوًّا بالارتباك والحيوية، فقد تبدّل هرج ومرج حقيقيان، وصوت نخر الجمال وهي تناخ، وصرخات وإلقاء الأوامر بالعديد من اللغات، والأصوات المختلطة والضحكات - في دقيقة واحدة، بالظلام الدامس والصمت المطبق الذي خيم على القافلة في الساعة الأخيرة، والذي كان يقطعه فقط صوت الصراخ والعويل الصاخب لسائسي الجمال.

فجأة أشعلت العديد من النيران وكأنها ظهرت بفعل السحر وأضاءت المشهد. شغل الجميع أنفسهم بأمر هامّ جدًّا، وهو إعداد الطعام الذي كان الجميع في أمسّ الحاجة إليه. بالنسبة لي، كانت أطرافي مُخدرة من شدة البرد حتى أنني لم أكن قادرًا على الوقوف. لحسن الحظ أننا أحضرنا معنا كمية جيدة من الأخشاب، وسرعان ما أشعلنا النار. لقد برهن الخادمان ومسعودي على كونهم بارعين في تجهيز الأشياء

بسرعة، ونصبوا خيمتنا، بينما جهز عبد الواحد مستلزمات إعداد الشاي، ووضع البراد على النار. أما سعد - سائس الجمل - والاثنان الآخران الذين يمثلون مجموعة من المصريين، فقد جمعوا جمالهم في حلقة، وكانت رؤوسهم متجهه للداخل، وجلسوا في ظهر بعضهم البعض في المنتصف؛ بينما كانوا يطعمون إبلهم التبن المقسم في شكل حزم. حصل كل جمل على نصيبه بالكاد؛ دون أدنى زيادة، وقد بدت جميع الجمال غير راضية عن هذا الكمّ على حدّ سواء، كما بدا عليهم الاستياء من جلّ إجراءات الرحلة.

اعترتني الدهشة من عدم اكتراث سائسي الجمال البدو من البرد، فقد كانوا يرتدون ملابسَ قطنية خفيفة، ولم تكن لديهم أدنى رغبة في الاقتراب من النار للتدفئة، ولكنهم جلسوا حول إبلهم وأخذوا يضحكون ويتحدثون. من الجليّ أنهم لم يكونوا جائعين أو ظمآنين، ولم يبدُ عليهم الإعياء أو الشعور بالبرد؛ على الرغم من أنهم ساروا لمدة أربع عشرة ساعة وكانت درجة الحرارة تقترب من الصفر، ولم يكونوا قد تناولوا أي طعام طوال اليوم. لا عجب إذًا أنهم رحّالة جيدون، فلا يستطع أي جندي متحضر أن يتحمل مثل هذه الظروف لمدة طويلة.

بينما كنت أحاول تدفئة نفسي، تعثّر بي رجل وكاد يوقعني في النار. عندما استدرت إليه هالني ما رأيت. فقد رأيت شخصًا ملطخًا بالدماء من رأسه حتى أخمص قدميه بسبب جرح بليغ في رأسه؛ من الواضح أنه قطع بالسيف. طلب مني أن أحضر له ماءً، فدخلت إلى الخيمة لأحضره، ولكنني لم أجده عندما أحضرت الماء. علمنا أن ستة رجال على الأقل قد لقوا حتفهم تلك الليلة وأصيب العديد، وقد استمر هذا الأمر حتى وصولنا "ينبع". لقد كان هؤلاء التعساء في الغالب من أولئك الذين لم يستطيعوا تكبد نفقات استئجار الجمال، لذا فقد اضطروا إلى السفر سيرًا على الأقدام. عندما كان هؤلاء المشاة يبتعدون عن الطريق الرئيسي ليبحثوا عن الحطب، كانوا يقعون فريسة

للّصوص القابعين على جانبي الطريق، والذين يتصيدون أي فرصة لنهب أولئك الشاردين وسلب أمتعتهم، وكذلك قتل من يحاول المقاومة منهم دون تردّد.

في خلال ربع ساعة من وصولنا كنا نحتسي الشاي في خيمتنا، وكانت أسرّتنا جاهزة ومعدّة، وبدأنا نشعر بالدفء والراحة مرةً أخرى. وفي خلال ساعةٍ أخرى أعدّ الطاهي جافا لنا الأرز واللحم، وصار الطعام جاهزًا. لم آكل قط بشهية أفضل أو أستمتع بطعام العشاء بمثل هذه الطريقة من قبل على الإطلاق. ومع ذلك فلم يكن لدينا وقت لنضيعه حتى نستطيع أن ننعم بقسط من النوم، فقد تواترت الأخبار التي تؤكد أننا سنواصل المسير في الفجر مرةً أخرى، وكانت الساعة بعد الثانية صباحًا عندما انتهينا.

ما إن أوينا إلى الفراش حتى أعلن النشاط الصاخب حولنا أن الوقت قد حان للنهوض. كانت السماء لا تزال مظلمة وكان الجوّ باردًا أكثر من أي وقت مضى، كما كانت الرياح تهب بشدة. كان القمر قد أفل بينما كانت النجوم - حسب ما أعتقد - أكثر لمعانًا من ذي قبل. بينما كنا نحزم أمتعتنا، حدثت مشادّة مع سعد - سائس الجمل - الذي عنّف عبد الواحد بشدة لأنه لم يكن سريعًا في حزم أمتعته كما أراد الأول. لم يتفوه عبد الواحد هذه المرة بِبِنْتِ شَفَة، ولكن ما إن بدأنا نحن في تقريع سعد حتى احتجّ عليه بحدّة. استمرّ النقاش لعدة ساعات حتى وافق سعد في النهاية أن يهدأ. كنت أركب أنا الآن في المحفة مع مسعودي، بينما كان عبد الواحد يأخذ دوره على الجمل الآخر. اجتزنا نفس البلدة الوعرة، واتجهنا لأعلى تدريجيًا. في تمام الساعة العاشرة صباحًا أصبح الجو أكثر دفئًا، وعند منتصف النهار كان الجو شديد الحرارة. عندما بدأنا في المسير التحفنا بالكثير من الملابس، لدرجة أننا كنا نركب المحفة بصعوبة بالغة، ولكن بعد الظهر كان القميص وحده كافيًا. إن أحد مساوئ السفر بهذه الطريقة هو أن المرء إذا اضطر أن ينزل من على ظهر الجمل لأي سبب فمن المستحيل أن

يوقف الإبل، وإنما يضطر إلى ركوب الجمل مرة أخرى وهو يتحرك. إن ركوب المحفة ليس بالأمر اليسير في أي وقت ولكن عندما يكون الجمل سائرًا، يتطلب هذا الأمر مهارات بهلوانية لا أتمتع أنا بأي منها. الطريقة الوحيدة لركوب الجمل في هذه الحالة هي جعل الجمل يخفض رأسه ووضع أحد القدمين عليها ثم التسلق على رقبته والاندفاع نحو المكان الخاص بك. إذا لم يكن الرفيق الآخر يتمتع بالذكاء الكافي ليجلس في مكانه في نفس اللحظة، يكون وقوع كارثة أمرًا محقّقًا. أما عندما يكون المرء وحده في المحفة، فيجب عليه أن يربض على ظهر الجمل ولا يميل إلى أي جانب وإلا سينقلب الجمل بما حمل!

بعد الظهيرة عاد سعد إلى طبيعته الهادئة، وأمتعنا برواياته عن حياة سائسي الجمال. أخبرنا أنه منذ نعومة أظفاره عندما أصبح قادرًا على المشي لم يفعل شيئًا آخر في حياته عدا السفر ذهابًا وإيابًا في مثل هذه الرحلات المضنية على هذا الطريق. لقد كان سعد أميًّا لا يجيد القراءة ولا الكتابة، وبدا جاهلًا حتى بمبادئ الدين الإسلامي. لم أر أيًّا من هؤلاء البدو يصلّون قط، ولا أعتقد أن الكثيرين منهم يعرفون حقًّا كيف يؤدون الصلاة. كان سعد لديه أفكار غريبة عن العالم الخارجي، فقد فوجئ تمامًا عندما علم أن هناك مدنًا أكبر من "المدينة المنورة"، كما كان متحمسًا لوصف عبد الواحد لمدينة برلين وباريس، على الرغم من أني كنت واثقًا أن سعدًا كان يعتبر عبد الواحد كذّابًا أشرًا. بدا جليًّا أن سعدًا يعتقد أن معظم الأوروبيين من آكلي لحوم البشر. كانت لغته العربية فصحى جزلة تقترب من فصاحة لغة القرآن، كما كان نطقه ومخارج حروفه صحيحة، وهو الأمر الذي عجزت أنا وعبد الواحد عن محاكاته.

واصلنا المسير حتى الساعة التاسعة مساءً، ثم توقفنا لنخيم، وتكرر ما حدث في الليلة الماضية. أُطلقت نيران على القافلة ونحن في الطريق وكذلك عندما خيمنا،

ولكن لم تسقط أي طلقة بالقرب منا. قُتل عدد آخر من الشاردين، وارتكبت عدة سرقات في المخيم وهي حوادث معتادة في مثل هذه الطرق، لذا لم تُثر أي اهتمام.

في اليوم التالي سِرنا من طلوع الشمس حتى غروبها. اجتزنا واديًا واسعًا بين سلسلة من الجبال الوعرة والمرتفعة. كان المشهد العام لهذه البلدة برّيًّا ومُقفرًا بطريقة تفوق الوصف، فلم يكن هناك أي أثر لأية نباتات خضراء. اتخذت الصخور أشكالًا غريبة ورائعة بسبب التغييرات الكبيرة في الطقس الذي يتغير من الحر الشديد إلى البرد القارس؛ مما يتسبب في تفتت تلك الصخور في كل الاتجاهات. في الناحية الجنوبية رأيت سلسلة من الجبال تعلوها قمة يبدو أنها تصل إلى خط الثلج. توارت تلك القمة بين السحب بينما كانت تكتنفها أجراف يبلغ ارتفاعها ألفي قدم على الأقل. في تلك المنطقة كان أمامنا أرض منحدرة تشكل جدارًا وعرًا من الداخل.

يوجد هنا على الأقل مجالًا ثريًّا للرحالة، فلا تزال أراضي شبه الجزيرة العربية منطقة مجهولة حتى من الناحية الجغرافية، أما من ناحية التركيب الجيولوجي، وحيوانات ونباتات الإقليم، والجوانب الفيزيائية فنكاد لا نعلم أي شيء عنها. في الحقيقة، استكشف الكثير من الرحالة الغربيين جزءًا كبيرًا من شمال شبه الجزيرة العربية في عصور مختلفة، ويمكننا من خلال تجميع رواياتهم أن نكّون فكرة جيدة عن الدولة، وكذلك نرسم خريطة تقريبية لها. على الرغم من ذلك فإن العلم الحديث يتطلب أكثر من هذا من الرحّالة الذي يتعين عليه أن يحمل عددًا من الأجهزة ويستخدمها حتى يلبي متطلبات العصر، وهذا أمر لم يستطع أي من المستكشفين للأراضي العربية فعله؛ لأنهم كانوا يتنقلون بسرعة من مكان لآخر وهم متنكرون. لقد عاش تشارلز داوتي[1] مع البدو من عام 1875 حتى 1877 في هذه المنطقة من

[1] تشارلز داوتيCharles Doughty ، شاعر ورحالة إنجليزي توجه مع قافلة للحج إلى الحجاز في عام 1878، من أهم أعماله كتاب الترحال في صحاري العرب (Travels in Arabia Deserta) الذي كتبه عام 1888، وهو عبارة عن قصته عندما جاء عام 1876م، ومكث عدة سنوات جال من خلالها أجزاء من الجزيرة العربية. (المترجمان)

الجزيرة العربية، وتجول في العديد من المناطق بصحبتهم. إن ما جعله يستطيع فعل ذلك هو أنه لم يأخذ معه أي شيء يمكن سرقته، ولذا فعلى الرغم من أن رحلته كانت مثيرة للاهتمام من جوانب أخرى إلا أنها لم تؤتِ ثمارها من ناحية التوصل إلى معلومات محددة ومدونة بدقة، وهذه هي المعلومات التي تعدّ ذات قيمة حقيقية للعلوم الفيزيائية. ليس الهدف من ذكر هذه الملاحظة هو التقليل من شأن أحد أهم الإنجازات في تاريخ الرحالة، بل الإشارة إلى الصعوبات التي يواجهها الرحالة الذين يستكشفون الجزيرة العربية. إذا ترك الرحالة أدواته بالمنزل فقد يعود خالي الوفاض، وإذا أخذ أدواته معه فربما لا يعود على الإطلاق، هذا إذا تمكن من البدء أصلًا!

إن ما جعل رحلة داوتي مميزة حقًّا هو أنه لم يُخفِ حقيقة ديانته وجنسيته عندما سافر إلى الجزيرة العربية، وهناك أمور أخرى كثيرة هامّة في هذه الرحلة عدا هذا الأمر. لم يكن البدو متعصبين فيما يتعلق بهذه النقاط، كما أن داوتي لم يحاول دخول الأماكن المقدسة. إن كون الشخص الأجنبي مسيحيًّا يعتبر عذرًا جيدًا لضربه على الرأس، وإذا لم يفلح هذا السبب فسرعان ما سيتم التفكير في سبب آخر إذا أرادوا فعل ذلك، أما إذا لم يريدوا فعل هذا الأمر فلن يتأثروا بكونه مسيحيًّا. ربما يجدر بي أن أذكّر القراء مرةً أخرى أننا نتحدث عن العرب الأصليين في صحراء شبه الجزيرة العربية لأن هذه الملاحظات التي ذكرتها آنفًا لا تنطبق على بقية المسلمين في أنحاء أخرى في الشرق.

أخبرنا سعد خلال النهار أنه من المعتاد أن ندفع له "بقشيش" قيمته دولار واحد في اليوم، وطلب منا أن ندفع له بقية المبلغ المتفق عليه. كنت على وشك الردّ على هذا الطلب المستحيل بنفسي، إلا أن عبد الواحد الذي يتمتع بالكياسة والفطنة أسكتني ثم بادر بالردّ، وأخبره أننا ليس معنا نقود، ولن نستطيع أن ندفع له المال حتى نصل إلى "ينبع" ونصرف شيكًا. بعد ذلك أظهر سعد تذمّره وتظاهر بأنه غير راضٍ

عن الطعام الذي أعطيناه إياه، وهدّدنا أنه سيأخذ جمله، ويتركنا في المحطة التالية. أصبح سعد وقحًا للغاية لدرجة أنني قررت أن أقتله رميًا بالرصاص، وعندما أخبرته بما أنتوي فعله، اقترح أن نتبارز بالسيوف عندما نصل إلى المخيم. عندما سمع الحجاج مشاجرتنا ناشدونا ألا نلجأ إلى العنف، وأخبرونا أنه إذا قتل أحد هؤلاء الرجال فستتجمع بقية أفراد القبيلة للمطالبة بالدية، بل وربما ينهبون القافلة. على الرغم من ذلك، لم يكن باستطاعتنا أن نتحمل مثل هذه المعاملة، وكنت قد عقدت العزم على أن "الشجار" سيكون أمرًا حتميًا إذا استمرت الأمور على هذا النحو. ما أدهشني هو أن سعدًا عاد مرةً أخرى إلى أدبه الجمّ، واستمر على هذا الحال حتى نهاية الرحلة. عندما وصلنا للمخيم ساعدني في النزول من على ظهر الجمل، وأعارني المزيد من الاهتمام؛ مما جعلني في حيرة من أمري. يكمن تفسير هذا التغير الملحوظ في أن إبراهيم الذي يتمتع بوجه بشوش وقدرة سريعة على الكذب أخبره أنني ابن أخت حاكم "ينبع"، وقد نجح هذا الأمر ببراعة نظرًا للإجلال والتعظيم الذي كان الآخرون يظهرونه عند تعاملهم معي.

لقد كانت المجموعات الأخرى أقل حظًّا في تعاملاتهم مع أولئك "الهمج" الذين تمكنوا بطرق عديدة من الاستئساد عليهم ونهبهم؛ حتى أنهم انتزعوا منهم أضعاف المبلغ المُتفق عليه منذ البداية، ولم يكفهم ذلك بل كانوا أيضًا يهددونهم دائمًا أنهم سيتركونهم ويرحلون ما لم يعطوهم المزيد من الهدايا. إذا نُفذ هذا التهديد - وهو أمر لا يعدّ نادر الحدوث - فإنه يعني بالطبع أن يفقد المسافر كل أمتعته بالإضافة إلى أنه يضطر إلى السير على الأقدام بقية الطريق، فالبقاء في نفس المكان الذي توقفت فيه القافلة بعد رحيلها قد يودي بالحياة. إن مجموعة المصريين الذين تحدثت عنهم من قبل طُلب منهم دفع كامل الأجرة المُتفق عليها منذ بداية الرحلة، وبعد ذلك كانوا يُطالبون بدفع البقشيش، وتعرّضوا للعديد من المضايقات حتى استسلموا للابتزاز. في

النهاية عندما سمعوا عن مركزي الرفيع جاءوا يشتكون لي، فأحضرت الوغدين وعنّفتهم، ثم هددتهم برفع الأمر برمّته إلى "عمي". كم كنت أتمنى أن آمر بقطع رقابهم في الحال، ولكنني شعرت أن هذا سيكون تماديًا في المزحة. لقد كان تعامل سائسي الجمال سيئًا مع الحجاج الذين ينتمون إلى أصول عربية، ولكنه كان أسوأ من ذلك بكثير مع أولئك الذين ينتمون إلى أصول أخرى خاصةً من لا يعرف العربية منهم. كان الهنود على وجه الخصوص ذوي عزيمة ساقطة لا تقوى على الانتقام. بالطبع يجابه الهنود بشكل خاصّ مواقف صعبة، فتراهم خائري العزم بصفة عامة وغير قادرين على ردّ الإساءة. يشتبكون أحيانًا بطبيعة الحال مع من هو في بأس "التتار" بالمعنى الحرفي والمجازي للكلمة، وفي أحيانٍ أخرى مع البدو الأقل فظاظة وغطرسة. ولكن الحجاج يعلمون جيدًا النتائج المعتادة؛ لذا فحتى أكثرهم شراسة عادةً ما يؤثر الاستسلام. ذات مرة، رأيت هنديًّا عجوزًا رفض أن يدفع دولارًا كان قد طُلب منه، وأُمطر بوابل من الحجارة حتى سقط من على الجمل. في العديد من المرات كان علينا التدخل نيابةً عن الضعيف ومن بلغوا من الكبر عتيًّا؛ لننقذهم من المعاملة السيئة التي تشبه ما نتعرض له أو الأسوأ منها.

إن مثل هذه الأحوال التي وصفتها آنفًا لن تحدث ولو للحظة واحدة في القوافل المنظمة، وعادةً ما تحدث فقط في هذا الطريق الذي يندر السير فيه إلا من قبل الحجاج الفقراء. أعتقد أن الأوضاع هذا العام كانت سيئة بصورة استثنائية، فغالبًا ما تكون الترتيبات التي تتخذها السلطات فيما يتعلق بالتذاكر وتسجيل الجمال كافية لردع أي بغي فادح.

مررنا بقرية بدوية تتكون من أكواخ مبنية من الطين وعدد قليل من النخيل، وكانت هذه القرية هي أول مكان مأهول بالسكان نراه منذ مغادرتنا للمدينة. كانت هناك بئر صغيرة، لكنها كانت كافية لتلبية احتياجات القافلة كما أُخبرنا بذلك. أما

الجمال فستحصل على المياه من المخيم الذي يلي القادم. كان مسيرنا في اليوم الرابع مشابهًا تمامًا للأيام السابقة، ولكننا الآن عبرنا مستجمع الأمطار، وبدأنا ننحدر بسرعة نحو الساحل. كان الطريق وعرًا في بعض المناطق، ولكن الجِمال أدهشتني برشاقتها في تسلق الصخور والجلاميد. لم أر أي حادث على الرغم من أننا اجتزنا أراضي لم أكن لأهتم بامتطاء حصان عليها. وصلنا إلى المخيم مبكرًا – قبل الغروب بحوالي ساعة، وكانت هذه هي المرة الأولى التي يتاح لي فيها أن أتفحص المخيم في ضوء النهار. اعترتني الدهشة عندما وجدت أننا كنا المجموعة الوحيدة التي لديها خيمة، أو قل أننا الوحيدون الذين نصبوا خيمتهم. كانت هناك بئر كبيرة مثبت عليها رافعة بعمق حوالي مائة قدم، وتُفرغ المياه المسحوبة في تجويفات غريبة على شكل تجاويف مُبطنة بالفخار المجفف في الشمس تشرب منه الجمال. لا أدري كم من الإبل شرب هنا، ولكن بالتأكيد ليس كلهم.

كان هناك صفّ من الأسقف المتداعية التي كونت سوقًا يبيع فيه بعض البدو - الذين يبدو شكلهم كالأوغاد - اللحمَ والسمك المجفف. من المفترض أن هذا المكان يبدو خطيرًا للغاية، وقد وُجهت لنا تحذيرات ألّا نبتعد. كانت أرض المخيم قذرة بصورة يرثى لها، وقد كان هذا الأمر واضحًا في ضوء النهار. أما بقية الأمور فكانت مقبولة، وحيث إننا كنا سنواصل المسير في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي فقد كنا نأمل في النوم لمدة طويلة؛ وهو الأمر الذي استمتعنا به حقًّا!

بدأنا المسير لنجتاز ينبع مباشرة بدون توقف مرة أخرى، وكان السبب الذي سيق لهذا الأمر هو عدم وجود ماء. تحركنا في الساعة العاشرة صباحًا، وسرنا بدون توقف حتى الساعة السادسة من صباح اليوم التالي. ركبت الجمل الإضافي حتى الغروب، وبعدها بدلت مع عبد الواحد، وانتقلت إلى المحفة. في حوالي الساعة الرابعة بعد العصر مررنا بين الهضاب إلى أرضٍ مستوية واسعة جرداء تمتد حتى البحر،

وبعد منتصف الليل بقليل كانت أضواء السفن الراسية في المرساة في طرق ينبع ظاهرة للعيان. وصلنا خارج السور قبيل الفجر، ولكن وفقًا للقوانين المعتادة لم تفتح البوابات إلا عند الشروق، لذا كان علينا الانتظار. كانت هناك قافلة مغادرة إلى المدينة تقف بجوارنا بالخارج؛ استعدادًا للانطلاق مع بزوغ الشمس.

لحسن الحظ كنا بالقرب من مقدمة القافلة، لذا تمكنا من التزاحم عبر البوابة بمجرد أن فُتحت، أما إذا كنا في مؤخرة القافلة فيعني ذلك التأخير لمدة ساعات. نزلنا عبر شارع عريض وتوقفنا عند ميدان مفتوح بالقرب من مركز المدينة. لم نكن متأكدين ما إذا كنا سنستطيع الحصول على مركب بخاري في هذا اليوم، لذا قررنا أن نأخذ غرفة حتى نستريح ونتناول بعض الطعام الذي كنا في أمسّ الحاجة إليه. ذهبت أنا وعبد الواحد نبحث عن غرفة نستأجرها، بينما عمل الآخرون على إنزال الأمتعة من على الجمال. كانت الغرف القليلة الأولى التي رأيناها في حالة مُزرية بصورة لا يمكن وصفها، وبالنسبة للغرفة التي اتفقنا على استئجارها مقابل روبية في اليوم فلم تكن أفضل حالًا بكثير، لكننا كنا مرهقين وجوعى بدرجة كبيرة لذا لم ندقق. كانت هذه الحجرة في الدور الأرضي في منزل يقع على الجانب الآخر من المكان الذي وضعنا به أمتعتنا. أخلى المستأجر السابق الغرفة للتوّ، لذا كانت الأرض مُغطاة بقشر البرتقال والقمامة، كما ارتفع بها التراب لعدة بوصات. في ركن الغرفة؛ كان هناك دخان من بقايا نار الفحم. كانت أشعة الشمس تخترق الغرفة من خلال النافذة التي ليس بها زجاج، وتسلط الضوء على الدمار الذي بالداخل، ومع ذلك فلم تجعل الغرفة أكثر جاذبية. مما يُثير الدهشة أننا جميعًا كان لدينا نفس الانطباع عن المنزل، وكأننا أُصبنا جميعًا بمرض وبائيّ. لقد كان الأمر كذلك بالفعل وغريبًا بالنسبة لنا جميعًا ألّا نجد إقامة ملائمة في مثل هذه الأماكن؛ لأن أي شخص يفتح فندقًا في ينبع أو في جدة يكون واثقًا من جني أرباح هائلة.

تناولنا فطورًا ممتازًا من البيض المسلوق والخبز الساخن، ولكننا عدلنا عن النوم حتى نرتب لعبورنا. نزلنا إلى رصيف الميناء حيث كان يقف العديد من الضباط البحريين. كان هناك ما يقرب من ست سفن من جنسيات مختلفة راسية في المرفأ المفتوح أمام المدينة. كان الضباط مصطفين، وخارج البوابة كان هناك رجل يبدو وكأنه مندوب تسويق؛ يتحدث عن مميزات تلك الباخرة، وعن سعر تذكرتها، وكذلك موعد تحركها. لم تكن هناك خيارات عديدة على ما يبدو؛ لذا فقد اخترنا السفينة التي كان يدعو مندوب التسويق الخاص بها - جلَّ المسلمين المخلصين على وجه البسيطة بجلبة وصخب كبيرين لركوبها. رفعت تلك السفينةُ الرايةَ التركية، وهو الأمر الذي اكتشفنا فيما بعد أنه محض افتراء. كانت السفينة يونانية ذات طراز عتيق، استأجرها اتحاد شركات فارسية لهذا الفصل من العام. لم تكن هناك درجات في السفينة، بل كانت جميع التذاكر موحدة القيمة. كان هذا السعر يختلف بين الفينة والأخرى، حسب المنافسة وعدد الحجاج، فعندما تكون هناك احتمالية للحصول على مجموعة كاملة من الحجاج يرتفع السعر، أما إذا كانت هناك ندرة في الأعداد فإن السعر ينخفض. يهدف أصحاب السفن إلى تكملة عدد ركاب السفينة بأي طريقة. كنا حريصين على المغادرة في ذلك اليوم؛ لذا أخذنا وعدًا قاطعًا من السمسار أن السفينة ستغادر قبل الغروب. في حقيقة الأمر لقد اخترنا وقتًا سيئًا، ولكننا حصلنا على سعر أفضل ممن جاءوا بعدنا من الركاب؛ أي دولارين لكل منّا. أُخبرنا أنه لن يُسمح لأي أحد بالصعود على ظهر الباخرة إلا بعد الظهر، وكان هذا مناسبًا لنا بالفعل. عند رجوعنا للمنزل، أنهينا حساباتنا مع سعد سائس الجمال، وأعطيناه ما تبقى من المبلغ الذي اتفقنا عليه، بالإضافة إلى بقشيش معقول، فبالطبع كان سعد هنا في ينبع تحت رحمتنا. لا أدري ما إذا كان قد اكتشف الخدعة الصغيرة التي حيكت له، ولكنني أكاد أجزم أنه لم يقم برحلة أقلّ ربحًا من رحلتنا طوال حياته البائسة، ومع ذلك فقد تظاهر بأنه راضٍ

ورحل. قبل أن أُنهي حديثي عن هذا الأمر تجدر الإشارة إلى أن الطريق الذي سافرنا خلاله ليس الطريق الوحيد الذي يربط بين ينبع والمدينة، فهناك طريقان آخران على الأقل يستخدمان خلال الأوقات الأخرى من العام، ولكني لم أستطع معرفة أي معلومات محددة عن هذين الطريقين.

وضعنا أمتعتنا على رصيف الميناء مع مسعودي، وذهبنا إلى الأسواق للتبضع والاستزادة من المؤن. ينبع هي أكثر مكان هائر رأيته في حياتي، فالبيوت كلها مائلة، وكذلك مئذنة المسجد الوحيد هناك مائلة بزاوية تذكرني ببرج بيزا المائل. كما أنها أكثر المدن التي وطأتها قدماي اتساخًا، فالأسواق القذرة تعج بجميع أنواع القاذورات، وكذلك الروائح الكريهة المختلفة التي تثير الاشمئزاز، ولكن هناك بعض الحوانيت الجيدة نوعًا ما، والتي تحوي معظم ضروريات الحياة. هناك جدار في الجانب اليابس من المدينة لحمايتها، وكذلك عدد كبير من المرابطين. أما المياه فهي أحد أكبر الصعوبات هنا؛ لأن الإمدادات محدودة، وكذلك الماء آسن، ويقال إنه ضارّ ومؤذٍ للغاية، وهو أمر يمكنني بالفعل تصديقه، وقد أنشئت مؤخرًا محطة لتحلية المياه، وربما تُسهم في تحسين الأمور.

بعد أن أنهينا تسوقنا بحثنا عن مقهى لندخن السجائر ونحتسي بعضًا من القهوة؛ كان أفضل ما وجدناه من المقاهي يماثل ما هو موجود بالمدينة، ولكننا لم نكن في حالة تسمح لنا بالتدقيق. جلسنا حول منضدة صغيرة خارج المقهى، بعد أن استأذنّا من الشيخ البدوي الذي كان جالسًا هناك، لنفعل ذلك وفقًا للآداب والعادات في البلد. طلبنا نرجيلة وقهوة، وعندئذٍ أُحضرت النرجيلة للبدوي الذي كان جالسًا هناك. بدأ يدخن النرجيلة، وبدا عليه الاستياء، ثم قال للخادم: "أيها الوغد"، "لا أصدق أن هذه المياه جديدة." أردف الخادم قائلًا: "ليست جديدة؟ لقد تم تغيرها أول أمس!" كان هذا أكثر مما يستطيع الشيخ البدوي تحمله، ولم تسعفه الكلمات فأمسك بالنرجيلة وألقى بها

في رأس النادل، ولكنه أخطأ الهدف، وأُلقيت النرجيلة من النافذة، وانفجرت في الداخل. أسرعت بإلغاء طلبي، وقررت أن أكتفي بالسجائر.

ومع ذلك، وعمومًا، كنا نرغب في الاستمتاع بوجه أكثر مرح من الحياة مما عايشناه في الأيام الماضية. كان الهواء دافئًا كما كان ضوء الشمس على المياه الزرقاء تغييرًا مبهجًا بعد أجيج غبار الصحراء. لقد سعدنا بارتداء ملابس نظيفة والاسترخاء مرة أخرى بعد إرهاق ورتابة السفر بالإبل. كنا نخفف عن أنفسنا مشقة المتاعب التي نمرّ بها من خلال تذكر الصعاب التي مررنا بها من قبل. بالإضافة إلى ذلك، فقد أنجزنا في هذه المرحلة نصف الرحلة بنجاح، وكذلك بدا جليًّا نجاح الجزء الثاني منها.

جاء رجلان من ضخام الجثة الأتراك أو الأناضوليين وجلسوا على طاولتنا. كان مظهرهم مثيرًا للضحك؛ فقد جمعوا بين المظهر الخارجي للصوص المسرح والمظهر اللطيف لطبيب الأسرة. كانا يرتديان سروالين فضفاضين للغاية ومربوطين تحت خصريهما بقليل؛ وبدا وكأنهما يمكن أن يسقطا في أي لحظة. حمل كل منهما في حزامه ثلاث مسدسات على الأقل، قطر الواحد منهم ثلاثة أرباع بوصة، وبعض السيوف والخناجر. كان طولهما أكثر من ستة أقدام كما كانا ثخينين جدًّا ولهما لحية كبيرة رمادية اللون وسبلات. تظاهرنا بالهلع من مظهرهما الشرس، وتوسلنا إليهما ألّا يتشاجرا، ولكن عندما فهما أننا نمزح - وهو الأمر الذي استغرق بعض الوقت - كركرا من الضحك، وضربانا على ظهورنا بصورة مستمرة، ثم دعوانا لشرب كوب من عصير الليمون معهم.

تناولنا غداءً مكونًا من السمك المقلي، الذي كان لذيذًا بالفعل مثل جل سمك البحر الأحمر، ولم يؤثر على طعمه أننا أكلناه بأيدينا ونحن واقفون خلف الكارة التي اشتريناه منها، ولكن الحشرات الطائرة أزعجتنا بشدة... فقد كانت بالملايين! ذهبنا

عدة مرات لمكاتب النقل البحري؛ لنسأل متى يمكننا الصعود على ظهر السفينة، ولكنهم كانوا يؤجلون الأمر ويسوقون أعذارًا واهية. بدأنا نشكّ في أنهم ينوون الإبحار ذاك اليوم، وقد كنا على صواب. أبحرت عدة سفن أخرى خلال فترة ما بعد الظهيرة، ولكن بحلول الساعة الرابعة عصرًا أعلن طاقم السفينة التي كنا سنركبها أنهم لن يُسمح لهم بالإبحار حتى اليوم التالي، ولذا فلن نتمكن من الصعود على ظهر السفينة حتى الصباح. لم ينطلِ الأمر على أي أحد، فقد بدا جليًّا أن الأمر الوحيد الذي منعهم من الإبحار هو قلة عدد الركاب، وأنهم اقترحوا ببساطة أن ينتظروا حتى غد لتمتلئ السفينة عن آخرها. أخبرنا البعض أن الأمر ربما يستغرق ثلاثة أو أربعة أيام حتى نبحر، ولكن لم يكن لدينا خيار آخر. كان الحل الوحيد لهذه المشكلة أن نستأجر غرفة أخرى وننتظر؛ لأنه لم يكن باستطاعتنا أن نخيم على رصيف الميناء. ذهبنا لمسئولي مكتب النقل البحري وسببناهم بأقذع الألفاظ، ثم استأجرنا غرفة في منزل متاخم لمكتبهم. كانت هذه الغرفة أكثر نظافة وأفضل من الغرفة السابقة، ولكنها كلفتنا دولارًا آخر. لم يكن الأمر يمثل مشكلة بالنسبة لي؛ فقد كان لا يزال لدينا متسع من الوقت، ولم أكن أهتم أن نبقى يومًا أو حتى يومين في ينبع، فقد كنا نرغب في الحصول على قسط من الراحة. أما بالنسبة للآخرين فلم يكن الأمر كذلك؛ فلم يستطع الجميع دفع المزيد من النقود للإقامة التي دفعوا من أجلها بالفعل. لذا تجمع حشد من الجمهور الغاضب أمام مكتب النقل البحري، وطالبوا بأن تبحر السفينة. كنت قد خلعت نصف ملابسي في مقرنا الجديد لأستحم، ولكني سمعت ضجة كبيرة جعلتني أهرول أنا ومسعودي إلى النافذة! رأينا المكتب محاصرًا بحشد من الركاب الحانقين الذين كانوا يصرخون بأعلى صوتهم، بينما تجمع الفرس البؤساء في طريق الباب في محاولة يائسة منهم أن تُسمع أصواتهم. ما أثار دهشتنا أننا رأينا عبد الواحد في مقدمة هذا الحشد الغاضب يصرخ بأعلى صوته.

هرعنا إلى السلم لننزل إلى الأسفل خشية أن يتورط عبد الواحد في المتاعب، وشققنا طريقنا وسط الحشود حتى وصلنا بجانبه. وجدناه في حالة شديدة من الحماس، وبدا لنا أن المتظاهرين الآخرين نصّبوه قائدًا لهم. اقترح عبد الواحد أن نمسك بالفُرس باستثناء رجل واحد كان يرتدي عمامة خضراء تدل على أنه ينحدر من نسل النبي؛ أي أنه أحد "الشرفاء"، ولذا فليس من اللائق أن نستخدم معه العنف. أخذنا أولئك الفُرس لمكتب الحاكم طلبًا لمساعدته، ولكنه لم يكن هناك حسبما قيل لنا بكل تأكيد. عندما باءت محاولتنا بالفشل عدنا إلى رصيف الميناء، وواصل عبد الواحد مخاطبة الحشد وهو يعتلي كومة من أكياس السكر. أنهى عبد الواحد حديثه - بعد أن ألقى استهلالًا جياشًا وكان الحشد يقاطعونه بالتصفيق الحاد - باستنكار ما يفعله أولئك الفُرس، وذكر أن هذه الأخلاق تُنافي أخلاقيات الإسلام، وأسهب قائلًا: "من الأفضل لنا أن نتعامل مع المسيحيين من أن نتعامل مع المسلمين الذين يخدعون إخوانهم بهذه الطريقة." دمدم الحشد مستنكرين هذه المقارنة المجحفة، فقد ظننا جميعًا أن عبد الواحد قد بالغ في الأمر قليلًا. في النهاية أفسح الفُرس لنا الطريق وسُمح لنا بالصعود على ظهر السفينة في الحال، ووُعدنا بصدق أن السفينة ستتحرك عند الغروب.

اضطررنا مرة أخرى أن نحزم أمتعتنا ونتحرك بسرعة. استطعنا أن نحصل على قارب بصعوبة، وبعد أن مررنا على محطة تفتيش صورية في الحجر الصحي اصطففنا حتى الباخرة التي كانت ترسو على بعد نصف ميل من الساحل. عند وصولنا كان هناك ما يقرب من مائة حاج على متن السفينة بالفعل، بينما كان هناك آخرون يتزاحمون على سلمها، ورأينا أعلى السلم مدير مكتب النقل البحري يدير الأمر. ما إن وقع نظره علينا حتى بدأ في تقريع الفرس، وقد ردّ عبد الواحد بطريقة مماثلة. كان الأمر برُمته يكمن في أننا تزعمنا الحشود الغاضبة، وتسببنا في الكثير من المتاعب، وكذلك في تكبيد الشركة خسارة لأن السفينة ستتحرك بنصف حمولتها فقط؛ لذا فقد

كان من الأفضل لهم أن يعيدوا إلينا أموالنا من أن يرونا على ظهر السفينة. لم نبد أي اهتمام بالأمر، وأقحمنا قاربنا بجوار السفينة، ثم تقدمنا بعنف نحو السلم. كان إبراهيم هو أولنا صعودًا فضرب الفارسي في معدته، وسلك طريقه بالقوة، ثم صعدت خلفه أنا وجافا نحمل الأمتعة؛ فأمسك الوكيل البحري بها، وحاول أن يلقيها في الماء، ولكن عبد الواحد أصبح الآن بطلًا محبوبًا، وأصبح لنا جميعًا بريق المجد؛ لأن الجميع أدركوا أن عبد الواحد هو الذي أجبر الفرس على الإذعان لمطالب الركاب، لذا هبّ حشد من الحجاج الثائرين لنجدتنا، وأمسك بعض الحجاج المغاربة بالوكيل تعيس الحظ، وأقسموا أن يقذفوه في البحر إذا ما أُلقى أي شيء من أمتعتنا. ساعد الكثير من الحجاج في رفع أمتعتنا على سطح السفينة، وتم توصلينا مع نشوة النصر إلى أفضل مكان في السفينة؛ حيث بُسطت الفُرش وُرتبت الأشياء لنا، فنكران الجميل ليس من شِيَم الرجال في الشرق.

في هذه الأثناء تحدث إبراهيم مع الفرس، وهو الأمر الذي وضع نهاية لاحتمال وقوع أية احتكاكات بيننا فيما بعد. لقد بدا جليًّا الآن أنني ذو صلة قريبة بحاكم جدة، وأنني عقدت العزم على نقل الأمر برمّته إليه حال وصولي إلى جدة؛ وذلك لأن صِيتي قد ذاع بسبب الوقائع التي حدثت حتى الآن، وقد سبب هذا الأمر حالة من الذعر بينهم. لذا فقد كانوا يفعلون ما بوسعهم آملين في تصحيح الانطباع السيئ الذي تركوه، فبفضل هذا الأمر، وكذلك الامتنان العظيم الذي أبداه الركاب - صارت الرحلة مريحة بصورة بالغة أكثر مما يمكن تصوره. لم أستطع مقاومة الشعور بالإطراء لاكتساب قصصي عن معارفي ذائعي الصيت مصداقية دائمًا.

بدأ تجهيز السفينة - التي هي في الأصل قارب نقل بضائع - بسرعة لنقل الحجاج. كانت السفينة مكونة من طابقين في الأمام والخلف، ويصل بينهما سلم يؤدي

إلى الفوهات،[1] ولأن السفينة خلت من البضائع فقد خف وزنها، وارتفعت فوق المياه. لم يكن لديّ أدنى شكّ في أنها ستمخر عباب البحر بصورة هائلة. لحسن الطالع، كانت المياه هادئة مثل بركة البط. امتلأت السفينة بسرعة، وبحلول الغروب كان على متنها خمسمائة راكب تقريبًا، وكان آخرون يصلون كل لحظة. لقد بدا كل شبر في السفينة مشغولًا؛ لذا فكرت في أنه إذا كان هذا هو ما يعتبرونه نصف حمولة، فقد أشعر بالأسف الشديد إذا سافرت في سفينة ذات حمولة كاملة. اعتذر الفرس عن إخفاقهم في التحرك في الموعد الذي وعدوا به، متعللين بأنهم لن يستطيعوا ترك بقية الركاب.

أخذنا موقعنا في الطابق الأعلى في مؤخرة الجسر، وحصلنا على خمسة أضعاف المساحة التي كان من المفترض أن نحصل عليها. تمكن جافا من صنع عشاء رائع لنا باستخدام الموقد الذي يعمل بالفحم، واستطعنا أن نقضي أكثر الليالي راحة بعد كل ما حدث. خلدت للنوم قبل أن أُنهي الغليون، ولم أشعر بشيء قط حتى الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي.

[1] الفجوات أوالفوهات المطلة من أسطح السفينة على العنابر. (المترجمان)

الفصل السادس

جدة

عندما استيقظت من النوم كنا في سبيلنا للإبحار. وقعت مشاجرة عنيفة، سببها أن مجموعة من المغاربة عبروا محطة تفتيش الحجر الصحي، وعندما كانوا في منتصف الطريق للسفينة مات أحدهم. تم إرجاع القارب إلى اليابسة. رفضت السلطات الساحلية السماح لهم بالرسوّ مرة أخرى، لذا عادوا إلى السفينة ثانيةً، لكن الفرس رفضوا نهائيًّا صعود الجثة على السفينة. لم يكن بوسعهم إلقاء الجثة في المياه لأنه لا بد من إجراء طقوس الغُسل والصلاة على الميت قبل أن "يُدفن في التراب". كان النزاع يدور حول ما إذا كان يحقّ لهم أن يأخذوه على متن السفينة أم لا، لذا فقد طلبوا من محامٍ مصري كان يخيم بجوارنا أن يستخدم خبراته السابقة ليحكم في هذه القضية. رأى المحامي المصري أنه طالما أن هذا الرجل قد قطع التذكرة لركوب السفينة فيحق له ركوبها سواءٌ أكان حيًّا أم ميتًا، ولا يوجد أي شرط في العقد ينص على غير ذلك. في الواقع، كانت التذكرة عبارة عن قصاصة من الورق عليها اسم السفينة ورقم فقط. بالنسبة لي، كنت أعتقد أن موته بعد مغادرة الساحل يجعله راكبًا، ويجب اعتبار أنه مات على ظهر السفينة. على الرغم من ذلك، سئم المغاربة من الجدال، واحتشدوا على الجدار المحيط بسطح السفينة، وأمّنوا لأنفسهم موطأ قدم عليها، ثم رفعوا رفيقهم الراحل دون مزيد من الضجة. كانت وجوههم الشرسة الداكنة اللون، وكذلك السكاكين الطويلة التي بحوزتهم - كافية لمنع أي شخص من التدخل في الأمر. لحسن الحظ أن الشائعات التي روجت أن هذا الرجل قد مات بالكوليرا - والتي انتشرت بعد صعودهم على السفينة بقليل - لم يكن لها أساس من الصحة.

غادرنا ينبع في تمام الساعة الثامنة والنصف وسرعان ما توارت المدينة عن الأنظار. كان آخر ما علق في ناظرنا هو قافلة بدأت مسيرها إلى المدينة مع وجود صف طويل من الإبل التي تمتد لأميال في الرمال أمام الساحل. سرعان ما نشبت مشاجرة أخرى حول إمدادات المياه. كان من المعروف وجود كميات معقولة من مياه الشرب على متن السفينة مجانًا، ولكن الفرس أرادوا بيع المياه. في النهاية، احتشد الركاب على الجسر، وهددوا بإلقاء طاقم السفينة في البحر إذا لم يُسمح لهم بشرب المياه في الحال. تدخل القبطان - الذي كان مصري الجنسية وبدين للغاية – وأصرّ على منح المياه للركاب مجانًا، لذا اضطر الفرس إلى الموافقة على الأمر. رفضنا أن نشترك في هذا الشجار؛ فقد كنا راضين بما آلت إليه الأمور.

كان هناك رجل من غرب أوروبا على متن السفينة، أعتقد أنه كان طبيبًا، وكذلك كان هناك رجل إنجليزي، كما بدا من مظهره. ظل جالسًا مع القبطان في مقصورة القيادة، لذا فقد رأيته من على بعد. عندما وصلنا جدة قام هذا الرجل بجولة تفقدية رسمية على سطح السفينة، وبدا أنه أحد مسئولي الحجر الصحي.

في تمام الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر أُطلقت سرينة؛ لتعلن وصولنا إلى خط الطول الذي يتعين علينا أن نبدل ملابسنا عنده ونرتدي ملابس الإحرام.[1] هذه الملابس الخاصة بالإحرام يفرض لبسها على كل المسافرين الذاهبين إلى مكة قبل مسافة محددة من المدينة المقدسة[2]، ويجب استمرار ارتداء ملابس الإحرام بعد ذلك حتى أداء الطواف حول الكعبة وتقبيل الحجر الأسود. ينبغي على الحجاج أيضًا أن يرتدوا ملابس الإحرام طوال الأيام الثلاثة لأداء مناسك الحج، وبعض الحجاج يرتدون تلك الملابس طوال فترة إقامتهم في مكة من باب تهذيب النفس. هناك قليل من المسلمين يرتدون ثياب الإحرام وهم يزورون قبر النبي في المدينة، على الرغم من

[1] يقصد الكاتب الميقات المكاني الذي يحرم منه الحجاج. (المترجمان)
[2] يقصد الكاتب مكة المكرمة. (المترجمان)

أني أعتقد أنه وفقًا للمذهب الشافعي لا يجوز فعل ذلك. ترجع فكرة ارتداء ملابس الإحرام إلى الشعور بالنقاء والتواضع والمساواة بين كل من يزور بيت الله الحرام، حتى يرتدي الجميع نفس الملابس أيًّا كان مركزهم أو ثروتهم، فهذه الملابس تتوافق ببساطة مع الاحتشام والآداب، كما أنها ناصعة البياض. تتكون ملابس الإحرام للرجال من قطعتين من القماش، تُلفّ إحداهما حول الخصر بينما تُلف القطعة الأخرى حول الكتف، ولا يُسمح للمحرم بارتداء أي شيء آخر حتى الحزام يحرم لبسه، على الرغم من أن الكثير من الرجال يرتدونه لوضع الأسلحة فيه. تكون رأس المُحرم مكشوفة، وينبغي عدم استخدام المظلة[1]، إلا أن المرضى وكبار السن يجوز لهم استخدامها إذا أرادوا ذلك، وغالبًا ما يستخدم المظلة أيضًا من لا عذر لهم. يجب ألا تكون ملابس الإحرام طويلة بحيث تتعدى طول الركبة بكثير. تتكون أكثر أنواع ملابس الإحرام شيوعًا بالنسبة لميسوري الحال من قطعتين من المناشف التركية الطويلة المصنوعة خصيصًا لهذا الغرض، وهذا النوع هو ما اشتريناه قبل أن نغادر دمشق. يرتدي البعض نوعًا من التنورة وغطاء للكتف مصنوع من الكتان أو القطن بدلًا من المنشفة، وهذا خيار متاح. أما النساء فيرتدين ثوبًا طويلًا من الكتان يغطي سائر الجسد حتى الرأس، بالإضافة إلى غطاء للوجه فيه فتحتان للعينين. يُستحب حلق شعر الرأس والجسد[2]، باستثناء شعر الصدر بالطبع، وكذلك اللحية والشارب. يُسمى الشخص الذي يرتدي ملابس الإحرام "مُحرِم"، ويحرم عليه ممارسة بعض الأشياء التي كانت جائزة قبل إحرامه.

في مثل هذا الطقس يعتبر ارتداء ملابس الإحرام مشقة كبيرة، خاصة بالنسبة للحجاج القادمين من الدول الشمالية الذين يكونون غير معتادين على أشعة الشمس

---

[1] يبدو أن الأمر قد اختلط على الكاتب فيجوز للمحرم استخدام المظلة لاتقاء حرارة الشمس ولا حرج عليه في ذلك. (المترجمان)

[2] يقصد الكاتب بحلق شعر الجسد (شعر الإبط والعانة). (المترجمان)

الحارقة في شبه الجزيرة العربية. من المدهش حقًّا أن نصف أولئك الحجاج لا يموتون من أثر ضربة الشمس، ولكن هذه هي الحقيقة. بالنسبة لي، كنت أعاني من البرد القارس أثناء الليل أكثر من معاناتي أثناء النهار من الشمس، وفيما عدا بعض البثور في رقبتي وظهري فلم يكن الأمر سيّئًا. كانت إحدى الاعتراضات على الطريق المباشر من المدينة إلى مكة هو وجوب ارتداء ملابس الإحرام طوال الطريق تقريبًا، وكذلك وجوب خلع غطاء المحفة حتى لا تدخل في نطاق الاستظلال المُحرّم.

بعد أن تهيئنا على النحو الذي ذكرته آنفًا؛ ردّدنا بعض الأدعية المذكورة في الكتيّبات الصغيرة التي كنا قد أُعطينا إياها من قبل، وبعدها كان لدينا وقت لندقق النظر في بعضنا البعض، ونضحك على المنظر الهزلي الذي كنا نبدو عليه. كنت مسرورًا للغاية لأنني لم أحصل على ما يسمى لدى العامة بالزيّ الخاصّ بالمجموعات، فقد كان هناك مجموعة من الأتراك الأوروبيين بالقرب منا بدا شكلهم سخيفًا بصورة مثيرة للضحك. كان مظهرهم وكأنهم أعضاء نادي "أثينيوم"[1] خرجوا لتوّهم من حمّام تركي. لم تستطع كل الضوابط التي تفرضها الأخلاق الحميدة أن تمنعني من الضحك كلما نظرت تجاههم، وهو الأمر الذي جعلهم يومئون برؤوسهم، ويتحسرون على تدهور الأخلاق لدى الشباب في هذه الأيام.

وصلنا جدة في الساعة الحادية عشرة من صباح اليوم التالي. توقفنا على بعد ميل كامل من الشاطئ، ولم يكن من الممكن الاقتراب أكثر من ذلك، لذا نزلنا من السفينة، وركبنا القوارب التي كان هناك الكثير منها في انتظارنا. كان هناك عشرات السفن في الميناء، وكان على متنها بعض ممن قابلناهم في ينبع. رأينا أنه من الأفضل ألّا نذهب إلى الشاطئ حتى ينزل حشود الحجاج؛ لنتجنب التزاحم أو فقد الأمتعة عند اختلاط كل أمتعة الحجاج. أخيرًا، ركبنا قاربًا صغيرًا وحدنا، وعندما وصلنا للرصيف

[1] نادي أثينيوم هو نادٍ للرجال فقط في لندن، تأسس عام 1824م، وكان به العديد من الشخصيات الشهيرة. (المترجمان)

مررنا أمام مسئول حكوميّ؛ سألَنا ما إذا كنا عربًا أم أتراكًا، ودوّن إجابتنا، ولأننا وصلنا من أراضٍ تخضع للسلطة العثمانية، فلم يُطلب منا أن نُبرز جواز السفر، ولم تُفتّش أمتعتنا. كان هناك صفّ من المطوفين على رصيف الميناء، جميعهم لديه نفس الهدف، ولكن عندما علموا أننا من العرب لم يعيرونا أي اهتمام، أما إذا كُنا أتراكًا أو من الفرس فكُنا سنتعرض للكثير من المضايقات والإزعاج. لم يعد من الممكن استنتاج جنسية الحجاج من خلال ملابسهم، فجميعهم الآن يرتدون نفس الثياب (ملابس الإحرام). أخبرني البعض أن هناك بعض المسئولين يراقبون دخول أي أوروبيين يحاولون الدخول متخفين، ولكن إذا كان هذا الأمر صحيحًا –وهو الأمر الذي أشكّ فيه – فقد فشلوا في التعرف عليّ، ولم يكن هذا الأمر مُدهشًا بالنسبة لي؛ لأنني لاحظت أنه من الممكن لأيّ رجل بريطاني أن يعبر وكأنه عربي، سواءٌ أكان ذلك من خلال التنكر في ملابس مختلفة أو أي طريقة أخرى.

قررنا أن نقيم هنا لبضعة أيام، لذا بذلنا بعض الجهد لنتمكن من أن نجد مكانًا ملائمًا لننزل فيه. في النهاية، وجدنا ثلاث غرف ومطبخًا بشروط معقولة في منزل شريف فارسي – وهو رجل عجوز محترم ولطيف. كانت الساعة قد أصبحت الثانية عشرة والنصف، وكنا نشعر بالجوع الشديد، لذا لم نستطع أن ننتظر جافا ليعدّ لنا الطعام الذي قد يأخذ بعض الوقت، وذهبنا لنتناول طعامنا في مطعم. كان أفضل ما استطعنا أن نجد هو مطعم مكون من غرفة واحدة بها طاولة كبيرة في المنتصف، وقُدّم لنا طبق واحد يتكون من قطع من اللحم مغروزة في سيخ طويل، ومعلقة على الفحم الموقد خارج باب المطعم؛ ليتسنى لمن ينوون تناول الطعام في المطعم أن يُلقوا نظرة عليه أولًا. أما الطاهي الذي كان مسلحًا بشوكته الساخنة، فقد كان يقف على عتبة الباب؛ ليمنع الزبائن من إخضاع الطعام للمزيد من التجارب العملية. عندما اختار كل منّا قطعة من اللحم، أُخذت تلك القطعة ووُضعت على طبق مع قطعة من

الخبز. لم تكن قائمة الطعام باهظة الثمن، بل كان معظم الأطباق ببنسين[1]. كان صاحب المطعم مسيحيًّا، ولكنه علّق لافتة على مطعمه توضح أنه من الممكن للمسلمين أن يتناولوا الطعام في مطعمه دون القلق من وجود أي محرّمات.

يمكن لغير المسلمين أن يقيموا في ينبع وجدّة، شريطة ألّا يغادروا حدود المدينتين. يوجد في جدة بعض التجار المسيحيين واليهود، ويمثل القوى الأوروبية قناصل، ولكنهم لا يَسلمون من المعاملة السيئة حتى هنا، أما القنصليات فتقع في أقصى شمال المدينة.

تعتبر جدة أحد أقدم المدن في العالم، وهي مدينة ساحرة، خاصةً عندما تُرى من البحر، ولكنها مثل مدينة ينبع في حالة يُرثى لها، فالمنازل المرتفعة والضيقة تبدو وكأنها تترنح، أما مآذن المساجد فلم تكن عمودية بل كانت مائلة بشدة. من الممكن لأي هزة أرضية بسيطة أن تحوّل كلتا المدينتين إلى كومة من الأنقاض. على الرغم من أن الشوارع والأسواق كانت متّسخة إلا أنها لا يمكن مقارنتها بينبع، فقد كان هناك عدد من الحوانيت وبعض المقاهي الجيدة. كان الطقس حارًّا، ولكنه لم يكن غير صحي، وكان أفضل بكثير من الطقس في مكة؛ الذي يكون شديد الحرارة في الأيام الساكنة مثل حرارة الفرن. أما هنا في جدة فنسيم البحر يجعل الهواء يتحرك، ويساعد على إبعاد الهواء الخانق الناتج عن تلوث الشوارع والسكان. بالنسبة للمياه فهي سيئة مثل مياه ينبع، ولذا فجميع الأمراض الوبائية منتشرة للغاية بكل أسف.

يظهر الشكل الشرقي للمكان في موسم الحج بسبب ملابس الإحرام التي يرتديها الجميع تقريبًا. لقد كان من العجيب رؤية الشوارع والمقاهي مكتظّة بأُناس يرتدون مناشف (ملابس الإحرام) فقط. في البداية شعرت بعدم الارتياح، ولكن سرعان ما تلاشى هذا الشعور.

---

[1] البنس يساوي (100/1) من الدولار الأمريكي. (المترجمان)

واجهنا مشكلة الآن؛ لأنني لم أكن متأكدًا ما إذا كان ذلك الشيخ من "مومباسا" سيحضر إلى موسم الحج أم لا. لقد علم هذا الرجل أنني أنوي الذهاب إلى مكة متخفيًا، وكنت قد نويت أن أسافر معه، ولكنني عدلت عن هذا الرأي لأسباب عديدة، ورأيت أنه من الأفضل أن أذهب وحدي من دونه، وأن أبعده عن المشهد من خلال إخباره كتابيًّا أنني عدلت عن هذه الفكرة. في حقيقة الأمر، لم يظن هذا الشيخ أبدًا - ولو لحظة واحدة - أنني أنوي الذهاب بالفعل، ولكنه إذا أتى إلى مكة فسيكون من المستحيل ألّا أقابله بمحض الصدفة طوال الشهر، لذا كنت أفضّل أن أقابله هنا في جدة، وأخبره بالأمر قبل البدء في المناسك. كنت أنوي أن أُبقي الأمر كما هو، وأطلب منه ألّا يتدخل، وذلك لأنه لم يكن مستعدًّا لمساعدتي. لم أكن واثقًا تمامًا من نواياه الطيبة، وأدركت الآن أننا نواجه خطرًا حقيقيًّا لم نواجه مثله من ذي قبل.

كان أول شيء فعلته هو التأكد من أنه لم يعبر من الميناء، لذا أرسلت مسعودي إلى المنزل الذي ينزل فيه حجاج "زنجبار" لاستكشاف الأمر. عند عودته أخبرني أن الشيخ لم يصل بعد، ولكنه أرسل خطابًا منذ وقت مضى يفيد بقدومه، لذا فقد كانوا يتوقعون وصوله يوميًّا. قررت أن أنتظر بضعة أيام وأترقب وصوله، فلم نكن في عجلة من أمرنا، وبالتأكيد كنت أفضّل أن أقابله هنا في جدة - حيث يمكن أن يتسنى لي الهروب إذا ما ساءت الأمور- من أن أقابله في مكة، وتكون حياتي كلها متوقفة على الآراء التي يمكن أن يتبناها وفقًا للاعتبارات المختلفة؛ وعلى رأسها سلامته الشخصية.

نتيجة لذلك بقينا لمدة أربعة أيام كاملة في جدة غير يوم وصولنا واليوم الذي غادرنا فيه. في اليوم الثاني اقتنصنا الفرصة لزيارة قبر "أمنا حواء"[1]– قيل إنها دُفنت

[1] يقع هذا القبر في موقع أثري في حي العمارية بجدة، ويعتقد البعض أن سبب تسمية مدينة "جدة" بهذا الاسم يرجع في الأصل إلى كلمة "جِدة" (بمعنى والدة الأب أو الأم) نسبة إلى أمنا حواء. وقد أغلق هذا الموقع بأمر من هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في عام 1975 عندما صلى بعض الحجاج هناك في موسم الحج. (المترجمان)

هنا - يقع قبرها على مسافة قريبة من الجدار، وهو في حالة متهالكة إلى حدّ ما كما هو متوقع. أخبرني الشخص الذي كان معي أن الواجهة تعدّ حديثة إلى حدّ ما، ولم يبنها آدم عليه السلام؛ لأنه ظن أنني سأتوقع ذلك. كان طول السيدة حواء عليها السلام يبلغ ربع ميل، لذا عندما تكون في وضع الاضطجاع - كما هو الحال في القبر - فينبغي على المرء أن يمشي مسافة مُضنية حول القبر ليجوب الموقع من أوله لآخره. كان هناك قبّتان صغيرتان، إحداهما تحدد موقع رأسها والأخرى تحدد موقع قدمها، وهناك قبة ثالثة في المنتصف تحدد منطقة ما فوق المعدة "الشرسوف". كان من المفترض أن نقرأ الفاتحة عند كل نقطة من هذه النقاط، إلا أن البعض يرفض أن يفعل هذا، ويفضل الدعاء أو الصلاة. تُضطر النساء اللواتي يحرسن القبر لتحمل الاستماع إلى الكثير من القصص التي يرويها الزوّار، والتي قد يكون بعضها محرجًا إلى حدّ ما. لا أدري لماذا لا يأخذ الزوار هذا المزار المقدس على محمل الجدّ.

ذاع صِيتنا بسبب ما حدث في رحلة ينبع، وصرنا يُشار لنا بالبنان في الشوارع وفي كل مكان؛ لأننا أبطال تلك الواقعة الذين أنقذوا فيها حوالي ألفي حاج وأحضروهم إلى هنا، بعد أن كان من الممكن أن يُحتجزوا في ينبع إلى أجل غير مسمى. استغل عبد الواحد هذا الأمر لأقصى درجة، فلم يكن أبدًا هو ذاك الشخص الذي يفضّل أن يتوارى عن الأنظار بعيدًا عن أضواء الشهرة، أما أنا فمع أنني وجدت تلك الشهرة مُحرجة بعض الشيء إلا أنني شعرت بأنه ربما أحتاجها قبل أن نغادر جدّة مرة أخرى.

في اليوم الرابع، وصلت العديد من السفن من الجنوب، ولم تكن هناك أي أخبار من مومباسا، لذا قررت بعد تفكير متأنٍّ أن أغامر وأذهب إلى مكة، فقد كنت قد سئمت البقاء في جدة، كما أن الخادمين بدآ يتعجبان من تضييعنا للوقت سُدى دون مبرِّر.

كنت عازمًا على أخذ كل الاحتياطات اللازمة، وعدم ترك أي ثغرة، لذا كتبت خطابًا للشيخ أشرح له فيه ما حدث وأطلب منه ألّا ينطق بِبِنْتِ شَفَة، وتركته مع مالك المنزل الذي سينزل فيه على الأرجح، وطلبت منه أن يعطيه إياه إذا قدم، أو يحتفظ به لحين عودتي إلى جدة مرة أخرى في حالة عدم مجيئه. بعد ذلك اخترنا مطوفًا وأخبرناه القصة التي يسّرت لنا الكثير من الأمور من قبل، ثم عرضنا عليه أن يعمل لحسابنا. كان من الواضح أنه وكيل محلي لمدير مرشدي مكة، وهو رجل يُدعى "محمد مفتاح"، ووعدنا أن يكتب له ليهتم لأمرنا. شعرت بوخز الضمير تجاه هذا الأمر؛ لأنني بالطبع لم تكن لدي أدنى نية في التجارة مع أي منهما، ولكن في مثل هذه المغامرات لا يمكن للمرء أن يكون حي الضمير بدرجة كبيرة. أخيرًا، اتفقنا مع شيخ بدوي أن يُحضر لنا الجمال أمام منزلنا في فجر اليوم التالي.

ما إن قررنا ما سنفعله خلال الفترة القادمة من سفرنا حتى شعرنا جميعًا براحة بال وطمأنينة لم نستشعرها خلال الفترة السابقة. ففي وقت المخاطر عادةً ما يكون الانتظار هو الذي يُجهد الأعصاب، أما عندما يبدأ المرء في المغامرة فلا يكون هناك وقت للتفكير في الأشياء السيئة التي يمكن أن تحدث؛ لأن ضرورة اتخاذ خطوات تطغى على أية مخاوف مما يمكن أن تحدث في المستقبل. كان هذا اليوم هو يوم الجمعة، لذا ذهبنا لخطبة الجمعة في المسجد الرئيسي، وهو مسجد متداعٍ ليس له أي أهمية خاصة، ثم ذهبنا إلى القهوة ونحن راضين تمام الرضا عما فعلناه؛ لأننا أخذنا كل الاحتياطات اللازمة. أقسم عبد الواحد أنه سيدفع ثلاثة دولارات لفقراء جدة إذا عاد إلى هنا سالمًا. ولكننا أخبرناه أنه يطلب من الله سبحانه أن يُنجيه مقابل صدقة قليلة جدًّا، وأنه من الأفضل أن ينذر أن يتصدق بجنيه من الذهب. ما أثار استياءنا أننا عندما رجعنا إلى جدة تنصل عبد الواحد من وعده، ولم يفِ بدفع المبلغ الذي نذره.

في صباح اليوم التالي، استيقظنا باكرًا، وكنا جميعًا مستعدين قبل طلوع الشمس. كانت إبلنا موجودة في الوقت المتفق عليه، ولكنني لم أكن مسرورًا بمظهرها، فالجمل الذي كنت سأمتطيه بدا وكأنه سيموت في أي لحظة. إن هذه الجمال المسكينة كانت تقضي أوقاتًا سيئة للغاية طوال هذا الموسم؛ لأن أصحابها يستغلونها لأقصى درجة لجني الأرباح، ولا يعطونها أي وقت للراحة. استأجرنا أربعة جمال لهذه الرحلة؛ لأننا كنا قد بعنا المحفة في ينبع، ولم نر داعيًا لشراء واحدة أخرى.

الفصل السابع
من جدة إلى مكة

كانت المسافة من جدة إلى مكة حوالي أربعين ميلًا، وكان الطريق كله محميًّا عن طريق مجموعة من الحصون الصغيرة أو القلاع على مسافات قريبة من بعضها البعض، لذا كان الطريق آمنًا للسفر حتى بدون صحبة، ولم تكن هناك حاجة لانتظار قافلة. كانت هناك أكشاك كل ميل تقريبًا لبيع المرطبات والوجبات الخفيفة. اعتاد بعض الناس إرسال أمتعتهم وخدامهم على الجمال وركوب الحمير إلى مكة، وقد ندمت أننا لم نفعل ذلك.

عندما غادرنا البوابة مررنا بأرضٍ مستوية من الرمال تمتد لسبعة أميال وتنتهي بمجموعة من الهضاب المنخفضة. كانت الجمال تمتد عبر هذه التلال وتختفي بينها، ففي هذا الوقت من العام تمتد سلسلة متصلة من الجمال من جدة إلى مكة؛ لأن عدد الحجاج الذين يتهافتون على الذهاب إلى مكة يكون كبيرًا. لم نكن قد ابتعدنا كثيرًا عن جدة حتى شعرت أنني أنحدر، ووجدت نفسي مرميًا على الأرض فجأةً، ولكن لحسن الحظ سقطت على جزء من جسدي يعد الأفضل في تلقي الصدمة دون الإصابة بجروح. كان من الواضح أن الجمل المسكين الذي كنت أركبه قد لقي حتفه، إما من شدة الإجهاد في العمل أو بسبب المرض، لا أدري! خرجنا عن مسار الطريق، ووبخّنا سائس الجمل لإحضاره هذا الجمل في هذه الحالة المزرية، وهددناه أننا سنرجع إلى جدة ونلغي الصفقة بأكملها. كان علينا أن ننتظر لمدة ساعة تقريبًا حتى يذهب هو لإحضار جمل آخر، وفي النهاية لم نبدأ المسير إلا بعد الساعة الثامنة. لم تكن هذه نهاية الحوادث التي تعرضنا لها، فقد فكرت أنا وعبد الواحد أن نترجل من على الجمل، وننزل على إحدى المقاهي الصغيرة لندخن السجائر ونحتسي القهوة ثم

نلحق بالإبل فيما بعد. كانت سرعة الإبل التي تحمل الأمتعة تبلغ ميلين في الساعة، بينما يمكن للمرء الذي يسير على قدميه أن يمشي بسرعة ثلاثة أميال في الساعة. وقفنا لمدة عشرين دقيقة، ثم بدأنا في السير لنجد الهواء الذي كان في الصباح الباكر باردًا بصورة منعشة قد صار الآن خانقًا بصورة كبيرة، وكان لهيب أشعة الشمس يضرب الرمال بطريقة جعلت السير عليها ونحن حافيي القدمين أمرًا عسيرًا وشاقًّا. مشينا ونحن متعبون قدر الإمكان، ولكننا سرعان ما اكتشفنا أننا لن نستطيع أن نلحق بالجمال لأنهم سبقونا بالفعل. كنا قد دخلنا منطقة الهضاب، وأُجبرت القافلة على السير في صف واحد. حاولنا أن نبلغ من حولنا بالأمر لينقلوا الخبر لقافلتنا في الأمام، ولكن الحجاج الذين كانوا حولنا كانوا من الهند ولم يتمكنوا من فهم ما أردناه. لحسن الحظ أن مسعودي - الذي يتمتع بالحصافة - عندما وجد أننا لم نصل بعد، بادر بالتوقف في أول منطقة واسعة وصل إليها، وهذا هو المكان الذي قابلناه فيه مرةً أخرى، ولكننا كنا نشعر بالحرّ الشديد، ونعاني من تورّم في القدمين، وصرنا نفكر بحكمة أكثر من ذي قبل! لقد اعتقدت بالفعل لوهلة أننا سنضطر للسير على الأقدام طوال الطريق إلى مكة.

في حوالي الساعة الرابعة والنصف عصرًا وصلنا إلى قرية "بحرة"[1] التي يُفترض أنها في منتصف الطريق بين جدة ومكة، ولكني أعتقد أنها أقرب بكثير إلى جدة من مكة. تتكون القرية من بضعة حوانيت، يوجد بها بعض الإمدادات وأعلاف الدواب، ومطاعم وكلأ للمواشي والماعز. كان هناك بضع نخلات بالقرب من المكان وكذلك حصن كبير به حامية من أكثر من شركة لتوفير الحماية اللازمة للقرية. تقع قرية "بحرة" في سهل مفتوح، وعرضها يبلغ عدة أميال، ويحدّها جانب مدينة جدة

[1] تقع بحرة في إقليم تهامة أسفل وادي فاطمة ما بين مدينتي جدة ومكة. وكانت بلدة بحرة قديمًا محطة للحجاج، بسبب موقعها، وتعتبر أول بلدة يمرّ من وسطها طريق معبّد في المملكة العربية السعودية، وهو الطريق الواصل ما بين مكة المكرمة وجدة. (المترجمان)

وسلسلة من التلال الصخرية التي عبرناها لتوّنا، كما تمتد خلال كثبان رملية في الشرق. كانت المياه تبدو وافرة في القرية، وليست مالحة بصورة ملحوظة.

خيمنا على بعد مسافة من القرية في أنظف بقعة من الأرض استطعنا أن نجدها، ولم ننصب الخيمة لأن الجو كان جيدًا ودافئًا. كنا ننوي أن نتحرك في فجر اليوم التالي؛ إلا أن سائس الجمال الخاص بنا قوّض فكرتنا، وأجبرنا على السير في الليل؛ لأنه بالطبع كان يريدنا أن نصل في أسرع وقت ممكن؛ حتى يمكنه العودة إلى جدة مرة أخرى وجلب المزيد من الحجاج. بالإضافة إلى مجموعتنا، كان سائس الجمل لديه ثلاثة جمال أخرى عليها مجموعة من المصريين – رجل وامرأتان - نجح في إقناعهم بالبدء في الساعة الحادية عشرة عند بزوغ القمر، ثم جاء ليُخبرنا أنهم لن يُسمح لهم بدخول مكة إلا إذا أتينا معهم؛ لأن لديه تصريحًا بعدد معيّن من الجمال، وإذا لم يكونوا جميعًا معه فلن يُصرح له بالدخول. كانت هذه كذبة على الأرجح، ولكن لأننا لم يكن بوسعنا أن نجعل المصريين يُنزلون أحمالهم مرة أخرى، فلم يكن هناك بدّ من أن نتحرك معهم. لم أكن أمانع هذا الأمر بشدة لأنه كان من الأفضل أن نركب الإبل في هذا الجو المعتدل في الليل من أن نفعل ذلك أثناء النهار؛ عندما تكون الشمس الحارقة مسلطة على رؤوسنا الحليقة والمكشوفة. وضعنا السروج على الجمال، وتحركنا ببطء تجاه الشرق. كانت الرحلة متشابهة في الليل والنهار، وكنا نتجه نحو مكة مع موجة متزايدة من البشر. عندما يفكر المرء أنه خلال شهر واحد يسافر حوالي نصف مليون شخص على هذا الطريق، وما يترتب على ذلك من توفير طعام وحوانيت، يمكن أن يدرك بسهولة العدد الرهيب الذي يجب استخدامه من الحيوانات.

كان الصمت المطبق الذي يخيم على الطريق غريبًا ومؤثرًا، فلم يعد هناك أي صراخ أو غناء أو إطلاق نيران. كان معظم الحجاج يشعرون بالرهبة من أثر ما يحيط بهم لاستشعار هذا الأمر الجلل، بينما كانت الجمال تتقدم بهدوء على الرمال

الناعمة. من العسير لمن هو من غير المسلمين أن يُدرك المشاعر الحقيقية للمسلمين عند وصولهم إلى مكة، فبالنسبة لهم تعتبر مكة مكانًا لا ينتمي لهذا العالم، فهي مثل خيمة الاجتماع التي اتخذ منها اليهود هيكلًا نقّالًا لأنها تُمثل الوجود الحسي للإله. فالمسلم يولّي وجهه شطر المسجد الحرام خمس مرات في اليوم، وهو الآن على وشك رؤية هذا الأمر الغامض بأمّ عينيه. علاوةً على ذلك، فوفقًا لما يعتقده الجميع يصحب بركات الحج المتعددة بعض المسئوليات والصعاب، فالأفعال الحسنة في مكة يضاعف أجرها ألف مرة، ولكن السيئات التي ترتكب هناك تودي بصاحبها إلى الجحيم.

في الساعات الأولى من الصباح مررنا بين عمودين من الصخور البيضاء يحدّدان بداية المنطقة المقدسة، لذا كنا نمشي على أرض محرّمة لا يمكن لأي شخص أن يصطاد أو يقتل أي شيء إلا من أجل الطعام فقط، فكل أنواع الدمار الغاشمة محرّمة هنا.[1]

بعد أن اجتزنا هذا الخط بدأنا في ترديد بعض الأدعية الجماعية، كان نصّها كما يلي:

"لبّيك اللهمّ لبّيك، لبّيك لا شريكَ لكَ لبّيك. إن الحمدَ والنِّعمة لكَ والمُلْك. لا شريكَ لك لبّيك."

غالبًا ما تتكرر عبارة " لبّيك اللهمّ لبّيك" عدة مرات بطريقة تُشبه النحيب[2] ويرددها الحجاج بين الفينة والأخرى طوال الطريق.

شعرنا بالبرودة في الصباح الباكر؛ لأننا كنا نرتدي ملابس الإحرام، وكنا سعداء عندما طلعت الشمس. عندما سطع ضوء الشمس، أشار "إبراهيم" الذي كان قد أدى فريضة الحج مرة من قبل إلى جبل النور – وهو قمة مخروطية الشكل مُحاطة

---

[1] يحرم على الحجاج حال إحرامهم أن يقتلوا أي شيء؛ حتى الحشرات تكون محميّة، باستثناء العقرب ونوعين آخرين من الحيوانات الخطيرة. كما يحرم عليهم التحدث بصوت عالٍ والجدال والخصومة كذلك. (المؤلف)

[2] يبدو أن الكاتب جانبه الصواب في اختيار اللفظ الملائم في هذا المقام أو بالأحرى لم يستشعر المعنى الحقيقي للتلبية التي يردّدها الحجاج بسرور وتهلل لإجابتهم دعوة ربهم. (المترجمان)

بشيء يُشبه الفنار؛ قيل لي إنه قبر. جبل النور هو أحد الجبال التي تطلّ على مكة المكرمة. في حوالي الساعة الثامنة مررنا ببعض البيوت المبنية بالحجارة على مسافة من اليسار قيل لنا إنها تتبع مكة، لذا رددنا الأدعية الواجب قولها عند رؤية مباني مكة للمرة الأولى. كان كلّ منا قد أُعطيَ كتابًا يحتوي على كل هذه الأدعية مرتبة وفقًا للترتيب الصحيح، فهناك دعاء يُقال عند بدء الإحرام، وآخر عند رؤية مكة للمرة الأولى، وعند المرور من البوابة، وعند رؤية الكعبة، وخلافه. كان هذا الدعاء نصه كما يلي:

" اللهمّ كما جئتُ إلى هنا سالمًا رُدَّني إلى أهلي سالمًا."[1] كان هناك رجل في القافلة يردّ بحماس شديد قائلًا: "آمين" - كلما سمع أي شيء.

ومع ذلك، فيجب أن أعترف أنني كنت متوترًا إلى حدّ ما، فقد كنت أنظر حولي وأرى معظم الحجاج ما زالوا خائفين، وكلما اقتربنا من مكة كان شوقهم يزداد، ويصبح من المؤلم رؤيتهم على هذا الحال. سرنا لمدة ساعة تقريبًا، ومررنا ببضع أكواخ صغيرة وبعض خيم البدو؛ حتى بدأت أتساءل أين يمكن أن تكون مكة مختفية على وجه البسيطة! فجأة اتجهنا يسارًا ورأينا أمامنا فتحة كبيرة مُحاطة بمجموعة من الهضاب الصخرية المرتفعة، يعلو إحدى هذه الهضاب قلعة كبيرة ويعلو الهضبة الأخرى مسجد، أما بقية الهضاب فيعلوها مبان أخرى لم أتمكن من رؤيتها آنذاك.

تقع مكة على شفا منطقة جبلية تمتد حتى داخل الجزيرة العربية في وادٍ عميق وضيق، لذا فهي مختفية تمامًا على مستوى سطح البحر، لدرجة أنه لا يمكن رؤية أي شيء منها حتى الوصول إلى البوابة. يجري هذا الوادي في اتجاه الشمال الشرقي والجنوب الغربي، ويبدو أنه يمتد إلى مسافة كبيرة.

---

[1] الدعاء الذي ذكره الكاتب لدخول مكة لم نجد له ذكر في كتب السُّنة، ويستحب قول هذا الدعاء عند دخول مكة: "اللهم اجعل لي بها قرارًا وارزقني فيها رزقًا حلالًا". (المترجمان)

قررت أنا وعبد الواحد أن نذهب سيرًا على الأقدام؛ لنستكشف المكان ونحاول أن نجد منزلًا جيدًا قبل أن تصل الجمال، وطلبنا من مسعودي أن يواصل مسيره حتى يصل إلى الجزء الأبعد من المدينة، ثم يتوقف في الشارع الرئيسي حتى نستطيع مقابلته هناك. علمنا أننا سنمرّ حتمًا بأولئك الحراس الذين سيكونون في انتظارنا عند دخولنا من البوابة. سرنا بسرعة إلى الأمام، ومررنا بالثكنات الجديدة – وهي عبارة عن مبنى رحيب يمكنه استيعاب العديد من الكتائب. بعد ذلك سِرنا إلى الشارع الرئيسي المؤدي إلى مركز المدينة، ووجدنا بالطبع صفًّا من المطوِّفين مُرتَدِين أبهى الحُلل التي جمعت كل ألوان الطيف، ويعترضون الطريق تمامًا. كنا هذه المرة مستعدين لهم، فبمجرد أن اقتربنا منهم، صاح عبد الواحد مناديًا: "محمد مفتاح". لحسن الحظ لم يكن محمد موجودًا، وأخذنا نسأل الكثير منهم عنه، لذا علموا أننا قد اتفقنا بالفعل مع مطوِّف، ولم يعيرونا مزيدًا من الاهتمام. استوقفني شيخ طاعن في السنّ - وهو كبير المطوِّفين المسئول عنهم - وسألني "ما اسمك؟" فأجبته قائلًا: "علي" فأردف قائلًا: "وما جنسيتك؟" فقلت: "عربي" ثم مررنا. استنتجت أنه موظف من قبل الحكومة، يتقاضى أجرًا ليسأل هذه الأسئلة السخيفة؛ لأنه كان هناك المئات من العرب الذين يحملون نفس الاسم، ويمرون من هذه البوابة يوميًّا. على أي حال تنفست الصعداء مرة أخرى، ويمكنني القول إنه بفضل هذا الموقف لم نتعرض للمزيد من المتاعب مع المطوِّفين. بالطبع لم نبذل أي جهود أخرى لنجد "محمد مفتاح".

مضينا في طريقنا عبر شارع ضخم وواسع لمسافة نصف ميل، ثم اتجهنا إلى القناطر التي كانت مزدحمة للغاية؛ حتى أننا وجدنا صعوبة في التقدم. بعد أن اجتزنا هذا الموقع دخلنا إلى طريق طويل مستقيم يؤدي - كما قيل لي - إلى مِنى. بعد أن سِرنا لمدة عشرين دقيقة تقريبًا وصلنا إلى وجهتنا. بعد أن غادرنا هذه المنطقة الرئيسية المزدحمة، ذهبنا إلى منطقة ذات شوارع هادئة وأبنية بعضها تحيط به حديقة

صغيرة. أخبرنا البعض أن هذا الحي هو أفضل الأحياء السكنية التي يفضلها الفرس والعرب من مدن العراق، مثل بغداد، وكربلاء، ووادي الفرات. لقد أعجبتني هذه المنطقة خاصة؛ لأنه كان من غير المحتمل أن يتمكن أي من حجاج زنجبار أو مسقط أن يدفعوا الإيجارات التي تُطلب هنا، كما أن هناك ميزة أخرى هنا، وهي أنه في حالة انتشار مرض الكوليرا فسنكون بمأمن بعيدًا عن الأماكن المزدحمة في المدينة. ففي العام الماضي، عندما اجتاح الوباء المدينة تأثرت هذه المنطقة بصورة طفيفة مقارنة ببقية المناطق. كان باقيًا معي أكثر من 100 جنيه إسترليني، لذا لم نكن مضطرين لأن نقتصد في الإنفاق، وكان بإمكاننا أن نُنفق المزيد لننعم بالراحة قدر الإمكان.

تفقدنا العديد من المنازل قبل أن نجد المنزل الذي حاز إعجابنا. استأجرنا جناحًا يتكون من ثلاثة غرف وحديقة على السطح في منزل مملوك لأحد العاملين في النُّحاس يُدعى "محمد سعيد". كانت الشقة الرئيسية كبيرة ونظيفة وبحرية، وكان العبور بين الغرف يسيرًا. أعجبني مالك العقار وابنه - الذي كان يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا - وهم من أهل مكة الأصليين. بعد التفاوض على السعر لفترة، اتفقنا على أن ندفع سبعة جنيهات مقابل إقامتنا لمدة شهر، يمكن خلاله أن نستخدم المطبخ أو نطلب المساعدة من خدام المنزل إذا احتجنا إلى خدماتهم. ما إن أنهينا الاتفاق معهم حتى وجدنا منهم حسن الوفادة، فقد أعدّت لنا النساء في المنزل الطعام والقهوة، بينما ساعدَنا الرجال في حمل الأمتعة التي وصلت مع مسعودي والآخرين إلى الغرف الخاصة بنا. كنت مندهشًا لأننا حصلنا على ما نحتاجه بسعرٍ زهيد، فقد كنت أتوقع أن أدفع خمسة عشر أو حتى عشرين جنيهًا إسترلينيًّا مقابل إقامتنا. أخبرنا "محمد سعيد" أنه يفضل أن يعرض الغرف التي يؤجرها بسعر رخيص للعرب المحترمين؛ الذين يمكن الوثوق في كونهم هادئين، ولديهم عادات جيدة فيما يتعلق بالنظافة - من أن يكسب المزيد من النقود من الهنود أو من يأتون من "جاوة". كان ابن أخته يعيش في

زنجبار، لذا فقد كان متحمسًا لسماع المزيد عن هذه الدولة، ولكنني أخبرته في معرض حديثي أنني لا أريده أن يخبر أي أحد عن مسقط رأسي؛ لأنني لا أريد أن أتورّط في المتاعب مع المطوِّفين، وقد بدا طلبي منطقيًّا بالنسبة له، ووعدني أنه سيأخذ هذا الأمر في الاعتبار.

بعد أن رتبنا أمورنا بهدوء، وتناولنا وجبة غذاء شهية قُدمت لنا على الطريقة الأوروبية بأطباق وسكاكين وشوك، اعتزمنا الذهاب إلى الحرم على الفور لأداء الطواف، بحيث يمكننا بعد ذلك أن نخلع ملابس الإحرام ونرتدي ملابسنا العادية، وهو أمر كنا نتطلع إليه جميعًا. كان مسعودي يعاني من صداع شديد، لذا نصحه "محمد سعيد" أن ينتظر حتى الصباح؛ لأن الطواف يستلزم الكثير من المشي حول الكعبة، وهو أمر مُجهد جدًّا في الشمس الحارقة.

ذهبت أنا وعبد الواحد معًا، وتوضأنا قبل البدء في الطواف. مشينا حوالي عشرين دقيقة حتى وصلنا لبوابة الحرم، وبعد أن مررنا من خلالها وجدنا أنفسنا أخيرًا في المربع العظيم؛ الذي يضم المباني التي جئنا لرؤيتها. كانت الكعبة أمام أعيننا، وكان غطاؤها الأسود مدهشًا في تباينه مع اللون الأبيض البرّاق للأرض الرخامية التي تُضيئها أشعة الشمس. انتقلت أعيننا من هذا المشهد المهيب لنرى القبة المبنية من الحجارة التي تُغطي بئر زمزم المقدسة، والعلامات الغريبة التي تحدد مقام محمد وإبراهيم وإسماعيل[1] ومقام الشافعية[2]، ثم تمر إلى الأمام لتتلاشى في غسق الأعمدة المحيطة بها.

ترك المشهد برمّته انطباعًا فريدًا بصورة استثنائية، فلم يكن جميلًا ولا يمكن أن يُقال عنه إنه عظيم، ولكنه يُثير الخشوع من غرابته. يشعر المرء أنه ينظر إلى

---

[1] يقصد الكاتب مقام إبراهيم وحجر إسماعيل. (المترجمان)

[2] كان هناك أربعة مقامات داخل حدود المطاف القديم من جهاته الأربع، وكل مقام عبارة عن مصلى لأتباع كل مذهب من المذاهب الأربعة. وفّرت هذه المقامات مساحات من الظل للمصلين، وكذا وقايتهم من المطر، وأتاحت لهم أفضل سماع للأعداد الغفيرة لصوت الإمام – نظرا لعدم توفر مكبرات للصوت في ذلك الزمن. (المترجمان)

شيء منقطع النظير، لا يمكن أن يضاهيه أي شيء آخر على وجه البسيطة. لا يمكن أن أحدد ما إذا كان هذا الشعور يُعزى إلى عبقرية الموقع، أم إلى الصروح الضخمة، أو طريقة ترتيبها، أو الاعتقاد الهائل الذي يتعلق بالكعبة[1] التي تقع في المنتصف، ولكنه موجود بالفعل. أيًّا كان التفسير فإن تأثير هذا المشهد خارق، فبعض الحجاج يحدّقون في المشهد للمرة الأولى بلا حراك، وحتى أكثرهم تهورًا يُخيم عليهم الصمت المطبق من مهابة المشهد.

صلينا ركعتي تحية المسجد، ثم جلسنا لبعض الوقت تحت ظل أحد الأعمدة ننظر إلى المساحة المُضاءة بأشعة الشمس في هذا المشهد الأخاذ.

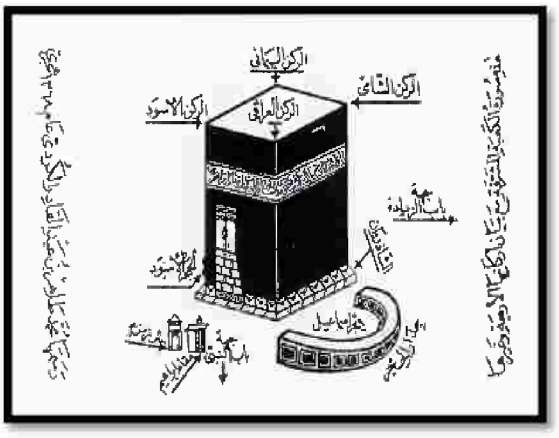

تبلغ جوانب الكعبة حوالي ثلاثمائة ياردة، بينما تبلغ الأعمدة المحيطة بها حوالي عشرين ياردة[2] في العمق، وهي مدعمة بأعمدة من الحجر، ويعلوها قبب صغيرة. أما أرضية الأعمدة فهي من الجرانيت المشطوف، ويكسو الكعبة حجارة، ويمكن الوصول إليها من خلال عدة ممرات ممهدة تلتقي في المركز. تتضمن المباني هناك: الكعبة، وبئر زمزم، والمئذنة، ومقام إبراهيم، والقوس الصغير، وحِجْر

[1] يعتقد المسلمون أن اسم "بيت الله" يعني تمامًا المعنى الحرفي للكلمة، لذا يخشى الكثير من الحجاج أن ينظروا لأعلى بالقرب من الكعبة في أيام الحج، ويعتقد البعض أن رفع أستار الكعبة يتم بواسطة أجنحة الملائكة. (الكاتب)

[2] هذه المقاييس تقريبية لأنها جميعًا بالعين المجردة، ويمكن الرجوع إلى الوصف الكامل للمسجد الحرام في كتاب السير "ريتشارد بيرتون" "رحلة حج إلى المدينة ومكة"، الملحق رقم 2. (الكاتب)

إسماعيل، وهو حائط نصف دائري بُني بجوار الكعبة. أما الكعبة فهي مكعب تامّ، له أوجه تبلغ مساحتها أربعين قدمًا مربعًا، وهي مبنية من كتل جرانيتية كبيرة، ولها باب خشبي مرصع بالحديد، وعلى مسافة حوالي ثمانية أقدام من مستوى سطح الأرض، لذا يستلزم الأمر استخدام سلّم لمن يريد الدخول. تقع الكعبة على ما يُشبه حوضًا من الرخام ذا شكل بيضاوي، ويبلغ أكبر قطر لها حوالي أربعين ياردة.

يتكون السور الخارجي للحرم من الطوب وهناك عدة منازل وحوانيت بالقرب من الواجهة الخارجية، كما يمكن لقاطني الطوابق العليا في هذه المنازل رؤية الحرم من الداخل. هناك حوالي ثماني عشرة بوابة للمسجد. يمكن الوصول إلى البوابة الرئيسية التي تقع في الجزء الشمالي من خلال درجات مبنية من الحجارة تؤدي إلى سوق صغير خاص بمحلات بيع الكتب، ينتهي عند البوابة نفسها.

لا يوجد أي شيء من هذه المباني له أدنى علاقة بالجمال المعماري أو القيمة المادية، فالبساطة الشديدة والصلابة الصارمة هما ما يُميز تلك التصميمات. يعتبر الحرم حديثًا إلى حدّ ما؛ لأن الكعبة أُعيد بناؤها عدة مرات، وهناك تاريخ كامل لمكة باللغة العربية.

تقدمنا نحو أحد الحراس الواقفين ليساعدنا في الشعائر التي يجب علينا فعلها، وأولها الطواف سبع مرات حول الكعبة. أخذنا يد الحارس الذي طلبنا منه المساعدة، وانخرطنا مع الحشد الذي يطوف حول الكعبة في إطار المساحة الممهدة التي تقع عليها الكعبة. كانت الساعة الثالثة عصرًا؛ وهو أشد الأوقات حرارة في اليوم، لذا كان المسجد غير مزدحم نسبيًّا، ولكن كان هناك حوالي ألف شخص يطوفون حول الكعبة. لا تخلو الكعبة أبدًا ليلًا أو نهارًا طوال العام من المسلمين؛ لأن الطواف له ثواب عظيم، خاصةً إذا كان الشخص الذي يطوف محظوظًا، وكان هو الشخص الوحيد الذي يؤدي الطواف، لذا فقد كان بعض الخلفاء الأوائل ـ مثل هارون الرشيد ـ يطوفون

وحدهم بالبيت، ويمنعون الناس من الطواف في نفس الوقت معهم، ولكن هذا لا يعدّ تحقيقًا للشروط المطلوبة لكسب ثواب فضل الطواف منفردًا حول الكعبة.

أثناء الطواف كنا نمشي في بعض الأحيان ونهرول في أوقات أخرى، ونحن نردد الأدعية خلف الحارس الذي كان يرافقنا. في نهاية الشوط السابع قَبَّلنا "الحَجَر الأسود" وهو حجر في ركن الكعبة على ارتفاع أربعة أقدام. كانت هناك فتحة في الستار الأسود الذي يكسو الكعبة حول الحجر الأسود الذي كان مُحاطًا بالفِضة، والجزء الذي يظهر منه يبدو عليه التآكل من قبلات الأتقياء من المسلمين. يُقال إن هذا الحجر قد سقط من الجنة، وفي حقيقة الأمر يبدو أن هذا الحجر من أصل نَيْزَكيّ.

صلينا ركعتين بعد الطواف وتركنا الحرم، وذهبنا لأداء السعي الذي يتكون من المشي بين الصفا والمروة – وهما جبلان صغيران تبلغ المسافة بينهما حوالي ثلاثمائة ياردة، يربط بينهما خط يوازي الجهة الشرقية للحرم، ويقع الطريق بينهما في الشارع المتاخم له. سعينا ذهابًا وإيابًا، وكنا نهرول في المكان الواجب فيه فعل ذلك، ونردد الأدعية طوال الوقت خلف المرشد الذي يرافقنا. يعتبر المرشد المرافق هامًّا، خاصةً فيما يتعلق بالأدعية الواجب ترديدها؛ لأنه يحفظها عن ظهر قلب، لذا يوفر على الحجاج عناء قراءتها من الكتيب الخاص بذلك أو ارتجال بعض الأدعية، وهو أمر قد لا يقدر عليه البعض. كانت الشوارع التي تعيَّن أن نمرّ بها مزدحمة بالمشاة والجمال وسائسي الأحصنة والمخلفات؛ لذا كنا نتقدم ببطء. عندما أنهينا الشوط الأخير صلينا ركعتين لندعو الله أن يتقبل منا ما فعلناه، ثم قصصنا جزءًا من شعر الرأس لنتحلل من الإحرام. أصبح بإمكاننا الآن أن نرتدي ملابسنا العادية، ونحيا حياة عادية مثل قاطني مكة حتى يحين موعد الحج. شعرنا بالارتياح لأننا سنذهب للمنزل؛ لأننا كنا مُتعبين، وكانت أقدامنا تؤلمنا. لقد كان المشي والهرولة ذهابًا وإيابًا ونحن حافيي القدمين أمرًا شاقًّا، كما أنني تعثرت أكثر من مرة في قطع حادّة من الحجارة، وهو ما

جعلني أتفوه بعبارات مختلفة تمامًا عما كنا نردده. لقد كان الاستحمام وتغيير ملابس الإحرام ما نرجوه؛ لأنه سيضع الأمور في نصابها الصحيح، وسيجعلنا ننظر نظرة متفائلة للأمور بشكلٍ عامّ.

الفصل الثامن

مكة

قضينا الأيام القليلة التالية نستكشف مكة في حُبور. كان هناك الكثير الذي يمكن فعله ورؤيته، كما كانت الأسواق المزدحمة مصدرًا دائمًا للتسلية والمتعة. كانت مكة أكبر من المدينة، حيث علمنا أن تعداد سكانها يبلغ 70000 بخلاف الحجاج، على الرغم من أني أظن - وفقًا لتقديري - أن العدد أكثر من هذا. ومع ذلك، فهناك ما يصل إلى 500000 حاج في أسبوع الحج يجب توفير إقامة لمعظمهم، لذا تكون معظم المنازل الموجودة بمكة مزدحمة لتلبية تلك الاحتياجات. كانت الشوارع نظيفة وواسعة، كما كانت المنازل تتكون من ثلاثة طوابق أو أربعة، وبعضها أكثر من ذلك. أما الأسواق الرئيسية فقد كانت مغطاة كما هو الحال في دمشق، وعلى الرغم من أنها لا تُقارن بالحوانيت هناك من حيث العدد والتنوع؛ إلا أن هناك بعض الحوانيت الجيدة، فالتجار يقدمون ما يُرضي الحجاج الذين يرغب معظمهم في شراء تذكار لتوثيق زيارتهم لمكة. لا توجد هناك صناعات محلية من أي نوع حتى أنني لم أستطع الحصول على أي شيء يمكن اعتباره من سمات المكان، فالبضائع مستوردة من كل البلاد المجاورة في الشرق: الحرير من سوريا، والسجاد من تركيا وإيران، والمصنوعات النحاسية من الهند ومصر. تذهب هذه الأشياء مع معظم الحجاج الذين يوقنون أن بوسعهم شراء نفس هذه الأشياء بجودة أفضل وسعر أقل من أماكن أخرى غير مكة. بالإضافة إلى التجار المقيمين، يُحضر التجار من كل أنحاء العالم الإسلامي بضائعهم إلى مكة خلال هذا الموسم؛ لثقتهم أن سلعهم ستلقى رواجًا وتحقق أرباحًا.

كانت حكومة مكة مختلفة فهي شبه مستقلة عن تركيا تحت حكم "الشريف" الذي يتم اختياره دائمًا من أُسر معيّنة تنحدر من نسل علي وفاطمة، ويعتبر هذا

الشريف عاهلًا مستقلًّا، فهو يعيش في قصر، وله مجموعة من الحراس، كما أنه يتمتع - من الناحية النظرية - بسلطات مطلقة في حدود منطقته، ويعامل نفس معاملة السلطان التركي، أو أي عاهل شرقي آخر. يفترض في نسل الشرفاء أن يكون نقيًّا وخاليًا من العيوب، فيمكن للمرء أن يرى في هؤلاء الشرفاء صورة العرب، كما كانوا موجودين في زمن النبي قبل فتوحات المسلمين التي أدت إلى تقديم العنصر الأجنبي لديهم. كان شريف مكة الحاليّ في الخمسين من عمره، ومتوسط الطول، وذا بِنية جيدة. كما كانت ملامحه عادية، وله لحية طويلة رَمادية اللون وبشرة داكنة.

كان هناك حامية من الأتراك في مكة، ولكنني لم أستطع معرفة عدد الجنود بالتحديد. يمكن للقلعة الكبيرة التي تطل على المدينة أن تستوعب ألفين من الجنود على الأقل، فقد كانت تبدو حصينة ومنيعة، ولكنها ليست مُجهزة لصدّ المدفعية الثقيلة بالطبع. لقد أصبحت القلاع قديمة هذه الأيام مثل البوارج أو السفن الحربية. تضمنت المباني الحكومية في مكة مبنى المحكمة ومكتب البريد والتلغراف وبعض مكاتب الحكومة. لم تكن هناك أية آثار ذات أهمية باستثناء بعض الآثار المقدسة للنبي والمشكوك في أمرها، وسأصفها فيما بعد. كان في مكة مسجد واحد بخلاف الحرم المكي.

لم يكن الجوّ في مكة عليلًا، ولم يكن صحيًّا بالمرة، فهو شديد الحرارة طوال العام وجافّ للغاية. تهطل الأمطار مرة أو مرتين، ولكنها تكون غزيرة جدًّا.[1] تعتبر مكة مدينة مُغلقة بسبب الهضاب التي تحيط بها، لذا نادرًا ما يصلها الهواء العليل وتزيد الحرارة التي تعكسها الصخور من اللهيب في وضح النهار، كما أنها تجعل الهواء خانقًا بالليل. من المعتاد في السنوات التي يأتي فيها الحجّ في فصل الشتاء أن ينتقل موظفو الحكومة والمواطنون الأثرياء إلى الطائف، التي تبعد عن مكة حوالي

[1] في العام التالي هطلت الأمطار بغزارة، وأغرقت الحرم وتسببت في إغراق بعض الأشخاص. (المؤلف)

مسيرة ثلاثة أيام في اتجاه الجنوب الشرقي، خلال فصل الصيف لأن جوها أكثر برودة، وبها إمدادات جيدة من المياه وأرضها خصبة. أما مكة فتعتبر أرضها جرداء في الأغلب، ولم أر أي شيء يُزرع في أي مكان في المنطقة. يعتمد قاطنو مكة على الإمدادات من مصادر خارجية، وكنت دائمًا أتعجب من أين يأتي كل الطعام اللازم لهذا العدد الهائل من الجمال. يبدو أن هناك مساحة من المراعي مخصصة لهم بين الجبال.

بئر زمزم في الحرم هي البئر الوحيدة الموجودة في مكة، أما مورد المياه فيأتي من العيون الموجودة في جبل عرفة، حيث تصل المياه إلى مكة من خلال مجرى جوفي يمر بمكة، يتم تتبعه في عدة أماكن من خلال حفر تُشبه الآبار. هناك طبقة من المجتمع متخصصة في سحب المياه من الآبار، وحملها في قِرَب ثم توريدها إلى المنازل، مقابل أجر شهري يختلف حسب الاستهلاك. تعتبر المياه جيدة ما لم تتلوث، كما أن الكمية الموجودة تعدّ كافية إذا لم يكن هناك أي انسداد؛ وهو الأمر الذي يحدث في بعض الأحيان.

هناك العديد من المقاهي الجيدة التي تجني أموالًا طائلة في هذا الموسم، ويمكن شراء الأطعمة الطازجة، مثل: اللحوم والدجاج والخضروات، بأسعار معقولة جدًّا، ولكن الفواكه قليلة ونادرة. بعد أن أكملت جولتي أعتقد أنني إذا قارنت بين المدينتين (مكة والمدينة) سأفضّل العيش في المدينة.

عادةً ما كنت أخرج مع عبد الواحد؛ لأنه لم يكن من الجيد بالنسبة لي أن أُشاهَد مع مسعودي. كنا نذهب إلى الحرم لأداء صلاة الظهر، ثم نذهب مرة أخرى في المساء نؤدي فيها الطواف - بعد طواف القدوم - الذي يتكون فقط من سبعة أشواط حول الكعبة يردّد فيها المرء ما يشاء من الأدعية، أو حتى لا يقول فيها أي شيء على الإطلاق. خلال الشهر الذي قضيته في مكة أتيحت لي الفرصة أن أستطلع الجوانب

الهامة، وأن أحصل على معلومات تتعلق بذلك، ولكن لا مجال للحديث عنها في هذا المقام.

اشتريت بعض الصور من أحد المحالّ لبيع الكتب في الشارع الصغير المؤدي إلى البوابة الرئيسية للحرم، وقد أخبرني صاحب المحل المولود في مكة عن قصة كل صورة، وهي مكتوبة بالفعل على الصورة. بعد أن تجاذبنا أطراف الحديث لبعض الوقت أراني بعض الصور والكروت التي لا يمكن أبدًا أن نستخدمها في بريطانيا في المراسلات. لقد أساء فهم حماسي الذي لم أستطع إخفاءه، لذا أخذني إلى الجزء الخلفي المُظلم في محله، وأحضر ألبومًا لصورٍ لا يمكنني الإشارة إلى طبيعتها بمزيد من التفصيل. كان من الواضح أن التقاط الصور غير الاحترافية هو أحد الهوايات الأقل احترامًا لهذا الرجل العجوز.

لقد ذكرت هذه الواقعة لأنها لا يمكن تصديقها في الغالب بالنسبة لأولئك الذين يعلمون كيف يُنظر إلى مكة وأهلها في الدول الإسلامية، فلا يمكن أن يتصوروا أن يحدث شيء مثل هذا على بعد عدة أمتار من الكعبة. فأهل مكة يتمتعون بقدر من التبجيل حتى أنه في الدول الأجنبية يمكن أن يوقفهم البعض في الشوارع لتقبيل أيديهم. يعتقد الجميع أن تبجيل الكعبة عادة ما يؤدي إلى خوف إيجابي ينأى بالمرء عن ارتكاب الذنوب، ومع ذلك فهنا على أعتاب الحرم يمكننا أن نجد ما ذكرته آنفًا.

يمكن القول أن صاحب محل بيع الكتب كان عليه أن يتأكد من نوايا العملاء؛ حتى يكون على بينة من أمره، قبل أن يُري عملاءه مثل هذه الصور، ومن الواضح أنني قد أعطيته انطباعًا خاطئًا من دون قصد. على الرغم من تعرض سكان المدن المقدسة لكل الرذائل من شتى بقاع الأرض، وكذلك بعض الأمور التي تتعلق بالتقدم العصري إلا أنهم ظاهريًّا أكثر الناس اعتراضًا على النفاق، لذا يأخذ معظم زوارهم أفضل انطباع ممكن عنهم. في هذا الموسم خاصة يتحلون بأفضل الصفات

والسلوكيات، ومعظم القصص المثيرة عما يحدث هناك عند الكعبة لا أساس لها من الصحة.

لقد تورط السير "ريتشارد بيرتون" في الكثير من المتاعب عندما ترجم "ألف ليلة وليلة" حرفيًّا وبدون أي تنقيح. إن مطالعة هذا الكتاب قد يُعطي القارئ فكرة عن الأدب العربي، وكيفية مزجه بين الأمور الخطيرة والبسيطة، والدين والخرافات، ومبادئ الأخلاق الحميدة مع التهكم اللا أخلاقي. ومع ذلك فإن "ألف ليلة وليلة" في أكثر مقاطعها جُرأة تعد شيئًا هينًا إذا ما قورنت ببعض الكتب الأخرى المعروفة، فأحد الكتب التي بحوزتي هو كتاب "زهر الربيع"[1] لأحد علماء الشريعة الذي ذكر في مقدمة الكتاب أنه كتبه للترفيه عن طلابه الذين يُجهدون من دراستهم الدينية المُضنية. يبدأ الكتاب بحمد الله والثناء عليه، والصلاة على رسوله، وهو استهلال لا غنى عنه في الكتب العربية في أي مجال من المجالات. يحتوي الكتاب على بعض القصص من التراث التي تُثبت أن المُزحة تعدّ أمرًا جيدًا إذا ما قيلت في مقامها الصحيح، ثم يتبع ذلك تعليق بسيط على بعض الآيات القرآنية الغامضة، وهو أمر لا علاقة له بما ذكر قبله. يعقب ذلك قصة أخرى لا علاقة لها بالمرة بالسياق، وبعض أبيات الشعر التي يمكن أن تعتبر غير لائقة؛ إذا قيلت في أحد حانات "عمورة"[2]. قبل أن يتعافى القارئ من هذا يجد نفسه في جدال ديني؛ لأن الكاتب الموقر يأخذ أتباعه الحائرين في جولة على مدار أربعمائة وأربعين صفحة؛ ليناقش أكثر الأمور بلبلة في مجال الدين، والتاريخ، والفلسفة، والإثارة الجنسية، وغيرها. تأتي كل هذه الأمور متشابكة مع بعضها البعض، مع الاستشهاد ببعض الآيات من القرآن المنقولة نصًّا، وبعلامات التشكيل. ويبدو أن الكاتب لم يبذل أي جهد في مراجعة الكتاب بعد الانتهاء منه؛ لأن

---

[1] "زهر الربيع" كتاب مثير للجدل منسوب لآية الله السيد نعمة الله الجزائري، وقد شكك البعض في نسبة الكتاب له لما فيه من أشياء تخدش الحياء. (المترجمان)

[2] سدوم وعمورة بحسب ما جاء في القرآن والعهد القديم هي مجموعة من القرى التي خسفها الله؛ بسبب ما كان يقترفه أهلها من مفاسد، ويعتقد الباحثون أنها تقع في منطقة البحر الميت وغور الأردن. (المترجمان)

به الكثير من القصص المكررة، وهناك قصة ذات طابع غير عادي، يبدو أنها أثارت ضحك الكاتب بصورة كبيرة؛ لأنه أعادها خمس مرات.

إن اقتباس نصوص في غير موضعها من كتاب مقدس - لا يمكن أن يمسه المرء إلا إذا كان متوضئًا - لا يبدو للعقلية العربية أمرًا نابيًا. ولهذا السبب تبدو الملاحظات المسهبة في كتاب "زهر الربيع" وكأنها تمثل التبجيل الرهيب للقرآن؛ وفي الوقت ذاته تُمثل الإغفال المطلق لمدركاته الشائعة في بلاد المسلمين. وهناك مثال آخر لأحد الأعمال الدينية الذي يعتبر هامًّا للغاية، ويُنصح الآباء بتعليمه لأبنائهم وتحفيظهم إياه، مع أنه لا يحتوي على أية توجيهات تتعلق بالسلوك الأخلاقي، ولكنه يتعلق بأمور تختص بالوضوء الذي يجب القيام به بعد نقضه.

إن طريقة التفكير الناتجة عن كل هذه الأمور تؤدي بالضرورة حتمًا إلى - ما نعتبره- انحرافًا غريبًا، وهذا مثل الكتاب الذي أدى إلى هذا الاستطراد.

في الحقيقة يُعتبر الناس من أهم الملامح المميزة للمكان، فكل ما قيل في وصف حشود الحجاج في المدينة ينطبق على المكان هنا أيضًا، ولكن بصورة أكبر؛ لأنه بينما يعد أداء الحج في مكة فرضًا على كل مسلم قادر على ذلك، إلا أن زيارة المدينة تعد أمرًا اختياريًّا؛ لمن هو قادر من الناحية المادية على فعل ذلك، وهو أمر يستطيع فعله حوالي ربع من يأتون لأداء فريضة الحج فقط.[1] إن الجمع الغفير الذي يؤدي صلاة الجمعة في أسبوع الحج يعد مشهدًا يستحق المشاهدة حقًّا!

من بين كل الحجاج الذين يأتون من كل حدب وصوب من جميع الجنسيات استرعى انتباهي أولئك الذين جاءوا من جزيرة "جاوة".[2] لم يكن مظهرهم يختلف عن اليابانيين، فقد كان لديهم نفس الطابع المادي، وكانوا فضوليين تجاه كل ما هو جديد

---

[1] ليس من الصحيح الإشارة إلى الذهاب إلى المدينة على أنه "حج إلى المدينة" لأن من يذهب إلى هناك لزيارة قبر النبي أو من يذهب إلى مكة في غير موسم الحج يُسمى زائرًا. (المؤلف)

2 هي جزيرة في إندونيسيا، وبها عاصمة البلاد جاكرتا. تعد الجزيرة الأكثر اكتظاظًا بالسكان في العالم. (المترجمان)

بالنسبة لهم، كما أنهم سرعان ما يتبنون أي فكرة جديدة، يمكن أن تعتبر تطويرًا لما كانوا يفعلونه من قبل. في هذا المقام يعتبر سكان "جاوة" مختلفين تمامًا عن العرب، وعن معظم الشعوب الشرقية؛ الذين يمثل التحفظ الشديد لديهم حجر عثرة في طريق التقدم. يبدو أن اليابانيين قد اتفقوا على الاقتداء بإنجلترا كنموذج يُحتذى به، بينما يسعى سكان جاوة إلى الاقتداء بالعرب. إن أول ما يفعلونه فور وصولهم إلى مكة هو ارتداء ملابس أهل البلد التي لا تناسبهم على الإطلاق. أخبرني البعض أن كثيرًا من السكان في "جاوة" يرتدون ملابس أهل الحجاز لدرجة أن من يزور تلك البلد قد يظن نفسه في الحجاز. يبدو أن معظم أهل جاوة ميسوري الحال؛ لأنهم ينفقون الكثير من النقود في مكة أكثر من أي طائفة أخرى من الحجاج، كما أنهم غالبًا ما يدفعون مائة جنيه إسترليني للمكان الذي يستأجرونه للإقامة في منى لمدة ثلاثة أيام أثناء الحج. إنهم مسلمون حريصون على دينهم، ولغويون بارعون، ومطلعون على الأمور الجارية أكثر من العرب أو الأتراك. ذات مرة، قال لي شخص يُدعى عبد الرحمن – تعرفت عليه فيما بعد - عبارةً عنهم؛ ظلت ماثلة في ذهني، وأتذكرها دائمًا: "إن أملنا في المستقبل يكمن في هؤلاء الأشخاص، وليس العرب أو الأتراك، فهم يمتلكون كل الصفات التي نفتقر إليها نحن العرب، وسيأخذون من أوروبا مخترعاتهم، ويستخدمونها ضد أعدائنا، تمامًا مثلما فعلت اليابان مع روسيا."

لا أعلم عن هذا الجزء من الشرق أكثر مما يعلم هو، ولكن في الواقع هناك الآن الملايين من المسلمين في الصين، وجاوة، و"أرخبيل الملايو"[1] وأعداد المسلمين هناك في تزايد سريع. لذا فمن غير المحتمل أن يكون صائبًا في افتراضه أن هذه الفروع الجديدة من المسلمين في الشرق الأقصى قد تكون مصدر قوة للإسلام في المستقبل القريب. على من الرغم من وجود الجرائد فلا تزال أوروبا جاهلة في بعض

1 أرخبيل ملايو أكبر أرخبيل في العالم من حيث المساحة، ويقع بين جنوب شرق آسيا وأستراليا. (المترجمان)

الأمور، فقد نظر آباؤنا لليابانيين بنفس الطريقة التي ننظر بها نحن اليوم إلى "الزولو"[1]، ومن المحتمل أن تلومنا الأجيال القادمة؛ لأننا لم تكن لدينا الحصافة الكافية في مثل هذه الوقائع. يُظهر بعض الأوروبيين تغطرسًا عند الحديث عن جنس "الحكام" و "الرعية"، وقد يكونوا مُحقين في زعمهم أن السلطة والحضارة في العالم ستظل متمركزة في شعوب غرب أوروبا إلى الأبد، ولكن لا يوجد دليل على هذا الادعاء، فالتفكير الاستقرائي المبني على المعلومات التي لدينا عن تاريخ العالم يؤدي إلى الوصول إلى نتيجة مختلفة عن ذلك. في الحقيقة، تعتمد نظريتهم على افتراضات غير مبررة تمامًا، مثل تلك التي أدت إلى "الإجحاف العنصري".

نجحنا في تكوين صداقات عديدة خلال الأسبوع الأول، معظمهم من أصدقاء عبد الواحد القدامى، أحدهم كان ضابطًا في كتيبة بغداد، وهو من عرفنا على عبد الرحمن الذي ذكرته آنفًا. كان عبد الرحمن رجلًا مسنًّا من سكان مكة الأصليين، مسئولًا عن حاملات المياه التي توزع من البئر المقدسة، وكذلك جيش الحراس الذين يوزعونها في الحرم. يعتبر إعطاء أولئك الحراس نقودًا مقابل عملهم نوعًا من أنواع الصدقة المقبولة؛ لأنه يساعد على توفير المياه مجانًا لكل الزائرين.[2] يبادر الكثير من الناس بدفع الصدقات في هذا المجال، حتى أصبح الأمر مصدرًا للإزعاج، فكل دقيقتين يزعجك أحدهم لتأخذ من المياه المقدسة التي تجلب الحكمة وبركات أخرى عديدة، ولكنها مع ذلك ليست نقية، فمياه بئر زمزم راكدة، ولكن يُعتقد - وفقًا للقصص التاريخية[3] - أنها شفاء لكل الأسقام الجسدية والروحية. إن أفضل هدية يمكن أن

---

[1] الزولو هم مجموعة من القبائل الأفريقية اشتهرت بخصائصها القتالية الباسلة، واشتهروا خلال حربهم مع بريطانيا، فيما عرف باسم حرب البوير، التي وقعت في جنوب إفريقيا بدءًا من عام 1879. (المترجمان)

[1] يُحضر بعض الناس المياه إلى منازلهم لاستخدامها في الاستحمام وغسل الثياب، ويبدو أن هذا الأمر قد أدى إلى اعتقاد البعض أن المسلمين يغتسلون في البئر نفسه، وهذا اعتقاد خاطئ، فهم لا يفعلون ذلك؛ لأن البئر على عمق أربعين قدمًا. أما المياه فيمكن استخدامها في الوضوء. (المؤلف)

[2] هناك الكثير من الأدلة في السنة النبوية على فضل ماء زمزم، وليس المصدر هو مجرد قصص تاريخية أو أساطير كما ذكر الكاتب. (المترجمان)

يحضرها المرء من مكة هو وعاء مستدير به بعض من ماء زمزم، إلا أن المشكلة الوحيدة في ذلك أن المسئولين غير الأتقياء في أول نقطة فحص سيلقون بالمياه في البحر على الأرجح.

لقد كانت مهمة سقاية الحجاج وظيفة أسرة عبد الرحمن، ويبدو أنها كانت كذلك منذ عدة سنوات. كان عبد الرحمن شخصية ذات نفوذ، وثبت أن معرفته كانت مفيدة جدًّا بالنسبة لنا، فقد أمر أن يُخصص لنا مكان في الحرم بجواره هو وأصدقائه، كما كان السجاد يُفرش لنا، أثناء النهار في الظل، وفي الخارج أثناء الليل. كان هذا الأمر مريحًا جدًّا بالنسبة لنا، خاصة في يوم الجمعة، الذي يضطر فيه معظم الناس إلى الذهاب قبل موعد الصلاة بعدة ساعات؛ ليتمكنوا من الجلوس في الظل، وإلا فسيُضطرون للجلوس في المربع المكشوف في منتصف النهار، وهذا أمر شاق جدًّا. أما بالنسبة لنا فقد كان بإمكاننا الذهاب في أي وقت نشاء؛ ونحن واثقون من الجلوس في مكان جيد مخصص لنا من قبل الخدم الطائعين لعبد الرحمن، وقد كان كل هذا مجانًا، فيما عدا بعضًا من البقشيش، وهو أمر لا بد منه. دعاني عبد الرحمن إلى منزله الذي يطل على الحرم، وقد زرته مرتين، واحتسيت معه الشاي. كان مضيافًا للغاية، وطلب مني أن أكتب اسمي في سجل الزوار، حيث يبدو أن جمع التوقيعات هو إحدى هواياته. اتضح أنه يبغض النساء، وأنه أعزب، وهو ما يعد أمرًا غريبًا في الشرق. أخبرني أن الطبيعة الشريرة لأخته المسئولة عن البيت هو السبب في بغضه للنساء بشكل عام. كان من الواضح أنه لا يبدي أي تعاطف مع الدستور الجديد أو البرلمانات أو أي شيء من هذا القبيل، فقد كان من أشد المعجبين بعبد الحميد وبالنظام القديم الذي كان يتمنى أن تعود إليه بلاده مرة أخرى. كنا نتفاهم جيدًا لأنني كنت أوافقه الرأي في معظم آرائه السياسية، ومع ذلك ففي زيارتي الثانية له أصبحت أسئلته عن أسرتي، وعن أمور أخرى تتعلق بي - مُحرجة للغاية، لذا قررت أن

أرفض أي دعوات أخرى من جانبه في المستقبل؛ لأنني شعرت أن موهبتي في التأليف لن تتحمل المزيد من الضغوط.

زرنا سوق بيع العبيد أكثر من مرة[1]. أعتقد أن مكة هي أحد الأماكن القليلة التي تجري فيها تجارة الرقيق علنًا. يجلس الإماء - الذين يوضعون في غرف عرض خاصة في طابور - على أريكة طويلة، موضوعة على منصة مرتفعة. كان جميعهم من الإماء، أما العبيد من الرجال والخصيان، فيتم بيعهم من خلال اتفاقيات خاصة، ولا يعرضون في الأسواق. يدعو المالك المشتري إلى كل غرفة، ويُسهب لبعض الوقت في ذكر مزايا سلعته، والسعر الزهيد الذي يطلبه في المقابل، بينما يحق للمشتري - إذا رغب في ذلك - أن ينكز الجارية في ضلوعها، أو يختبر أسنانها، أو غير ذلك، مما يجعله يتأكد أنها في أتم صحة وعافية، وهو أمر عادةً ما يضمنه المالك. أما ضمان كونها لم ترتكب أي خطيئة من قبل، فهو من غير المعتاد؛ لأنه سيقلل من قيمة الجارية.

عند الشراء يمكن للمرء أن يدفع السعر المعروض عليه، أو أن يقدم هو عرضًا، وهو ما يتم تدوينه، ثم الموافقة عليه، إذا لم يتم تقديم عرض أفضل خلال فترة زمنية محددة، وهذه هي إحدى الطرق المعتادة لبيع البضائع من أي نوع في بلاد الشرق.

يتراوح السعر المعتاد للجارية من عشرين إلى مائة جنيه إسترليني، وقد يزيد عن ذلك، إذا ما كانت الجارية من جورجيا[2]، أو من الشركسيين، الذين يتمتعون بالجمال ورشاقة القوام، أو بقدر من التعليم. سألت عن هؤلاء الجواري، ولكن أخبرني البعض أنه لم يأت أي منهن هذا العام إلى مكة؛ لأن عددًا كبيرًا منهن قد مات في العام الماضي بسبب الكوليرا. عرض عليّ جميع التجار أن يُحضروا لي واحدة إذا أردت

[1] أعتقد أن هذا الأمر قد ألغي منذ ذلك الحين. (المؤلف)
[2] الجورجيون هم شعب جنوب القوقاز. (المترجمان)

وأن يضمنوا مطابقتها للمواصفات، إلا أنني لم أكن أرغب في عقد صفقات بهذه الطريقة، كما أنه لم يمكن الحصول على أي منهم على سبيل الهدية.

سيلاحظ القارئ أن الرقّ الذي نتحدث عنه هو ببساطة نوع من التسرّي المباح، فهؤلاء الجواري يبيعهم آباؤهم - وهو أمر خاطئ بدون أدنى شك - إلا أنه قد يكون العائد المادي الوحيد في النظام الذي يعيشون فيه. فكما أشرت من قبل، يعتمد المجتمع الإسلامي على أسس مختلفة تمامًا - فيما يتعلق بالعلاقات بين الجنسين - عن أفكار الغرب في هذا الصدد. أما الرقّ المبني على العمل قسرًا بدون مقابل مادي، فلا يمكن القول أنه لا يزال موجودًا في وقتنا الحالي؛ لأن العبد إذا لم يكن راضيًا عن أحواله يمكنه الهرب بسهولة.

يمكن توقع سلوك الجواري خلال عملية الفحص، فالفتيات الأصغر سنًّا يحمرّ وجههن خجلًا، ويضحكن، ثم يتظاهرن بإخفاء وجوههن، وعندما يكون العملاء الذين يتفقدونهن أيضًا من الشباب المرحين، الذين يحبون الدعابة، غالبًا ما يشاركن في الأمر. أما كبار السن بينهن، اللاتي يكن يائسات من إيجاد من يشتريهن، فعادةً ما يجلسن كالبؤساء تعيسي الحظ، وينظرن بلامبالاة أمامهن، غير مكترثات بالأمر برمّته. إن النظرات البائسة التي تبدو على وجوههن قد تدفع البعض إلى شرائهن كنوع من الشفقة، وهذا أمر قد يفعله بعض المحسنين أحيانًا، ولكن بدون وجود أعمال منزلية يقمن بها، يكون شراؤهن لا طائل منه؛ لأن إعتاقهن يعدّ تمامًا مثل تركهن في الخارج ليمتن جوعًا، وعادةً ما يُسلمن أنفسهن لمالكهن القديم في الحال مرة أخرى؛ لأنهن على الأقل يكن واثقات من الحصول على الغذاء والمأوى، كما أنهن حينها يرين أن المشتري ذا النوايا الطيبة الذي أعتقهن أحمق.

كما رأينا؛ لا يشجع الدين الإسلامي على تجارة الرقيق، كما أنه لا يسمح بها إلا في إطار أسس صارمة للغاية، فيمكن للعبد أن يشتكي من المعاملة السيئة لسيده،

ويرفع أمره للقاضي على الفور، الذي يمكن في الحالات الحرجة أن يعتق العبد من سيده المعتدي. تهتم القوانين بالعبيد وحقوقهم أكثر مما تهتم القوانين بالخدم في البلاد الأخرى. بالطبع توجد هناك بعض الإساءات في المعاملة، ولكنها ليست بسبب بعض الثغرات في القانون، بل بسبب عدم تطبيقه. تكمن الفكرة الرئيسية وراء سوق الرقيق في أن يجد كل عبد مشتريًا له.[1]

بعد أن قضينا أسبوعًا في مكة، قابل مسعودي أحد معارفه القدامى، وهو صبي في الثالثة عشرة من عمره، يدعى "قبي" سافر مع والده – الشيخ محمد - على متن نفس السفينة من "مومباسا" إلى "بورسعيد" في بداية العام. بعد ذلك سافرا من ينبع إلى المدينة، وقررا البقاء هناك لحين قرب موعد الحج، وعند مجيئهما إلى مكة توفي الشيخ محمد عند مدخل مكة، قبل وصولنا بشهر، وبقي "قبي" وحده في حالة بائسة. تمكن "قبي" من مقابلة بعض أقران بلدته، الذين أعطوه بعضًا من النقود لمساعدته، وظل يحدوه الأمل أن يقابل صحبة من الحجاج؛ ليأخذوه معهم إلى "زنجبار". كان هناك عدد من السواحليين والعرب من هذا الساحل يعيشون في مكة، وبالطبع كنت حريصًا على أن أتجنب مقابلة أي منهم ولكن مسعودي الذي تعرف عليه أحدهم لم يستطع فعل ذلك. ذهب مسعودي مع "قبي" لزيارة شيخهم، ولذا قابل الكثير منهم، وأخبرهم أنه جاء إلى هنا مع اثنين من أثرياء العرب، أحدهما من بغداد والآخر من مسقط، وأنه يعيش معهم، ولكنه خادمهم، لذا لا يستطيع أن يدعو أي أحد إلى المنزل. فكرت في أن أصطحب "قبي" معنا في طريق العودة؛ لأنني أعرف بعض الأصدقاء في "مومباسا" على علاقة به، لذا أخبره مسعودي أن صديقه الذي من مسقط علم بما حل به، وقرر أن يعيده إلى بلده، وأن يعطيه مبلغ من المال كل

[1] على الرغم من كل المحاولات لمنع ذلك، والقوانين الصارمة المُفعّلة في موانئ مصر والسودان، إلا أن الكثير من الأطفال يُجلبون من أفريقيا إلى مكة كل عام، ليتم بيعهم في سوق الرقيق، كما أن الاختطاف في مكة يعد شائعًا إلى حدّ ما؛ لأن التجار الذين يكون معظمهم أوغادًا لا يسألون أي أسئلة. (المؤلف)

أسبوع خلال فترة بقائنا هنا. شعر "قبي" بالسعادة الغامرة، وعرض أن يخدمنا طوال فترة مكوثنا في مكة ولكن مسعودي أخبره أن لدينا خدامًا كثيرين بالفعل. كان "قبي" يعرفني شكلًا؛ لذا لم يُسمح له بدخول المنزل إلا بعد مغادرتنا. في الحقيقة، إذا كان "قبي" يعرف قدرًا أكبر من اللغة العربية، ويتمتع بالحصافة، كان يمكنه التقدم لطلب المساعدة من أحد الحجاج الأثرياء، وهو الأمر الذي كان سيؤتي ثمارًا وافرة بنسبة كبيرة. يعتقد المسلمون أن أي نوع من أنواع الصدقة في أيام الحج خاصةً في مكة يكفّر الكثير من الخطايا؛ لذا يكون معظم الناس حريصين على البحث عن حالات حقيقية تستحق الصدقة. علاوة على ذلك، يعتبر الأيتام محلًّا للشفقة في البلدان العربية.

عقب مقابلته لـ"قبي" عاد مسعودي إلى الغداء ومعه بشرى سارة للغاية، فقد تلقى خطابًا من شيخ "مومباسا" – الذي طالما انتظرناه في جدة - يعرب فيه عن أسفه لأنه لن يتمكن من الحضور هذا العام، ولا أي فرد من مجموعته. أثلج هذا الخبر نفوسنا جميعًا، وشعرنا بالراحة. اطمأننت الآن إلى أن أحدًا لن يعرف هويتي الأوروبية إلا إذا كان هناك سبب آخر للشك، غير وصول مجموعة من الحجاج الذين يمكن أن يتعرفوا عليّ إذا ما قابلوني صدفة في أي وقت، وهو الأمر الذي كان سيمثّل خطرًا محدقًا، وسيعكر صفو إقامتنا بصورة دائمة، إلا إذا تمكنا من ضمان صمت الشيخ نفسه، وهو ما كان أمرًا غير مؤكدًا. أصبحنا الآن واثقين أنه لن يأتي المزيد من الحجاج الذين يمكنهم التعرف عليّ عند رؤيتي، وأصبح الخطر الوحيد الآن هو أن نقابل الأربعة أشخاص الذين قابلناهم في المدينة، والذين كان من المتوقع أن يصلوا قريبًا؛ لأنني أعتقد أنه من العسير أن نبقى بعيدًا عن الأنظار في مكان بمثل مساحة مكة.

خصصنا نهار أحد الأيام للقيام بجولة لزيارة الأماكن التاريخية التي تكونت هنا من بعض الآثار المقدسة للنبي وآله، والتي أعتقد أنها مشكوك في صحتها. ذهبنا

إلى مجموعة من المقابر تبعد عن مكة مسافة قليلة على شمال الطريق المؤدي "لمنى" دُفنت فيها السيدة خديجة زوجة النبي الأولى، بالإضافة إلى عمه العباس، وأبو طالب – والد علي الصحابي المعروف - وبعض الصحابة الآخرين غير المشهورين. تُشبه هذه المقابر مقابر البقيع في المدينة، ولكنها في حالة أفضل نسبيًّا. يعدّ الأمر غريبًا بالنسبة لأبي طالب؛ لأنه مات كافرًا، ولكن الزائر يقرأ له الفاتحة وفقًا للروح المتسامحة للعصر. عند زيارتنا لهذه المقابر حاصَرَنا حشدٌ من المتسولين - كالعادة - الذين تشبثوا في ملابسنا، ورفضوا السماح لنا بالعبور مطلقًا، إلا بعد أن وزعنا عليهم الهبات. من الضروري أن يحتفظ المرء بمجموعة من النقود المعدنية لهذا الغرض، وهذه النقود يساوي الألف قطعة منها دولارًا واحدًا.

قابلنا في طريقنا مجموعة من الهنود، واتفقنا معهم أن نتقاسم أجرة المرشد الذي سيأخذنا في جولة في المقابر والأماكن الأخرى التي سنزورها. كان أحد الهنود رجلًا سمينًا يرتدي ملابس أوروبية، وأخبرنا أنه كان نائب القنصل البريطاني في مكان ما في الخليج العربي. تحدث هو وعبد الواحد بالإنجليزية طوال الوقت، وكان عبد الواحد يترجم لي أحيانًا. كان الرجل الهندي يتحدث الإنجليزية جيدًا، لدرجة أنه لولا مظهره لاعتقدت أنه بريطاني، فقد بدا واسع المعرفة؛ لأنه زار دولًا كثيرة منها بريطانيا و"زنجبار". سألني ما إذا كنت أعتبر جهلي التامّ للغة الإنجليزية يُعدّ أمرًا مُزعجًا، فأجبته قائلًا: إنني فكرت كثيرًا في تعلّم الإنجليزية، ولكن منعتني صعوبة القواعد اللغوية.

كان من الممكن أن يكون لهذه الزلة آثار فادحة، وأعتقد أنه كوّن فكرة عنّا لم تكن مختلفة كثيرًا عن واقع الأمر، قبل أن نتمكن من التخلص منه، ولكننا لم نعلم عنه أي شيء بعد ذلك.

بعد مغادرتنا للمقابر زرنا البيت الذي ولد فيه الرسول، وشاهدنا غرفة في القبو الذي يتوسطه هيكل حديدي معلق بستائر. جثونا إلى الأسفل، ووضعنا رؤوسنا في فتحة في الهيكل المعلق، ثم قبلنا جزءًا مستديرًا من الرخام يشير إلى الجزء الذي ولد فيه النبي تحديدًا.[1] يعتبر المنزل حديثًا إلى حدّ ما، لذا يشك معظم الناس في حقيقة هذه الادعاءات. من الواضح أن القصص التي تتعلق بالسنوات الأولى في حياة النبي وأتباعه، لا تتمتع بنفس القدر من المصداقية التي حظيت بها السنوات الأخيرة، التي تعتبر معظمها تاريخية.

بعد ذلك زرنا المنزل الذي ولد فيه "علي"، وقمنا بنفس ما فعلناه سابقًا. كنت دائمًا أعتقد أنه ولد في الكعبة، وقد أقر المرشد الذي كان معنا أن هناك آراء مختلفة حول هذا الأمر. ذهبنا في النهاية إلى المنزل الذي كان يعيش فيه النبي "محمد" مع خديجة لسنوات عديدة. يبدو هذا الموقع حقيقيًّا، ولكن المبنى الحالي جديد. كان المنزل مبنيًّا في مكان منخفض يُشبه الحفرة، لذا كان لزامًا أن ينزل الزائر عدة درجات إلى الأسفل حتى يصل إلى الغرف الثلاثة التي تُمثل الحجرات التاريخية. صلينا ركعتين في إحدى هذه الغرف، وقرأنا بعض الأدعية من الكتيب الذي معنا، تتضمن بعض الابتهالات، ولكن لم يكن هناك شيء محدّد لنراه.

نسيت أن أتحدث عن المسجد الموجود تحت الأرض، والمخصص للمؤمنين من الجن[2]، ولكنه لا يستحقّ أي وصف تفصيلي. يعطي المظهر العام وجو المسجد انطباعًا مماثلًا لثقب كلكتا الأسود.[3]

---

[1] هناك شيء مماثل لهذا في بيت لحم. (المؤلف)

[2] يذكر القرآن وجود مخلوقات غير الإنسان والأرواح، وهذه المخلوقات هم الجن، كما تستخدم الكلمة في اللغة الإنجليزية، ولهم وجود في القصص العربية. بعض الجن صالحون وبعضهم أشرار مسلطون على البشر، وترجع ظاهرة السحر القديم وتحضير الأرواح لهم. (المؤلف)

[3] زنزانة صغيرة في قلعة ويليام القديمة في كلكتا، سُجن فيها الجنود البريطانيون من قبل البنغال بعد الاستيلاء على القلعة عام 1756م. (المترجمان)

كان الشيء الوحيد الذي يجدر بنا زيارته في مكة، هو المسجد الموجود على قمة جبل "قبيس"[1] ولكن أخبرني البعض أنه لا يوجد شيء يمكن رؤيته، وأن الجبل مرتفع، لذا لم نذهب إلى هناك. كان هذا اليوم عطلة رسمية؛ احتفالًا بافتتاح البرلمان التركي الجديد، لذا أُطلقت النيران في منتصف النهار، وفي الليل كانت هناك محاولات للإنارة وبعض الألعاب النارية. كانت هناك فرقة أمام منزل الشريف تقوم بعرض المشاعل، كما تجمعت بعض الحشود لمشاهدتهم.

لم يكن سكان مكة متحمسين للدستور، مثل أهل المدينة أو دمشق. فلم يكن الأمر يُثار في المحادثات إلا نادرًا، ومعظم الناس الذين تحدثت معهم عن هذا الأمر كان يبدو عليهم الشعور بالملل من الأمر برمّته. على الرغم من ذلك كانت الصحيفة المحلية تزخر بالثناء على الحريات الجديدة، وما شابه ذلك. كانت هذه الصحيفة شيئًا جديدًا في مكة، فقد كانت تصدر أسبوعيًّا باسم "الحجاز"، وتتألف من أربعة صفحات نصفهم باللغة التركية، والنصف الآخر بالعربية. عندما كان رئيس التحرير يقرر أن يركز على أخبار محددة - خاصة تلك التي تتعلق بالمخابرات الأجنبية - كان يعرب عن هذه الرغبة التي يمكن استشعارها. كانت الأخبار الخارجية تنتشر في مكة، ولكن ببطء؛ لذا فإنها عادة ما تتشوه في غمار تلك العملية، ولكن الواقع الذي نعيشه هو أن آلات البرق شحيحة، والصحف تتحدث عن الحرية، والمخططات الرائعة لتطوير مكة، والتي ستؤدي إلى تدمير الطابع الفريد الذي يتمتع به المكان.

واجهت بعض المشكلات في صرف الشيك الذي كان معي؛ لأن التاجر الذي ذهبت إليه رفض صرف الشيك، متعللًا بأنه حدثت بعض المشاكل جعلته يُنهي تعاملاته التجارية مع "عبد الله وريدي". عندما تلقى التاجر - منذ فترة مضت - إخطارًا من عبد الله، يطلب منه أن يصرف الشيك، كتب له ردًّا، وكان في انتظار

[1] جبل أبي قبيس في الجهة الشرقية للمسجد الحرام، ويبلغ ارتفاعه 420 مترًا. (المترجمان)

خطابه، لذا رفض صرف أي نقود لحين تلقي الردّ. لحسن الحظ تسلمت خطابًا من عبد الله، يتضمن اسم تاجر آخر قبل أن تنتهي النقود التي كانت معي، ولكن كان من الممكن أن يكون الأمر خطيرًا، لذا شعرت أنه من الأفضل أن يحمل المرء نقوده معه؛ لأن هذا قد يكون أقل خطرًا من البقاء بدون نقود.

لا توجد بنوك في الحجاز؛ لأن هناك اعتقادًا عجيبًا أن المعاملات البنكية محرّمة في القرآن.[1] لا يوجد مبرر لذلك، وقد دافع عن هذه القضية الكثير من العقلاء؛ لأن القرآن يحرّم الربا، ومن الواضح أن هذا الأمر لا ينطبق على نسب الفائدة المعقولة التي تفرض على الودائع في التجارة. إن الأمر الغريب هو أنه يمكن لأي شخص أن يفتح بنكًا شريطة ألا تُدفع له أية فوائد على الإطلاق! فليس إيداع الأموال في البنك هو ما يعتبر محرمًا، وإنما أخذ الأرباح عليها. إن الأدهى من ذلك هو أنهم لا يُدركون أن تجارة تغيير العملات التي يمارسها المئات في مكة والمدينة تنطوي على نفس الأمر تمامًا. يحصل تجار العملات على أرباح مقابل تغيير العملة، لذا فعندما يغيّرون دولارًا مقابل روبيات يحصلون على عمولة، وأعتقد أن هذه التجارة مُربحة.

وصل العديد من "الوسطاء" من العراق، كان بعضهم يعرف عبد الواحد وأسرته. يعتبر الوسيط مرشدًا ومتعاقدًا في نفس الوقت، فهو يكسب عيشه من خلال إحضار الحجاج وتزويدهم بكل ما يحتاجونه من خدم ووسائل نقل وخلافه، وهو يُشبه الأشخاص المسئولين عن تنظيم رحلات السفاري في شرق أفريقيا. يؤدي الكثير من الأثرياء - خاصة من غير العرب - الحجَّ بهذه الطريقة من خلال أولئك الوسطاء؛ لأنهم لا يعرفون البلد جيدًا ولا اللغة؛ لذا يكون من الأفضل والأرخص لهم أن يسافروا مع وجود ترتيبات مُعدة خصيصًا لهم. سرعان ما أصبح لدينا معارف كثر من هؤلاء الوسطاء والمجموعات التي يحضرونها. تبادلنا الدعوات على حفلات العشاء عدة

[1] يعد هذا تعميمًا من قبل الكاتب، أو أنه لم يدرك حقيقة الأمر في الإسلام؛ لأن المعاملات البنكية ليست محرمة، وإنما الربا أو التعاملات التي تنطوي عليه. (المترجمان)

مرات، وكانت حفلات العشاء التي نظمناها رائعة بفضل براعة "جافا" في الطهي. في آخر هذه الحفلات الترفيهية كان لدينا ما لا يقل عن اثني عشر ضيفًا، من بينهم حاجّ يُدعى "ماجد"، وهو رئيس الوسطاء في بغداد الذي يدير تجارته على نطاق واسع جدًّا، فهو يتعاقد مع المئات من الحجاج سنويًّا، ويعتبر من رواد هذه المهنة. كان من بين الحضور أيضًا اثنان من عرب مكة من أصدقائي، وضابط فرقة المشاة البغدادي "محمد سعيد"، واثنان من التجار الفارسيين اللذين أحضرا أحجار الفيروز إلى مكة، وثلاثة من الوسطاء، واثنان من عرب البصرة جاءا معهم.

أعارنا جيراننا الذين يقطنون في الغرف التي فوقنا آنيتهم الفخارية وخادمهم، واستأجرنا نحن خادمًا إضافيًّا في المساء، وكذلك بعضًا من الغلايين، والكثير من الأشياء الأخرى التي كنا بحاجة إليها. قضى عبد الواحد يومًا حافلًا في التحضير لهذا الاحتفال. اجتمع المدعوون بعد العشاء في حوالي الساعة الثامنة والربع.[1] دعوت عبد الرحمن أيضًا، ولكن لسوء الحظ لم يستطع المجيء. جلست أنا وعبد الواحد في نهاية الغرفة لاستقبال الضيوف، بينما تولى مسعودي مسئولية الأشياء الأخرى الأكثر فاعلية. كلما كان أحد الزوار يصل كان يُحيينا، ثم يذهب إلى الناحية الأخرى من الغرفة بتواضع حتى يؤذن له بالصعود لأعلى. أعطينا أولوية الجلوس في أماكن خاصة عن يميننا ويسارنا للحاج ماجد وأحد الفرس الذي ينحدر من نسل النبي، ثم لضابط المشاة وأحد أصدقائي من مكة، أما الباقين فجلسوا في أي مكان. عندما تجمع الحضور كلهم نثرنا عليهم مياه الورد، وأعطيناهم التبغ، ثم فرشنا المفرش المطرز الذي استأجرناه لهذا الغرض على الأرض في منتصف الغرفة. كما هو معتاد أُحضرت الأطباق على الفور، ووضعت في شكل دائري، وتكونت جميعها من الكبسة والكباب والطماطم، والباذنجان ولحم الدجاج البارد ولحوم الإبل المدخنة، ونوع من

[1]. لم نلتزم بما هو شائع في هذا الأمر لأن معظم الناس يتناولون عشاءهم بعد صلاة المغرب. (المؤلف)

الحساء مع وجود أربعة أنواع من الحلويات مثل المعكرون وأنواع مختلفة من الكيك وجميع الفواكه التي يمكن الحصول عليها. كان الطبق الأشهى هو الكبسة، التي تكونت من الفروج المُغطى بخليط من الأرز والمكسرات، واللوز والزبيب وجميع أنواع التوابل[1]. كان هناك الكثير من المشروبات المثلجة السائغة (غير الكحولية) لتلبية طلب من يرغب في أي منها. عندما كان كل شيء جاهزًا أشرت للجميع لنبدأ في تناول الطعام، فاقتربنا جميعًا من مفرش الطعام، وسمينا الله قائلين: "بسم الله" بعد أن كنا قد غسلنا أيدينا في المياه التي أُحضرت لهذا الغرض. لم يكن لدي أدنى شك أن الضيوف اعتقدوا أنهم سيأكلون بأيديهم وفقًا للعادات القديمة في زنجبار، ولكن السبب الحقيقي في هذا هو أنني لم أستطع توفير عدد كافٍ من السكاكين والشوك لهم جميعًا.

بعد أن تناولنا العشاء قُدمت السجائر والغليون والقهوة. دخنّا وتحدثنا لمدة ساعة، وبعدها غادر الضيوف كلهم مرةً واحدة؛ ليوفروا على المضيف عناء توصيلهم حتى الباب واحدًا واحدًا.

كان الحاج "ماجد" صديقًا لشريف مكة، وقد وعدني بأن يقدمني له، ولكن لسوء الحظ اضطر إلى المغادرة إلى المدينة في اليوم التالي؛ لأنه كان مسئولًا – كما قيل لي - عن مهمة سرية تتعلق بالقبائل، لذا لم تسنح الفرصة أبدًا لتقديمي للشريف، وهو الأمر الذي شعرت بالأسف حياله.

راجت العديد من الشائعات المتناقضة فيما يتعلق بالأوضاع في المدينة، ووفقًا لبعض الأخبار تم التوصل إلى اتفاق بين الأحزاب المتعارضة. في بداية الشهر الجديد عاد نصف أفراد القافلة التي كانت قد بدأت رحلتها منذ ثلاثة أسابيع إلى مكة، بعد أن تعرضت للهجوم والسلب والنهب، بمجرد وصولها إلى مشارف المدينة. كان البدو

[1] هناك مصنع صغير للثلج في مكة، وكذلك الكريمة المثلجة، أو ما يمكن أن يُطلق عليه خليط مثلج من اللبن المعلب والمياه غير النظيفة وجرثومات الكوليرا، يُباع في شوارع مكة. يمكن كذلك الحصول على الخمر في مكة، إذا كنت تعرف طرق الحصول عليها. (المؤلف)

المسئولون عن القافلة قد تقدموا لاستطلاع الأمر، وتبعهم نصف أفراد القافلة الذين خالفوا التعليمات. أُسر هؤلاء الأفراد بينما نجح بقية أفراد القافلة في الفرار والعودة سالمين إلى مكة. ومع ذلك، تم التوصل إلى اتفاق سلمي بفضل جهود الشريف وتدخله، إلا أنني لا أعرف على أي أسس تم هذا الاتفاق. اعتقد الجميع أن هذا الأمر لن يستمر لفترة طويلة.

تسبب ظهور القمر الجديد في الكثير من الخلاف والجدال. فإذا كان الهلال قد شوهد في الليلة الأولى بعد التغيير - فسيكون يوم عرفة وفقًا لذلك هو يوم الجمعة، وهو أمر عظيم بالنسبة لحجاج هذا العام، يجعل حجهم يعدل سبع حجات من الحج في السنوات العادية.[1] عادة لا يكون ظهور الهلال في يوم بعينه في بداية الشهر أمرًا محققًا؛ لذا يكون من غير الممكن أن يختار الحجاج عن قصد عامًا محدّدًا لأداء الحج. أدت مسألة رؤية الهلال إلى كم هائل من النقاش والجدال، فقد كان البعض يقسمون على رؤيتهم للهلال، بينما أكد البعض الآخر على استحالة هذا الأمر. على الرغم من ذلك جنحت غالبية الآراء إلى القول برؤية الهلال، حيث بدا أن هذا الرأي هو الأرجح، وأخيرًا أعلن الشريف القرار نفسه، وهو الأمر الذي أسعد الجميع.

طوال هذه الفترة كانت وفود الحجاج الغفيرة تأتي إلى مكة، وأعداد الحشود تزداد في الشوارع كل يوم. بعد مرور أسبوع كامل أصبح من الصعب التجول في المدينة. كانت صلاة الجمعة في الحرم هي أهم الشعائر الواجب فعلها؛ لذا كان من الصعب وجود موطئ قدم فارغ من المساحة الشاسعة. إن الحركات المتماثلة لهذا الحشد الرهيب أثناء أداء الصلاة، والصمت المطبق الذي يجتاح المكان يأسر الخيال. ففي أثناء السجود هناك دعاء يُقال عندما تكون الجبهة على الأرض في صمت تامٍّ، يقطعه فقط هديل الحمام، وبعدها عندما ينهض مئات الآلاف من المصلين، يجتاح

[1] ليس في وقفة يوم الجمعة ميزة خاصة فيما نعلم، ولكن يوم الجمعة هو أفضل الأيام، وخير يوم طلعت عليه الشمس، والوقوف في يوم الجمعة يوافق وقفة النبي ﷺ في حجة الوداع. (المترجمان)

حفيف ملابسهم وصليل أسلحتهم المكان، وكأنه إعصار مفاجئ. وبمجرد انتهاء الصلاة يهرع الجميع لأداء الطواف، ثم بعد ذلك ببضع دقائق يمكن سماع زمزمة هذه الدوامة البشرية من على مسافة بعيدة من الحرم.

يوجد هنا الكثير من الحَمَام، كما في ساحة القديس "مارك" في مدينة البندقية، وهم أيضًا وديعون. تُباع الحبوبُ في الحرم لإطعامهم، ولكنهم يحصلون على الكثير من الطعام بطرق أخرى كثيرة، وهو ما يجعلهم نادرًا ما يُقبلون على الأكل من هذا الطعام. يقول "بيرتون" إنه من المعروف أن هذا الحمام لا يمكن أبدًا أن يدنس الكعبة، كما قد يتوقع منه ذلك، وهذا أمر حقيقي بالفعل بغض النظر عن السبب الحقيقي وراءه.

في بداية شهر الإحرام رُبطت قطعة بيضاء من القماش حول الغطاء الأسود للكعبة، وتظل كذلك حتى يوم الاحتفال، عندما يتم تغيير الكسوة الخاصة بالكعبة.[1] تأتي كسوة جديدة كل عام مع المحمل المصري، حيث تتم حياكتها في القسطنطينية، ويُقال إن تكلفتها تصل 3.600 جنيه إسترليني. تُصنع هذه الكسوة من الحرير والقطن، ويكون لونها أسود داكن، ومطرز عليها لفظ الجلالة بالحرير الأسود في كل قدم مربع. تُقطع الكسوة القديمة قطعًا صغيرة متباينة الحجم، وتُباع لاستغلال نقودها في صيانة الحرم وأعمال الخير.

إن ما يميز الحرم هو عدم وجود قبلة أو اتجاه للصلاة؛ لأن الحرم هي ما يولي المسلمون وجوههم شطره، لذا يلتف المصلون حول الكعبة بدلًا من الخطوط المستقيمة المعتادة التي يصلون فيها متجهين للقبلة (مكة).

من الممكن دخول الكعبة نفسها في مناسبات معينة، وكنت قد نويت فعل ذلك، ولكن القوانين المنظمة لهذا الأمر أصبحت أكثر حسمًا من ذي قبل. أخبرني

[1] يُعرف ذلك بإحرام الكعبة. (المترجمان)

عبدالرحمن أنه يُسمح للرجال الناضجين الذين يحظون بسمعة طيبة لا يشوبها أي شائبة بدخول الكعبة، وأنه من غير اللائق دخول الكعبة إلا إذا كان الإنسان مستعدًّا ليهب ما تبقى من حياته في سبيل الله؛ سعيًا إلى مرضاة الله، وأن يهجر العالم والشرّ والمادّيات منذ دخوله هذا المكان. وحيث إنه هو نفسه قد دخل الكعبة فقد بدا هذا الأمر مضحكًا. لا يوجد بالداخل سوى عمود خشبي. عندما كنت أذهب إلى الكعبة لم تكن أبدًا مفتوحة في أي مرة، ولكن مسعودي رآها مفتوحة مرتين، أحدهما عندما دخلها الشريف والحاكم معًا ونظّفاها من الداخل بالمكانس.

وصل المحمل من مصر في بداية الشهر، بصحبة مجموعة كبيرة من الجنود المصريين. بدا غريبًا رؤية الزي الكاكي المعتاد والقلادات في هذا المكان. كنت مسرورًا؛ لأنني وجدت أن مظهر الجنود المصريين أفضل بكثير من الجنود الأتراك الذين جاءوا فيما بعد بالمحمل السوري. لقد أثبت هذا الأمر براعة الطرق البريطانية التي أدت لإعداد مثل هؤلاء الجنود من المصريين المعاصرين غير المحاربين. كان الجميع منبهرين بأناقة زيهم ودقة تدريبهم.

حان الوقت للإعداد للحج، وكان علينا أن نغادر مكة لمدة أربعة أيام كاملة، وأن نرتب وسيلة النقل والإمدادات من الغذاء. اتفقنا على ألا نقتصد في التجهيزات، وأن نعد ما سنحتاج إليه بطريقة تتناسب مع ما ما يظنه الجميع عن وضعي الاجتماعي وثروتي. قررنا استئجار ثلاثة جمال وثلاثة حمير، واصطحاب خادم آخر، وخيمة كبيرة أخرى نستقبل فيها الضيوف. أعطيت عبد الواحد تفويضًا لتحضير كل ما يتعلق بالمؤن، وقد أبلى بلاءً حسنًا في هذا الأمر، وكنا جميعًا فخورين به. لم يكن "إبراهيم" في خدمتنا؛ لأنه كان موكلًا بالحج، وهذا يعني أنه كان يحج نيابة عن شخص ميت، ويمكن في بعض الأحيان أن يحج الشخص نيابة عن أي فرد ما زال على قيد الحياة. كان من الواجب عليه أن يغادر المدينة، ويُحرم من مكان آخر؛ لأنه

وصل إلى مكة، وأدى الطواف نيابة عمن يحج عنه، ثم يؤدي كل الصلوات والمشاعر باسم الشخص الذي ينوب عنه. يؤمن الكثير من طوائف الشيعة بهذا الأمر.[1]

يتألف الحج مما يلي: في اليوم الثامن من ذي الحجة كل عام يغادر كل المسلمين البالغين القادرين مكة قبل حلول الليل، ويذهبون إلى "منى"، وهي موضع يبعد عن مكة حوالي خمسة أميال ناحية الشمال، حيث يقضون الليل هناك، ثم يذهبون في صباح اليوم التالي إلى جبل عرفة، الذي يبعد عن "منى" حوالي تسعة أميال، ويقضون اليوم هناك حتى غروب الشمس، ثم يعودون إلى "منى" وينامون في نَمِرة؛ أي في منتصف الطريق بين "منى" وعرفات. في اليوم الثالث يجب أن يرجع الحجاج إلى "منى" في الصباح لرمي الجمرات الثلاث، ثم يعودوا مرةً أخرى إلى مكة لأداء الطواف والسعي، وبعدها يرجعون إلى منى للمبيت. أما اليوم الرابع فيكون في "منى" وهو يوم الاحتفال. في ظهيرة اليوم الخامس يعود الحجاج إلى مكة بعد رمي الجمار. يظل الحجاج مرتدين ملابس الإحرام منذ مغادرتهم مكة حتى عودتهم إليها، ولكن بعد مغادرتهم الحرم عقب الانتهاء من رمي الجمرات يتحللون ويخلعون ملابس الإحرام، ليرتدوا أفضل ما لديهم من الثياب، وقد يرتدون ثيابًا جديدة إذا كان هذا ممكنًا. يطلق على من يتم هذه الشعائر اسم "حاجّ" قبل أو بعد اسمه، ويتميز الحجاج عند عودتهم لبلادهم بلباس خاصّ بالرأس، قد يختلف من بلد لآخر. في مصر يرتدي الحجاج عمامات خضراء. أما في "زنجبار" فيرتدون قبعات ملونة مصنوعة من القش وعمامات بيضاء، مثل التي يرتديها المطوفون عادة، وهكذا. لم أستطع أن أعرف عند أي نقطة تحديدًا يُطلق على الشخص لقب "حاج"، فوفقًا للبعض يعد الشخص حاجًّا عندما يصل إلى جبل عرفات يوم عرفة، أما البعض الآخر فيقولون إن هذا يتحقق بعد تقبيل الحجر الأسود في نهاية الطواف الذي يؤدى في اليوم الثالث. إن أي

[1] الحج بالنيابة أو التوكيل في الحج جائز بعدة ضوابط عند المذاهب كلها وليس الشيعة فقط. (المترجمان)

شخص يزور مكة في غير موسم الحج، أو لا يتمكن من أداء مناسك الحج في الأيام المحددة بسبب المرض، لا يحصل على لقب "حاجّ". لا يُعفى أهل مكة من أداء الحج كل عام، ويتعين عليهم الذهاب مع الباقين، ويتركون المدينة لمدة يومين؛ لذا تكون مهجورة.

ليس من الممكن معرفة أصل كل هذه الشعائر، على الرغم من أنني كنت بارعًا في ذلك، ولكن يكفي القول أن هناك مبررًا لكل شيء. يزعم البعض أن الكثير من هذه الأمور يعدّ سخفًا، ولكن هذا ما يقوله من يشككون في أي أمر ديني. تشبه هذه الشعائر "القربان المقدس" لدى لنصارى و"عيد الفصح" لدى اليهود، وهما يمثلان ذكرى الأحداث الماضية، ولهما أهمية رمزية، ومع ذلك فليس هناك أمر أيسر من الاستهزاء بمثل هذه الأمور.

إن القضية الأكثر أهمية، التي تجول بخاطر أي شخص قبل أداء فريضة الحج، هي هل سيكون هناك أمراض مثل الطاعون أو الكوليرا أم لا؟ في هذا العام كان الخطر محدقًا أكثر من المعتاد؛ بسبب الوباء الذي اجتاح البلاد في العام الماضي. ظهر المرض في العام الماضي قبل شهر من "الخروج"، وتأصل في المكان، ولكنه أصبح منتشرًا بصورة هائلة بعد الوقوف على جبل عرفة، ثم ظهر الوباء في صورته الفتاكة أثناء المبيت بمنى، والأسبوع الذي يلي ذلك أودى بحياة ما يقرب من ألف شخص كل يوم. وقد أدت مخاطر هذه الأوبئة الفتاكة وأرواح الآلاف التي حصدتها إلى اتخاذ إجراءات حاسمة تمنع الأفراد من المجيء إلى مكة دون وجود إمكانيات كافية، وكذلك أدت إلى تحسين الأحوال الصحية في الحال، أما نظام الحجر الصحي الحالي فلا جدوى منه.

ومع ذلك، كانت الأوضاع هذا العام جيدة بصورة استثنائية، وكان الجو لطيفًا بالنسبة لهذا الوقت من العام، كما كان عدد الحجاج أقل من المعتاد، وكان بينهم عدد

قليل من الفقراء المعدمين الذين يكونون أكثر عرضة للعدوى، عندما يخيمون في العراء في ظروف غير صحية. لذا وفقًا لما تم إعلانه وقت مغادرة مكة، لم تكن هناك أية حالات من الكوليرا[1] أو الطاعون، باستثناء حالتين من الأخير تم اكتشافهم في جدة. على الرغم من أن الطاعون الدملي المميت أيضًا، إلا أنه ليس خطيرًا مثل الكوليرا؛ لأن تطوره يعد أكثر بطئًا، والجموع الغفيرة الموجودة في مكة - والتي تمثل مصدر الخطر - تتفرق بسرعة بعد الحج.

غادر بعض الحجاج متجهين إلى "منى" مبكرًا يوم الثلاثاء، وبحلول الظهيرة يوم الأربعاء كان الطريق المؤدي إليها - والذي يعدّ قريبًا من منزلنا - مكتظًا بصفّ لا نهاية له من الجمال التي استمرت في المرور طوال الليل واليوم التالي. كانت معظم الحوانيت والأسواق مغلقة يوم الأربعاء مساءً، بينما ظلت بضعة حوانيت مفتوحة حتى صباح يوم الخميس، ولكن بحلول الظهيرة كانت كل الأعمال قد توقفت.

قررنا أن نؤجل خروجنا لآخر وقت ممكن؛ أي حتى مساء يوم الخميس. عندما كنا نعتلي السطح، كنا نرى الطريق والمشهد الغريب الذي يمثله في ذلك اليوم. في حوالي الساعة الثانية مرّ المحمل السوري مُحاطًا بفرقة موسيقى نحاسية، وكتيبة من الجنود الذين يرتدون ملابس الإحرام الآن مثل الجميع. عقب ذلك بقليل جاء معالي شريف مكة "السيد حسين" يركب حصانًا أبيض، ويتبعه على مسافة ملحوظة أسرته والأعيان على الأحصنة، وخلفهم حشد من الرماحين الذين يمتطون جمال السباق الشهيرة (الهجن)، التي يوازي نسبها في أصالته نسب الشريف نفسه. عندما مرّ الشريف حيّاه الواقفون بالسلام، وقد كان حريصًا جدًّا - كما لاحظت - أن يحيّيهم. وعلى الرغم من ارتدائه ملابس الإحرام فقط إلا أن الإجلال بدا عليه تمامًا.

[1] ومع ذلك، إذا ظهر الطاعون في صورة وباء فستكون العواقب مروّعة. (المؤلف)

مرّ المحمل المصري والموكب المصاحب له بعد قليل بعدما عزفت مقطوعة "صخورعدن العقيمة"[1]، وتبعته عدة كتائب تركية في أجواء من الرايات المرفرفة والمعزوفات الموسيقية.

[1] The Barren Rocks of Aden

الفصل التاسع

الحج

في حوالي الساعة الخامسة ارتدينا ملابس الإحرام بعد أن عقدنا النية لأداء الحج. أرسلنا أمتعتنا وخدامنا في النهار، وكنا نأمل أن يكون كل شيء جاهزًا عند وصولنا.

امتطينا الحمير، التي كانت جيدة، وانطلقنا بصحبة الوسيط الذي استخدمناه، واسمه "جافا"، بالإضافة إلى ولده، وثلاثة من الفرس الذين كانوا يستأجرون الغرفة الواقعة فوق الجناح الخاص بنا. كان تقدمنا بطيئًا في البداية؛ بسبب ضيق الطريق، ولكن ما إن غادرنا البلدة حتى اتسع الطريق، وأصبحنا نسير بسرعة، وتمكّنا من قطع مسافة جيدة. كان الطريق يرتفع بين الهضاب الصخرية المنخفضة، وكان مرصوفًا في بعض المناطق، ولكنه في أماكن أخرى لم يكن حتى ممهدًا. وصلنا "منى" عقب حلول الظلام، ووجدنا الطاهي "جافا" ينتظرنا على الطريق.

أوصلنا إلى خيمتنا التي نُصبت على مسافة قريبة في الخلف على أطراف المخيم العظيم، بالقرب من لهيب المشاعل التي تحدد المنطقة الخاصة بشريف مكة. تناولنا الغداء ونحن ننعم بالراحة، ثم استمعنا إلى ما قرأه علينا كبير أصدقائنا الفرس، المتعلم الذي كان ينحدر من نسل النبي. كان من المفترض أن نذهب إلى مسجد "منى" لأداء صلاة العشاء، ولكن القليل من الناس يفعلون هذا حاليًّا. فربما يضل المرء طريقه، وهذا المكان ليس آمنًا في الظلام. أوينا إلى الفراش مبكرًا؛ لأننا كنا نعلم أن اليوم التالي سيستنفد كل قوانا.

غادرنا المعسكر في الفجر، وأرسلنا الخدام والخيم قبلنا مع الجمال. لم أتوقع أبدًا أن نجدهم فيما بعد، ولكن "جافا" - المرشد الخاص بنا - بدا واثقًا جدًّا من الأمر.

ذهبنا نحن إلى "منى"، وجلسنا ننتظر لمدة ساعتين على أحد المقاهي قبل أن نتقدم، ثم بدأنا أخيرًا في حوالي الساعة الثامنة. كان الطريق الذي سلكناه لمغادرة القرية يتجه ناحية الشرق، وكان عرضه حوالي نصف ميل، فيما عدا منطقتين يمر منهما خلال وادٍ، ويضيق ليصل إلى مائتي ياردة. بعد أن سرنا لمدة ساعة، توقفنا عند أحد الأكشاك التي تبيع المرطبات وتناولنا فطورنا.

إن نعت هذا المشهد الاستثنائي يتطلب مهارات وصفية لا أمتلكها؛ لذا فإن أفضل فكرة لتصوير المشهد - هي القول: إن نصف مليون شخص تقريبًا يسافرون عبر هذه الأميال التسعة، بين شروق الشمس والساعة العاشرة في هذا اليوم، يكون نصفهم يمتطون الركائب والكثير منهم لديه دوابّ لحمل الأمتعة. يشبه صخب هذا الجمع صوت انفلاق البحر، ويعلو الغبار الجو بارتفاع أميال في المنطقة المحيطة بالبلد. عندما مررنا بالوادي الثاني لاح جبل عرفات في الأفق، وكان المشهد لا يزال غريبًا. كانت الهضاب مغطاة بالبشر، كما انتشرت الخيام حولها بالمئات في دوائر يزداد اتساعها. عند وصولنا أصبحت التمتمة التي يرددها آلاف الحجاج قائلين: "لبيك اللهم لبيك" - والتي كانت مسموعة من عن بعد - عاليةً جدًّا، لدرجة أنها طغت على ما عداها. كان الصوت يبدو مهيبًا من عن بعد، وكأنه صادر عن قوة هائلة، مثل دويّ الزلزال.

جبل عرفات هو هضبة يبلغ ارتفاعها أربعمائة قدم، ذات شكل هرمي تعج بالجلاميد، وفي قاعدة الجبل توجد مجموعة من الينابيع التي تغذي القنوات التي تصل إلى مكة. أما على القمة فتوجد منصة مرصوفة يعتليها منارة صخرية. تعتبر المنطقة المحيطة بعرفات وعرة وصخرية، خاصة ناحية الشرق، إلا أن عرفات نفسها تعد منعزلة في منتصف منطقة مستوية من الأرض، ومغطاة بالأجمة. يتكون المعسكر من المنطقة المحيطة بالجبل على الأرض، ويغطي مساحة عدة أميال مربعة.

بفضل ترتيبات "جافا" وانضباط المواعيد الخاصة بتنفيذ أوامره وجدنا خيمنا على الفور. كان موقعها على حدود المخيم، وهو المكان الأفضل، لعدة أسباب. علاوة على ذلك، تجمّع الكثير من معارفنا في المنطقة نفسها إلى جوارنا. كان الجميع في أفضل حالاتهم، ولم يكن هناك أي شيء في سلوكهم ينم عن أي مدلول ديني. كان المشهد كله يُشبه رحلة خلوية ضخمة أكثر من أي شيء آخر.

استرحنا لمدة ساعة تحت ظل خيمتنا، ثم صعدنا الجبل؛ لنصلي ركعتين على المنصة التي بالأعلى. كان الحجيج قد تجمعوا كلهم بالفعل، وكان المنظر من أعلى القمة يُنبئ عن حشد هائل. من المدهش مجرد التفكر في أن هذا الجبل كان بالأمس هادئًا ومهجورًا، كما أنه سيكون كذلك في الغد - وسيظل هكذا - حتى يأتي يوم عرفة في العام المقبل. في الواقع، من المستحيل لأي مجموعة صغيرة أن يأتوا إلى هنا بأي حال من الأحوال في أي يوم آخر؛ لأن الطريق يكون مليئًا باللصوص في هذا الجزء من البلد. حان وقت صلاة الظهر ونحن بالأعلى، وتم الاحتفاء بإطلاق النيران في الهواء من ثلاثة وستين مدفعًا، ثم بدأت الفرقة في العزف، كما هتفت الحشود التي بُحّت أصواتها. كان هناك ثلاث مدفعيات تتكون من ستة مدافع ومدفعين جبليين محمولين على ظهر الدوابّ.

عند نزولنا من على الجبل رأينا بعض خزانات المياه المملوءة من العين، والتي كانت يستحم منها الكثير من الحجاج. كانت المياه متسخة جدًّا، وأصبحت جوانب الجبل التي يستخدمها الآلاف من الحجاج الفقراء كمأوى لهم بين الصخور - في حالة مُزرية. ليس من الغريب أن تنتشر الأمراض المعدية بسرعة في وسط مثل هذه الأجواء، إن ما هو مدهش حقًّا أن الكوليرا عندما تبدأ لا تحصد أرواح كل هؤلاء الحجاج.

أقيم سوق لبيع جميع أنواع الطعام، كما كان هناك مجموعة من الخيم التي تبيع المرطبات؛ مثل المشروبات وخلافه. تجولنا لبعض الوقت، ولكننا وجدنا شمس الظهيرة شديدة الحرارة على رؤوسنا المكشوفة، فرجعنا إلى خيمتنا لنتناول الغداء.

تأكدت إحدى الشائعات التي رُوجت مبكرًا في ذلك اليوم، حيث أكد الجميع أن مجموعة من الشيعة غير راضين عن حكم الشريف، فيما يتعلق برؤية الهلال، وأعلنوا أن هذا اليوم ليس التاسع من الشهر، ولكنه الثامن من ذي الحجة، وبناء عليه تعد كل الشعائر باطلة. ولذا قرروا الذهاب إلى عرفة والمكوث حتى غروب شمس اليوم التالي.

كان من العسير أن أصدق أن رجالًا عاقلين ومتعلمين مثل الشيعة من الفرس الذين قابلناهم - يمكن أن ينصاعوا لمثل هذا القرار العنيد، ولكن يصعب على المرء استنباط ما يمكن أن يفعله العقل الفارسي؛ لأنهم على الرغم من كونهم أكثر تحضرًا من العرب في الكثير من الأمور، إلا أنهم أكثر تعصبًا وأقل عقلانية في معتقداتهم الدينية. إن أحد الأشياء المفضلة لديهم هي قراءة "مقتل الحسين" التي يقوم بها أحد كبارهم، بينما يجلس الباقون حوله يعتصرهم الألم والحزن، وعندما تصل القصة إلى نقطة محددة يجب على المرء أن يشهق، وبعد ذلك بقليل يجهش بالبكاء. لا يحاول أي أحد أن يدافع عن مقتل الحسين الذي يعدّ بالفعل حادثًا مأساويًّا، ولكن الطوائف الأخرى من المسلمين تعتبر هذه الممارسات حمقاء. لدى بعض الشيعة كل أنواع العادات الغريبة في شهر المحرم، فهم يضربون أنفسهم، ويجرحون رؤوسهم بالسكاكين، ويتصرفون مثل الهنود الحمر، وليس كجنس آسيوي متحضر ومثقف.

يرجع السبب في ضعف الإسلام كقوة سياسية في عصرنا الحالي بدرجة كبيرة - إلى هذا الاختلاف حول ما هو صحيح وما هو خاطئ، لمن ماتوا من الرجال الأوائل منذ أكثر من ألف عام. ولكن يجب ألا يغيب عن الأذهان أن هذا الأمر - وإن

بدا غير معقول - إلا أنه يُشبه الاختلاف الموجود حتى يومنا هذا في النصرانية حول بعض القضايا، مثل تحول جسد المسيح ودمه إلى خبز وخمر، وعصمة بابا الفاتيكان، وهي قضايا تبدو على نفس القدر من السخف في أعين المسلمين.

نتيجة لهذا القرار الذي أصدره ساستهم، ظل الشيعة كلهم - الذين قد يصل عددهم إلى ربع الحجاج - في عرفة، عندما غادر الباقون إلى نَمِرة. فككنا الخيام وحمّلنا الإبل في وقت قياسي، ولكن لم يكن من الممكن أن يغادر أي أحد قبل غروب الشمس. عندما أعطى الشريف أخيرًا الإشارة تم الاحتفاء بإطلاق النيران في الهواء، وبعد بضع دقائق كان الجمع الغفير يتجه في طريقه، وينحرف تجاه الوادي الأول من الواديين اللذين مررنا بهما. كان هناك تزاحم شديد في المناطق الضيقة، وكانت هناك مخاطر محدقة، ولكننا تمكّنا من أن نظل سويًّا، وننجو من الكوارث. بعد ساعتين وصلنا مسجد نَمِرة، وجلسنا، ولكننا لم ننصب الخيام. لم يصل كل الحجيج حتى منتصف الليل، وكان من الممكن أن تجعل الضوضاء والغبار الخانق - النوم أمرًا مستحيلًا؛ لو لم نكن منهكين.

بدأنا السير إلى "منى" قبل طلوع الشمس، ووصلنا هناك في حوالي الساعة السابعة والنصف. حالفَنا الحظّ، واستطعنا الحصول على مكان جيد لخيامنا، لا يبعد كثيرًا عن سرادق الشريف ومقرّ الجيش. في الليلة الماضية، جمع "جافا" و"مسعودي" ثلاثًا وستين حصاة لكل فرد؛ لرمي الجمار؛ لأنه يجب إحضارها من نَمِرة. تُسمى الجمرات باسم "الجمرة الكبرى" و"الجمرة الصغرى" و"الجمرة الوسطى"، وهم يميزون أماكن الأوثان التي كانت موجودة في الجاهلية (قبل الإسلام) وحطّمها النبي. يرمز رمي الجمار بالطبع إلى السخط والبغض تجاه آلهة المشركين. أعتقد أن السبب في ذلك أن النبي وجد صعوبة في محو الخرافات القديمة؛ لأنه على الرغم من أن المسلمين قد هجروا آلهتهم القديمة، إلا أنهم كانوا لا يزالون خائفين

منهم، ولا يجرؤون على الاستهزاء بهم. لذا جعل النبي أتباعه يرمون الجمار على الآلهة القديمة؛ ليُقنعهم أن مخاوفهم واهية.

تقع الجمرتين الأولى والثانية في الشارع الرئيسي "المنى"، أما الجمرة الثالثة فتقع في الأسفل على يمين الطريق المؤدي إلى مكة، وتتكون الجمرات الثلاث من عمود صخري في منتصف ما يشبه حوض النافورة. عندما وصلنا إلى هناك كانت الجمرات الثلاث محاطة بحشد غفير يلوح بالأيادي، ويختفي في غمار كومة من الصخور. تطلب الأمر فترة من الوقت قبل أن نتمكن من الوقوف أمام مرمى الهدف، وفي النهاية اضطررنا إلى تصويب الحجارة من على مسافة بعيدة، مما أدى إلى أن معظم الحجارة التي ألقيتها لم تصل للأسف. لا يجب حتمًا أن تصيب الشاهد، ولكن إذا لم تصل الحجارة إلى المرمى، فمن المحتمل أن تصيب شخصًا من بين الحشود. عادة ما يعاني أولئك المتحمسون الذين يقفون في الصفوف القريبة أشد معاناة، فأحد الرجال الذي كان يقف على مقربة منّي أصيب بجرح في خده، بينما أصيب مسعودي بجرح في أذنه.

كان الزحام شديدًا في الشوارع، لدرجة أن الأمر استغرق ساعة كاملة للوصول إلى مكان رمي الجمار، وكانت الشمس قد ارتفعت قبل أن نعود إلى الخيمة. استرحنا لبعض الوقت، ثم تناولنا فطورنا قبل أن نخرج مرة أخرى لذبح الأضحية. يجب على كل حاجّ[1] أن يذبح في هذا اليوم أحد أنواع الماشية، وعادة ما يختار غالبية المسلمين الضأن أو الشاة. يمكن أن يأكل الحاج من اللحم، ولكن الأفضل إعطاؤها للفقراء. عندما تقرر الهَدْي في أيام النبي لم يتوقع الأبعاد الهائلة التي وصل إليها الحج؛ لأنه في هذه الأيام تُنحر هذه الأعداد الضخمة من الحيوانات دون أي جدوى. قبل ذلك كان من المسموح أن تُترك الذبائح حتى تتعفن على الأرض، حتى أن "منى"

[1] المُتَمَتِّع والمُقْرن. (المترجمان)

كانت تظل لفترة مكانًا لا يمكن العيش به. ولكن في السنوات الأخيرة تم تجهيز حفر كبيرة لاستقبال الذبائح، وفي نهاية اليوم تمتلئ هذه الحفر عن آخرها. تم اتخاذ احتياطات غير عادية هذا العام، بسبب وباء الكوليرا الذي اجتاح البلاد في العام الماضي، وجُمعت الأضاحي كلها في نقطة محددة، تبعد عن خيمتنا مسافة ربع ميل. كانت كل أضحية تُذبح ثم تؤخذ بعيدًا على الفور أو تُلقى في أحد الحفر، ولم يكن مسموحًا لأحد أن يأخذ أي أضحية حية. كان الغرض من هذا الأمر هو منع أي حاج من الذبح في مكان التخييم؛ لما في ذلك من أخطار فادحة على الصحة، كما تم تعيين العديد من الحراس؛ لضمان تنفيذ تلك القوانين الرائعة، والتي كانت شاقّة إلى حد ما. كنا نحتاج إلى بعض من اللحم، وكان الأفضل هو الذهاب إلى الماشية الحية التي تبعد عنا ربع ميل من حمل الذبيحة نفسها. اخترت أنا وابن الوسيط الذي كان معنا خروفًا سمينًا، وقررنا أن نأخذه معنا، ورشينا الخفير ليسمح لنا بالعبور؛ لأننا لم نتخيل أنه من الممكن أن نحمله. لسوء الحظ رآنا أحد الأطباء المسئولين عن الإجراءات الصحية، وعدا نحونا على فرسه، وبعد أن وبَّخنا طلب منا أن نرجع مرة أخرى ونُعيد الخروف، ثم توعد أن يضربنا بالكرباج إذا حاولنا فعل ذلك مجددًا، وأعترف أننا استحققنا ذلك. في النهاية اضطررنا إلى إرسال الخدم لإحضار اللحم.

يبدأ سعر الخروف من دولار، وقد يزيد عن ذلك، ويبيعه الرعاة من البدو في المناطق المحيطة، الذين يجنون أرباحًا جيدة من هذه التجارة، فعلى الأقل تذبح نصف مليون أضحية كل عام في هذا اليوم.

شاهد "جافا" حادثًا هنا في العام الماضي، يدل على الحالة الأمنية الممجوجة في هذه البلد. اشترى أحد الأتراك خروفًا، وعندما كان يدفع النقود خلع الحزام الذي كان يضع فيه النقود، فانتزعه البدوي منه، وشدَّه محاولًا أن يأخذه منه، ولكن التركي تشبّث بالحزام بشجاعة، فاستخرج البدوي مطواته، وتخلص من التركي في ضربة

واحدة طرحته أرضًا، ثم أخذ الحزام وهرب وسط الحشود. حدث هذا في المعسكر الذي يضم نصف مليون شخص، وعلى مرأى ومسمع من الخفر والحراس الموجودين! حاول بعض الحراس إطلاق النار على السارق، ولكنه قتل أحد الواقفين بدلًا منه. بمجرد هروب السارق وسط الجبال، لا يمكن أن يمسك به أي أحد، فالمطاردة ليست أحد الخيارات المطروحة.

بعد أن ذبحنا الهدي - وهو أمر ليس من الضروري أن نقوم به بأنفسنا - انتهينا مما يجب علينا القيام به في هذا اليوم في "منى"، وأصبح بوسعنا الذهاب إلى مكة. أحضرت الحمير الخاصة بنا، وبدأنا السير بعد صلاة الظهر. بالطبع كان الطريق مزدحمًا، وفي النصف ساعة الأولى كنا نتحرك بسرعة السلحفاة.

كان مظهر المدينة غريبًا في الحقيقة، فقد كان كل شيء مغلقًا: الحوانيت والمنازل، ولكن الشوارع كانت مزدحمة عن آخرها بالحجاج. وصلنا إلى الحرم ونحن نتصبب عرقًا من الحرّ، وتعلو الأتربة وجوهنا، واستأجرنا مطوفًا، ثم أدينا الطواف نحن الثلاثة معًا هذه المرة، ولكننا وجدنا صعوبة كبيرة في تقبيل الحجر الأسود؛ لأن الكعبة كانت قد اكتست في ثوبها الجديد، ولم تكن الفتحة المخصصة لتقبيل الحجر كبيرة بشكل كافٍ لتسع أكثر من رأس واحدة في نفس الوقت. أحاط جمع غفير من الأعراب بهذا المكان، واستطعت أنا ومسعودي أن نشق طريقنا بينهم، أما عبد الواحد فلم يكن ليغامر بأن تكسر ضلوعه وسط الزحام. كان المشهد كله يشبه ما نسميه "بالبقعة المحتدمة" في كرة القدم في "وينشستر".[1] في النهاية استطعت أن أدفس رأسي في الفتحة، وقبّلت الحجر، ثم خرجت من بين الحشود، ولكني فقدت الجزء الأعلى من ملابس الإحرام، وأصبت ببعض السحجات. ومع ذلك فقد كنت أسعد حظًّا من أحد الرجال الذي فقد ملابس الإحرام وسط الحشود، وخرج من بينهم

[1] وينشستر هي مدينة تاريخية وعاصمة سابقة لإنجلترا، كما أنها عاصمة مقاطعة هامبشاير في جنوب شرق إنجلترا. (المترجمان)

عاريًا كما ولدته أمه، وهو الأمر الذي أضحك الواقفين. بعد أن تمكن مسعودي من استرجاع جزء الإحرام الذي فقدته، ذهبنا لأداء السعي بين الصفا والمروة. كان هذا تكرارًا لما فعلناه عند وصولنا إلى مكة، ولكنه بدا أطول الآن بسبب الأعداد الغفيرة التي جعلتنا في بعض الأوقات غير قادرين على المضي قُدُمًا. كان المشهد برمّته مزيجًا غريبًا، يتكون من صراخ المطوفين المسئولين عن كل مجموعة بالأدعية ومساعي الحجاج؛ للترديد خلفهم بصورة صحيحة، وتذمر النساء من التدافع وسط الحشود، واللعنات التي يصدرها الرجال، وهو الأمر الذي أسفر عن هذه الجُمَل المتضاربة: " اللهم إنك تعلم ولا نعلم ...مهلًا أيها القوم! اللعنة على أجدادك! ابق في خط مستقيم ..." وهكذا. كان هناك رجل هندي يسعى وراءنا، ويبدو أنه قد فقد المطوف الخاص به، وكان يتمتم مثل الخروف التائه قائلًا: " اللهم اجعلني مع الأشرار." بالطبع ما أراد قوله هو العكس تمامًا.

بعد أن أنهينا الشوط السابع، أخذَنا المطوف إلى شيخ كبير معه ماكينة حلاقة. سألني عن اسمي وعن المذهب الذي أنتمي إليه، ثم حلق ما يقرب من بوصة مربعة من شعر رأسي من على اليمين، وهو يقول بعض الأدعية التي كان عليّ أن أرددها خلفه. كانت هذه هي الطريقة الرسمية لإنهاء الإحرام، ومواصلة الحياة العادية. بعد أن أنهى عمله دعا لي، ثم بدأ في فعل نفس الشيء مع مسعودي. دفعنا لهذا الرجل وللمطوف أجرهما، ثم رجعنا إلى منزلنا سيرًا على الأقدام؛ لأن الحمير كانت قد ذهبت للحصول على الطعام، الذي استحقوه بالفعل بعد هذا العناء.

عندما عدنا إلى المنزل كان هناك عبد حبشي مسئول عن البيت، وكنا نحن أول من رجع؛ لأن الحجاج الفرس كانوا لا يزالون في عرفة. وجدنا صعوبة في الحصول على المياه؛ لنتمكن من الاستحمام الذي كنا في أمسّ الحاجة إليه، ولكن بسبب الانسداد الذي حدث في إحدى القنوات كانت المياه عزيزة. في النهاية

اضطررنا إلى دفع روبية مقابل الحصول على قربتين من المياه. أخيرًا تنفست الصعداء، وخلعت ملابس الإحرام التي يمكن استخدامها فيما بعد كمناشف للاستحمام، على الرغم من أن بعض الحجاج الذين يغسلونها بمياه بئر زمزم يؤثرون الاحتفاظ بها، ضمن الثروات الموجودة في منازلهم، كتذكار لهذا الحدث العظيم. إن ملابس الإحرام هي أكثر الملابس تهوية، وغير مريحة بالمرة، ويبدو أن الغرض من ارتدائها هو معاقبة النفس، وهو بالفعل ما تنجح هذه الملابس في تحقيقه ببراعة، فقد كان ظهري مسلوخًا من التعرض للهيب الشمس، كما طفحت في رأسي بعض البثور.

كان علينا الآن أن نرتدي أفضل ما لدينا من ثياب، وكان لدينا جميعًا ملابس جديدة تفي بالغرض، وفقًا للأعراف المتبعة. يرجع السبب في هذا إلى الاحتفال بالعيد من ناحية، وكذلك إلى الاعتقاد الشائع بأن الحاجّ يبدأ حياة جديدة "بصفحة ناصعة البياض"؛ لأن ذنوبه السابقة وآثامه قد غفرت له، لذا تمثل الملابس الجديدة تصويرًا رمزيًّا للحالة الروحية للحاجّ. إن إتمام الحج يعد الوقت الملائم لاتخاذ قرارات جديدة، والإقلاع عن العادات السيئة وخلافه.

ارتديت ثوبًا أبيض وجبّة سوداء وحزامًا ذهبيًّا به خنجر، أما مسعودي فقد ارتدى "الكانزو"، وهو اللباس الخاص بزنجبار، وهو صدرية عسكرية (من المعروف أنها عتيقة لأنني اشتريتها منذ عدة سنوات بعشرة جنيهات إسترليني)، و"جوهو" مطرز بالذهب (وهو ثوب يرتديه أهل مسقط والأماكن التي كانت تابعة لهم)، بينما بدا عبد الواحد مكسوًّا بالصفار؛ لأنه ارتدى قفطانًا أصفر كان قد اشتراه من دمشق.

أحضرت الحمير الخاصة بنا، وركبنا على ظهورها متجهين إلى "منى" قبل الفجر. لم نكن قد ابتعدنا كثيرًا حتى سقط مسعودي، مما أدى إلى اتساخ ملابسه، وتبعه عبد الواحد على الفور، وكانت هذه هي المرة السابعة في غضون ثلاثة أيام. كانت

الحمير المسكينة مرهقة جدًّا، ولم يمكنهم حتى تحريك أرجلهم للسير، ولذا فعندما بدأنا نستحثها على الهرولة سقطت على الأرض. لا توضع على ظهور الحمير العربية سروجًا ولا سوارًا، ولكن يكون عليها غُبُط، عادة ما تكون مطرزة، وهي مريحة، لكن من الصعب التشبث بها، خاصة عندما يضطر المرء إلى الركوب بالجنب، بسبب الملابس التي يرتديها.

وصلنا "منى" عندما كان إطلاق النيران يعلن عن موعد صلاة العشاء، فقد تعين على كل فرقة إطلاق إحدى وعشرين طلقة، عندما يحين وقت الصلوات الخمس خلال أيام العيد. كنا متعبين للغاية؛ لذا خلدنا إلى النوم بعد العشاء مباشرة.

كانت خيمتنا كبيرة بلغ قطرها خمسة عشر قدمًا. نمنا نحن الثلاثة وأرجلنا تجاه عمود الخيمة، بينما كانت رؤوسنا تجاه الخارج مثل أسلاك العجلة. جمعنا الأمتعة القليلة التي أحضرناها، وبعض الأشياء النادرة التي كنا نمتلكها في المنتصف. كان من أهم هذه الأشياء حقيبة بنّية اللون بها خمس جنيهات من الذهب، ومصحف مغلف بصورة رائعة، اشتريته بثلاثين شلنًا، قبل يومين من ترك مكة، وسبحة من الكهرمان، ومسدسان احتياطيان. يبدو أننا استغرقنا في النوم بعمق في هذا اليوم؛ لأن مسعودي - الذي كان أولنا استيقاظًا - لم يجد الحقيبة التي كانت معنا، وكذلك العديد من الأشياء بما في ذلك العمامة الرائعة الجديدة الخاصة به. كانت هناك آثار على الرمال، وحفرة مستديرة حول الخيمة تُظهر كيف تمكن اللص من الوصول إلينا. بالطبع لم يكن بوسعنا فعل أي شيء، ولكن هذه الحادثة تدل على جرأة أولئك اللصوص. إن التسلل إلى خيمة ينام بها ثلاثة رجال مسلحين، وسط معسكر محمي، وتجريدهم من ممتلكاتهم - أمر لا يُستهان به. في الحقيقة، لقد نجونا من الحادث؛ لأنه إذا كان أحدنا قد حرّك ساكنًا عندما كان اللص في الخيمة فإن طعنة السكين ستجعله يواصل نومه حتى يوم القيامة. إن هذا يفسر اعتياد أهل المنطقة هنا على أن يظلوا

ساكنين بلا حراك عندما يستيقظون من نومهم؛ حتى يتأكدوا تمامًا مما يحيط بهم، لذا فمن الخطير أن يمسّ المرء أحد العرب في الصحراء عند إيقاظه. بالطبع إذا كان الحظ قد حالفنا وتمكّنا من الإيقاع باللص متلبسًا بالجريمة، كنا سنطلق عليه النار فورًا؛ لأننا تلقينا تحذيرات عديدة من هذه الأخطار، وكنا لا ننام إلا وأسلحتنا على أهبة الاستعداد.

في طريقنا مررنا بمجموعة مكونة من تسعة عشر لصًّا مكبّلين سويًّا في طريقهم إلى مكة. كان من بينهم ستة أصيبوا بطلقات نارية، بينما قطعت اليد اليمنى للباقين. يعتبر الأوروبيون قطع اليد طريقة وحشية للعقاب، ولكنها طريقة متفق عليها من قبل كل العقلاء في البلاد الإسلامية، فالعلاج الحاسم يكون ضروريًّا عند التعامل مع الأمراض الخطيرة.

إن فقد الحقيبة هو أكثر الأمور التي أزعجتني؛ لأنني لن أستطيع شراء مثل هذه الأشياء مرة أخرى. كانت هناك تسع عشرة سبحة فقدتها في الرحلة، وكان السبب في ذلك هو أنني دأبت على نسيانهم في كل مكان، وقد أصبح هذا الأمر دعابة نتندر بها أنا ومسعودي.

كان هذا اليوم – الأحد - هو يوم العيد؛ لذا ارتدى الجميع أبهى حللهم، وكان مظهر كل أفراد المخيم رائعًا. في الصباح ذهبنا لنرى تقديم الهدايا للشريف. كان معسكره على منصة مرتفعة، ويتكون من أربع خيمات ضخمة، وأخرى صغيرة، كما كان هناك صفوف من الجنود في شكل مجموعة حالت دون تقدم الحشود. بدأت الفرق استعراضها ذهابًا وإيابًا في المساحة الباقية أمامها. وصلت هدايا العظماء واحدة تلو الأخرى، كل في صحبة الحراس الخاصين به، واستقبلها الشريف، الذي كان يجلس على منصة في نهاية الخيمة الكبيرة. كانت الهدايا مقدمة من مبعوثين من الدول الإسلامية، وحاكم مكة، وبعض زعماء المسلمين من الهند وأماكن أخرى، بالإضافة

إلى بعض ذوي النفوذ. عندما تجمع الجميع وجلسوا، وصل السفير التركي ومعه هدية السلطان محمولة على طبق من ذهب. لا يمكنني البتّ في ماهية الهدية؛ لأنها كانت مغطاة بالقماش، ولكن قيل لي إنها عادة ما تكون بضعة آلاف نقدًا. تقدم الشريف إلى حافة المنصة؛ ليستقبل هذا الزائر واصطحبه إلى الداخل.

عندما انتهى هذا الاحتفال وغادر السفير التركي، نهض أعيان مكة والحجاج من الدول الأجنبية الذين يرغبون في تحية الشريف، الذي خصص منصة مرتفعة كان يصعد إليها من يرغب في ذلك. ذهب مسعودي، ولكنني رفضت أن أفعل ذلك؛ خشية أن يسألني أية أسئلة عن نفسي قد تكون محرجة.

كان الشريف الحالي – السيد حسين – رجلًا محبوبًا، تولى منصبه مؤخرًا، خلفًا لأخيه الذي عزله الحاكم التركي، وبناءً على ما رأيت، فإن الرجل يستحق التقدير الذي يكنه السكان له. يدرك الشريف تمامًا عظمة منصبه، ويسعى إلى إحياء التقاليد القديمة للنبي والصحابة الأوائل، الذين كانوا يساعدون الناس كافة، ويحاول تطبيق نظرية المساواة والأخوة التي أكد عليها القرآن. أما الشرفاء الذين سبقوا "السيد حسين" فقد كانوا لا يسمحون لأي أحد أن يجلس في حضرتهم، وكانوا يعاملون من هم أقل منهم وكأنهم حثالة.

بينما كنا نجلس في خيمتنا ندخن التبغ ونستمع إلى مسعودي وهو يقص علينا ما حدث عند المنصة، حدث ما لا يحمد عقباه. كانت جوانب خيمتنا مُسدلة - كما هو معتاد أثناء حر النهار - وكنا نحن جالسين على السجادة، فسمعت صيحة تعجب من مسعودي، ورأيته يحدق فوق كتفي بلا حراك. عندما نظرت حولي عرفت سبب ما فعله، فقد كان الرجال الثلاثة من "مومباسا" الذين قابلناهم في المدينة مع "قبي" يقفون على بعد بضعة أقدام، وينظرون إلى خيمتنا، وبصحبتهم رجل آخر لا أعرفه. بدا من المستحيل أنهم لم يروا مسعودي، وإذا رأوه فمن المؤكد أنهم سيقصدون الخيمة

ليسلموا عليه، وسيتعرف عليّ أحدهم بالتأكيد. كان الهروب مستحيلًا، واعتقدت أن الأمر قد انتهى، ولكن الشمس كانت تسطع في عيونهم، فلم يروا شيئًا، وبعد دقيقة واحدة واصلوا مسيرهم. ما إن أداروا ظهورهم حتى ركضت أنا ومسعودي خارج الخيمة، واختلطنا بالحشود.

كان لديّ علم عن وصول هؤلاء القوم؛ لأن مسعودي أكد لي أنهم سيصلون مع المحمل السوري، ولكن بدا لي أنه هنا في "منى" تكاد تكون فرصة مقابلتهم معدومة، لذا فلم آخذ الاحتياطات اللازمة فلا يراني أحد مع مسعودي. لا يمكنني القول ما الذي كان سيحدث إذا ما رأوني، فقد أوشكت نقودنا على النفاد، وبدون شك كان سيتحتم علينا أن نجد طريقة لنضمن صمتهم. على أي حال كنا شاكرين لله لأننا لم نُضطر إلى فعل ذلك.

على الرغم من أنني لم أتعرف على الشريف، إلا أنني تلقيت ومن معي دعوة لننضم لأتباعه في الصلاة. يدعو الشريف عددًا كبيرًا من الحجاج المبجلين، وقد استحققنا هذه الدعوة بفضل أصدقائنا من أهل مكة، أو ربما الوسيط الذي استعملناه.

خلال فترة ما بعد الظهيرة استقبلنا بعض الزوار الذين أتوا لتهنئتنا بالعيد، ولتهنئة الحاج "علي" والحاج "مسعودي" على تأدية الحج. كان موضوع الحوار هو لون العلم الذي يرفرف فوق مكتب الحجر الصحي، فالعلم الأحمر يدل على أن كل شيء على ما يرام، ولكن إذا تغير اللون إلى الأصفر فهذا يدل على أن الكوليرا أو الطاعون قد ظهرا، وهذا يؤثر على الجميع على حد سواء؛ لأنه - بغضّ النظر عن الخطر - يتعين على الجميع تحمل مضايقات ضوابط الحجر الصحي مهما كانت، ومع ذلك، فإذا كان الحاجّ غير مصاب بالمرض تكون الإجراءات أكثر سلاسة.

في المساء ذهبنا إلى "منى" ورمينا الجمار، وقابلنا الشريف والمجموعة المرافقة له عائدين بعد انتهائهم من رمي الجمار. كان الجميع الآن في أبهى صورهم،

فالشريف والعرب كانوا يرتدون ثيابًا مطرزة بالذهب، بينما وضع الأتراك زيهم والزوار الأجانب الحلل الوطنية الخاصة بهم.

احتفظت مجموعة سائسي الجمال من البدو الذين يرافقون الشريف دومًا بطلعة بهية، كما كانت الجمال من سلالة خاصة مشهورة بسرعتها، ومختلفة في مظهرها عن الجمال العادية تمامًا، مثلما يختلف الحصان الفائز في سباق " الديربي"[1] عن الأحصنة القوية التي تجرّ العربات، فهم ينقلون البريد من مكة إلى جدة في ثلاث ساعات أو يزيد قليلًا. تعدّ رؤية السائس العربي وهو يمتطي جمله - وكلاهما مجهز - منظرًا رائعًا، ولا أتخيل كيف يتمكن من البقاء على ظهر الجمل عندما ينطلق بسرعته الفائقة.

سألت عن إمكانية شراء أحد هذه الجمال، ولكن قيل لي إن هذا الأمر قد يتسبب في بعض المتاعب، وقد يصل سعر الجمل الصغير من أفضل السلالات إلى مائة وخمسين جنيهًا إسترلينيًّا، أما جمل الركوب غير الأصيل، لكن من سلالة جيدة (ليس من سلالة ثوروبريد)[2] فيمكن شراؤه بخمسين جنيهًا إسترلينيًّا.

بعد أن رمينا الجمار ذهبنا لزيارة مسجد "منى" الذي لا يحوي أي شيء مثير على وجه التحديد. كان محيط المسجد يعجّ بالفقراء الذين يخيمون هناك، وكان شديد الاتساخ، لذا في العام الماضي كان مليئًا بالموتى وبأناس يحتضرون؛ لأنه كان بيئة خصبة للعدوى. لقد كان من الغريب أن يُسمح للحجاج بتدنيس المكان بهذه الصورة المقززة. على الرغم من وجود العديد من الشكاوى في الأعوام الماضية لم تُتخذ أي إجراءات حيال هذا الأمر.

---

[1] سباق "الديربي" هو سباق للخيول الأصيلة في بريطانيا يقام على مضمار أكسيوم. (المترجمان)

[2] هي خيول السباق المهجنة الأصيلة التي نشأت في بريطانيا بمزاوجة ثلاثة من الخيول العربية الأصيلة مع الخيول الإنجليزية. نشأت أجيال من هذه الفئة جمعت في صفاتها بين قوة الخيول الإنجليزية، وسرعة الخيول العربية. (المترجمان)

في المساء كانت هناك ألعاب نارية، وكانت ملحوظة بسبب كثرتها، وليس جودتها، كما كان هناك غناء وفرق موسيقية استمرت حتى ساعة متأخرة من الليل.

كان اليوم التالي هو يوم "الرجوع" أو العودة إلى مكة، ولكن ينبغي ألا يغادر أحد مكة إلا بعد صلاة الظهر. تم الاحتفاء بساعة "الرجوع" بإطلاق تسعين طلقة، وعلى الفور بدأ الجميع في الإسراع بالرحيل. سرعان ما صارت الشوارع الضيقة "بمنى" مكتظة، وأصيب العديد من الحجاج في الزحام. بدأنا نحن الثلاثة على حميرنا، ولكننا سرعان ما تفرقنا. استطاع عبد الواحد النجاة بأعجوبة؛ لأن حماره سقط على الأرض، وألقي به تحت أحد الجمال الذي عبر فوقه تمامًا، ولكن لحسن الحظ لم يدهسه. كان علينا أن نرمي الجمار مرة أخرى، ولكن في هذه الظروف كان الأمر خطيرًا، وأكثر صعوبة من ذي قبل. تركنا "منى" في حوالي الساعة الواحدة إلا الربع، ولكننا لم نصل المنزل إلا في الساعة الخامسة تقريبًا. كان عبد الواحد هو أول من وصل، بينما كان مسعودي هو آخرنا وصولًا؛ نظرًا لأنه سقط من على حماره، وأخذ يبحث عنه وسط الحشود. كنت أنا أسعدهم حظًّا؛ لأنني وصلت دون أن أصاب بأي أذى. أما الجمال الخاصة بنا فلم تصل حتى حلول الظلام، ولكن نظرًا لحالة الطريق فقد كنا محظوظين لوصولها في هذا التوقيت.

يرجع السبب في هذه العجلة التي تؤدي إلى تلك المشكلات والأخطار؛ إلى أنه وفقًا للأحكام (الشرعية) القديمة يجب على الحجاج مغادرة "منى" بعد الظهر وقبل الغروب، وقد كان هذا جيدًا جدًّا عندما كانت أعداد الحجاج بضعة آلاف، أما الالتزام بهذا الحكم الآن فهو أمر غير منطقي؛ لأن العديد من الحجاج يصابون كل عام دون أي داعي لذلك. ينطبق هذا الأمر على العديد من المناسك، مثل إهدار المال على الأضاحي في اليوم الثالث؛ لأن هذه الأموال التي تُنفق دون جدوى، إذا ما وجهت إلى البرّ والإحسان أو الأعمال العامة، فسيكون هذا أفضل، وإذا كان لا بد من نحر هذه

الحيوانات فمن الممكن أن توزع خلال العام، وتكفي لإطعام الفقراء في الجزيرة العربية. بالطبع لم تكن نية النبي أن تكون الأضحية مصدر خطر للعامة - كما هو الحال الآن - ولكنه كان يريد أن يضمن أن لدى الجميع ما يكفيهم من الطعام في يوم العيد.

كان الرجوع إلى مكة هو نهاية الحج، وسوف أروي بقية الوقت الذي قضيناه في عبارات موجزة. شعرت بالإحباط عندما علمت أنه لا يمكننا المغادرة في اليوم التالي كما كنا ننوي. كان السبب الذي سيق لهذا الأمر هو أن معظم الجنود الذين يحمون الحصون والقلاع الموجودة على الطريق كانوا مجندين في مكة خلال هذا الأسبوع، وأن الطريق الآن ليس به أي حراسة؛ لذا فهو غير آمن. ومع ذلك فقد كنت عازمًا على المغامرة والذهاب، ولكن صدرت أوامر حاسمة تمنع أي شخص من مغادرة مكة إلا بعد الحصول على موافقة رسمية، لذا كنت واثقًا أننا إذا حاولنا المغادرة فستوقفنا السلطات، وسيرجعوننا مرة أخرى إلى مكة. كان هذا القرار صائبًا تمامًا؛ لأن الأخطار لا يمكن تخيلها، ولذا يحق للحكومة اتخاذ التدابير التي تراها ضرورية؛ لضمان سلامة الحجاج التي تعتمد عليها سمعتهم، ولكن كان الأمر مزعجًا. لم يكن هناك ما نفعله، فقد رأينا كل شيء، وكان عندي أسباب منطقية تجعلني أستاء من التأخير. ما زاد الأمور سوءًا هو أن الحاكم قرر إعطاء الجنود - الذين عملوا بجدّ - بضعة أيام إجازة، قبل إرسالهم إلى الحصون؛ نظرًا لعدم ظهور أية أمراض في المدينة. في حالة ظهور الكوليرا كانت السلطات ستحرص على التخلص من الحجاج في أسرع وقت ممكن، ولكن هذا العام ليست هناك ضرورة لهذه العجلة.

في النهاية اضطررنا إلى الانتظار ستة أيام أخرى، ولم تكن كلها سيئة على الإطلاق. في الحقيقة، لولا قلقي لأنني كنت أرغب في الرحيل لكنت قضيت وقتًا ممتعًا، فقد أصبح لدينا أصدقاء كثر، ولم أعد أشعر أنني غريب أو أنني مُضطر

لحضور أي احتفال، مثلما كان الوضع قبل ذلك. اشتريت تذكارين مما تبقى من مالي الذي أوشك على النفاد، أحدهما سجادة رائعة أحضرها أحد الوسطاء من بغداد. كانت هذه السجادة نوعًا من الهدايا التي يقبلها المرء شريطة أن يأخذ الواهب شيئًا في المقابل، وهذا الشيء بالطبع يجب أن يكون مماثلًا أو أفضل من الهدية نفسها.

أصبت بالهلع عندما أدركت كم كلفني الحج كله بما في ذلك استئجار الحمير والجمال والخيام والخدم، وما دفعته للوسيط - الذي استحق بالفعل ما بُذل له من مال - والنفقات الأخرى الفرعية الخاصة بالحج. بعد كل هذه النفقات تبقى معي عشرون جنيهًا بالكاد، وهو ما يكفي لأن أذهب أنا ومن معي إلى جدة، ومن هناك إلى وجهاتنا المختلفة. كان مسعودي قد أنفق المدخرات القليلة التي كانت معه على الصدقات، بينما أنفق عبد الواحد كل ما كان معه منذ البداية على بعض الهدايا التي اشتراها لأصدقائه في ألمانيا، لذا لم أكن لأتوقع المساعدة من أي منهما. كان بإمكاني اقتراض بعض الأموال، ولكنني آثرت أن أحصل على النفقات الضرورية في جدة، كما مثل "قبي" عبئًا ماليًّا آخر ولكنني وعدته، لذا فكنت عازمًا على اصطحابه معنا.

كان الحادث الهامّ الوحيد خلال هذه الفترة هو القبض على مجموعة من الوسطاء من بغداد. لم أعلم ما الذي حدث بالضبط، ولكنني أعتقد أنهم خرقوا بعض اللوائح الحكومية الخاصة باستئجار الجمال من البدو، ولكن تم إطلاق سراحهم جميعًا قبل أن نغادر. كان هناك عدد كبير من الحجاج معظمهم من الفرس متجهين إلى المدينة؛ لأنهم أخّروا زيارتهم لها إلى ما بعد الحج، وكنت واثقًا أن صديقنا حمزة سوف يستفيد من هذا الأمر عندما يذهبون إلى هناك. كان معظم الحجاج يطلبون منا أن نسدي لهم النصح فيما يتعلق بالسكن وخلافه لأننا ذهبنا إلى هناك، وقد رشحنا لهم منزل "أمان" بكل سرور.

أخيرًا أعلن المنادي مساء يوم الجمعة أن المسافرين إلى جدة يمكنهم السفر متى يشاءون. كنا قد انتهينا من جميع التجهيزات؛ لذا تمكنا من المغادرة في فجر اليوم التالي. قررت لعدة أسباب أن أركب مع عبد الواحد على حمارين، بينما تركت مسعودي و"قبي" مع أمتعتنا على ثلاثة جمال. أدركت أن التبكير في الرحيل أفضل؛ لأنني كنت قد أعددت بعض الترتيبات لمقابلة أخي في مصر، وحداني الأمل أن أتمكن من تدبير كل شيء بمجرد وصولي إلى جدة؛ حتى نتمكن من المغادرة فور وصول مسعودي.

كنا قد أخبرنا "قبي" منذ عدة أيام أن يبقى على أهبة الاستعداد، وذهب مسعودي لإحضاره إلى المنزل في تلك الليلة. لم يتمكن من معرفتي في البداية، لكنه تعرف علي أخيرًا عندما كنا سويًّا في جدة. كلفنا أحد أصدقاء "جافا" - من العرب الفقراء - بمرافقة مسعودي، واتفقنا على أن ندفع له دولارًا مقابل ذلك، وأن نوفر له جملًا ليمتطيه. اعتقدت أن هذا أمر جيد؛ لأن هذا العربي يعرف عن الطرق ما لا يعرفه مسعودي، وقد كان هذا القرار سديدًا؛ لأنه لو تُرك مسعودي وحده فمن الممكن أن يتأخر لعدة أيام. إن سائسي الجمال - كما تعلمنا من خلال خبرتنا - هم مجموعة من اللصوص الأسوأ على الإطلاق، ويمكنهم خلق المتاعب إذا ما اعتقدوا أن هذا الأمر سيسفر عن أي ربح محتمل.

ودّعنا الحرم في أوقات مختلفة في تلك الليلة؛ لأننا كنا مشغولين في حزم أمتعتنا وترتيب الأمور اللازمة لرحيلنا. دفعنا "لجافا" - الطاهي - ، و"إبراهيم" - الخادم – أجرتهما، وكنا مسرورين لأنهما وجدا عملًا لدى مجموعة من الحجاج قاصدين المدينة. لقد كان كلاهما جيد، وقد جعلني طهي "جافا" أطمح في السفر إلى بلاد فارس. استطعت سد العجز في الميزانية عن طريق بيع البندقية وبعض الأشياء التي كانت ضمن معدات المعسكر، والتي لم نعد بحاجة إليها على الإطلاق.

في الصباح انتظرنا حتى حُملت الأمتعة على ظهر الجمال التي مع مسعودي، وبدأت في المسير، ثم ودعنا محمد سعيد، ووعدناه أن ننزل عنده في المرة القادمة التي نأتي فيها إلى هنا، ثم بدأنا في درب المسير. كان الحماران اللذان نركبهما جيدين. كان شعرهما مشذبًا بطريقة خاصة بأهل مكة، وكان من الواضح أن مالكهما يوليهما عناية جيدة. امتطى البدوي المسئول عن الحمارين حمارًا أصغر، وكما هو معتاد مثّل لنا مصدرًا للإزعاج كلما أمكنه ذلك. دفعت جنيهًا إسترلينيًّا مقابل هذين الحمارين، ولكن كان الأمر يستحق لأن كنا نأمل في قطع المسافة إلى جدة في يوم واحد.

كانت أول مشكلة واجهتنا هي الحصول على تصريح مرور للحمير. تحايل علينا الرجل المسئول عن الحمير من خلال خطة جيدة ومدروسة لندفع روبيتين. كنت مستعدًّا لأن أدفع حتى نواصل المسير، لكن عبد الواحد - الذي لم أصوره كبطل في هذا الموقف من خلال القصص التي رويتها - آثر أن يموت شهيدًا من أن يخدعه أحد، ويجعله يدفع سنتًا واحدًا بالاحتيال. تجادلنا كثيرًا وأخيرًا سألنا أحد الشيوخ، فأرسلنا إلى المدير الذي لم يكن موجودًا، وهكذا .. حتى أضعنا حوالي ساعة.

عندنا بدأنا المسير مرة أخرى سرنا في الطريق الممتد المستقيم الذي أفضى بنا إلى البلدة، وهناك مررنا بالحراس الذين فحصوا أوراقنا. أخيرًا، وجدنا أنفسنا على الدرب الذي سيرسلنا عاجلًا إلى أرض الوطن.

استمتعت بالجزء الأول من رحلتنا: فهواء الصباح كان منعشًا وباردًا، وكانت الحمير التي نركبها نشيطة، كما كانت سرعتنا جيدة. بالإضافة إلى ذلك، شعرت بالسعادة؛ لأننا في المرحلة الأخيرة من المغامرة التي كان من الممكن لها ألّا تنجح، فما ينتظرني الآن هو الراحة والاسترخاء، بعد أن ولّت أوقات الأخطار والصعاب. كلما تذكرت تجربتنا كنت أدرك أننا نجحنا لأن الحظ حالفنا، وإنني لممتنّ للغاية وشاكر لله؛ لأن كل شيء سار على ما يرام، ولم يحدث أي مكروه.

على الرغم من أننا غادرنا مكة مبكرًا إلا أننا لم نكن أول من تركها؛ لأن الكثير من الحجاج تحركوا في المساء، وكذلك المحمل المصري الذي مررنا به بالقرب من "بحرة". قيل لنا إن المحمل سيذهب بالبحر إلى ينبع ومنها إلى المدينة. في الأعوام العادية يسير المحمل من القاهرة برًّا حتى المدينة قبل الحج، ولكن تعديل المسار المعتاد جاء بسبب الاضطرابات التي عمت البلاد.

وصلنا "بحرة" حوالي منتصف النهار، واسترحنا لمدة ساعة لتناول الغذاء. عندما واصلنا المسير وجدنا أننا قد سبقنا كل الجمال التي انطلقت قبلنا، ومن ثم أمسينا الآن نسير على الطريق وهو خالٍ. قابلنا ثمانية تجار من جدة يركبون الحمير، وقررنا أن نبقى معهم كنوع من الاحتياط خوفًا من قطاع الطريق، فعلى الرغم من أن الطريق مُحصن بالوسائل المعتادة إلا أنه من غير الآمن أن تسافر مجموعة صغيرة وحدها خاصة في وقت الغسق. واصلنا على الطريق نمشي الهوينى حينًا ونُسرع في أحيان أخرى لنستطيع إنجاز ستة أميال في الساعة. قبيل غروب الشمس مررنا بين التلال السفحية، ورأينا منارات جدة البيضاء تلوح في الأفق. كان من الأفضل السير بسرعة الآن، وكنا نرجو أن ندخل البلدة قبل أن يُرخي الظلام سدوله. بدا جليًّا أن الحمير تعرف الهدف الذي نريد الوصول إليه، لذا بدأت في التقدم بصورة أسرع، ولكن أتت الرياح بما لا تشتهي السفن. عندما وصلنا عند أحد المواقع المحصنة اقترب منا أحد الجنود واعترض طريقنا ممددًا ذراعيه، وأجبرنا على التوقف. أخبرنا أن الحكومة أصدرت قوانين صارمة تقضي بعدم السماح لأي شخص بالسفر ليلًا، وأنه يجب علينا المبيت في أماكننا تحت حماية هذا الحصن. بالطبع اعترضنا بقوة، ولكن دون جدوى، فقد قال ضابط الصف المسئول الذي تم استدعاؤه بناءً على طلبنا أن أوامره واضحة وصريحة. حاولنا استخدام الرشوة، ولكن الأمر لم ينجح على الإطلاق. أخيرًا - وبناءً على ما اقترحته - وافق على السماح لنا بمواصلة السير إذا وقّعنا ورقة تنصّ على أننا

واصلنا المسير على مسئوليتنا، على الرغم من أنه نصحنا بعدم فعل ذلك. سرعان ما كتبنا الورقة ووقعناها، ولكن قبل أن ننتهي من الأمر غيّر ضابط الصفّ رأيه مرة أخرى، ومنعنا من التحرك، وإلا فسيطلق علينا رجاله النار. لم يكن التوقف بالنسبة لنا أمرًا هامًّا، ولكنه كان أمرًا مزعجًا للغاية بالنسبة لسكان جدة، الذين كان في انتظارهم - بلا شك - منازل مريحة وعشاء جيد على بعد ساعة فقط. كان بعضنا يؤيد فكرة الهروب من الحصن؛ لأننا لم نكن نصدق أنهم سيطلقون النيران علينا حقًّا، وحتى إذا فعلوا ذلك فكنا نعتقد أنهم لن يصيبوا الهدف، لكن تبنى هذا الرأي أقلية وكانت غالبية الأصوات ضدنا، لذا اضطررنا إلى التخييم في مكاننا. كان هناك خيمة صغيرة تعيش فيها امرأة بدوية مسنّة تبيع القهوة للمسافرين، بالإضافة إلى بعض المؤن، مثل البيض والقليل من الخبز البائت. اقتنص عبد الواحد الفرصة لاستعراض قدراته التجارية مستغلًّا المشادّة الكلامية التي حدثت بيننا وبين ضابط الصفّ لاحتكار كل المؤن، والنتيجة أننا دفعنا فاتورة باهظة الثمن.

قبل أن نخلد إلى النوم تحدثنا مع أحد الجنود، وأخبرنا أن صبيًّا قادمًا من جدة كان يمتطي حمارًا لقي مصرعه، عندما أطلق أحد قطاع الطرق النار عليه بالقرب من هذا الحصن. إن الطريقة المعتادة للّصوص هي قنص المسافرين من على مسافة مائتين أو ثلاثمائة ياردة، وعندما يحرزون نجاحًا يركضون تجاه ضحيتهم وينهبونها، وهم يخاطرون بأن يلاحظهم أحد أو تطلق عليهم النيران من أي حصن موجود في نطاق تلك المنطقة. إذا أنشئت ضعف الحصون الموجودة حاليًّا فسيكون هذا تقدمًا كبيرًا، وكلما كانت تلك الحصون صغيرة فلن تتكلف الكثير من النقود. إن مواقع الحصون الحالية متباعدة جدًّا عن بعضها البعض، ولذا فهي لا تخدم الغرض الذي أنشئت من أجله بصورة فعالة. ذكّرني وصف الجندي للحياة التي يعيشونها في تلك المواقع العسكرية بجنوب أفريقيا.

بعد قضاء ليلة باردة وغير مريحة بدأنا في التحرك عند بزوغ الفجر، ودخلنا جده قبل طلوع الشمس. ذهبنا أولًا إلى مسكننا القديم، ووجدنا أن صاحب النزل ذهب إلى مكة، ولكنه ترك رسالة أن بإمكاننا استئجار الغرف إذا كنا بحاجة إليها. وضعنا أغراضنا في أكثر الأماكن نظافة استطعنا إيجادها، فمنذ أن سافر صاحب النزل من أسبوعين لم ينظف أي أحد الغرف أو يرتبها، فالغبار يتراكم بسرعة في جدة، تمامًا مثل الكثير من الأشياء الأخرى؛ كما اكتشفت لاحقًا. دفعني شعوري بعدم الارتياح في هذا المكان إلى أن أتفحص قدمي وكاحلي، ووجدت عددًا كبيرًا من البراغيث. هرعت على الفور لأقرب صيدلي، وابتعت كمية كبيرة من المستحضر المحلي البديل للكيتينج،[1] ولكن جميع المبيدات الحشرية التي توصل إليها العلم الحديث لم تكن لتحميني من التعرّض للقرص بشدة. انضم إلينا عبد الواحد بعد أن أحضر أمتعتنا، وتناولنا الفطور مع صديقنا المسيحي القديم صاحب المطعم، وبعدها قمنا بجولة للبحث عن مكان إقامة جديد. في النهاية وجدنا غرفة جيدة ونظيفة، بدت مناسبة بالرغم من أننا اضطررنا لدفع مبلغ كبير للحصول عليها. بدأت أدرك أن المال الباقي لن يكون كافيًا ليوصلنا إلى أرض الوطن بأي حال من الأحوال، وأنني يجب علي أن أضيف المزيد بطريقة ما، لذا فلم أعد أكترث بأمر الترشيد.

[1] Keating's Insect Powder وهو مبيد حشري يقضي على الحشرات شاع استخدامه في بريطانيا في القرن التاسع عشر. (المترجمان)

عندما بدأنا نفكر في مسألة العبور وجدنا أن الأمر سيكون عسيرًا للغاية، فعندما كنا في مكة سمعنا إحدى الشائعات - التي بدت لنا آنذاك غير معقولة - تقول إنه لن يُسمح لأي حجاج غير أولئك الذين يحملون جواز سفر مصري ومن أصل مصري - بدخول مصر؛ إلا بعد رجوع المحمل، وهذا يعني أنه يجب الانتظار لمدة شهرين آخرين. ما أفزعنا هو أن هذه الشائعة كانت صحيحة بالفعل، فقد رفض كل وكلاء السفن البخارية أن يبيعوا لنا أي تذاكر لأي ميناء مصري، وحذرونا بطريقة لائقة أن شراء أي من هذه التذاكر سيعدّ حمقًا؛ لأنهم على ثقة أن السلطات ستعيدنا إلى هنا مرة أخرى إذا حاولنا الذهاب إلى أي ميناء هناك. استشرنا ضابطًا تركيًّا محنكًا كان يجلس أمام أحد المقاهي، وأخبرناه أن لدينا أعمالًا تجارية هامة في مصر، وسألناه عن السبيل للذهاب إلى هناك، فأخبرنا أن هناك طريقتين فقط لفعل ذلك؛ إحداهما تكمن في شراء جواز سفر من أحد المصريين الفقراء، وهو أمر يسير، ثم نسافر ونحن متنكرون وكأننا مصريون، ولكنه أبدى تخوفًا مما قد يحل بنا إذا اكتشفت السلطات المصرية الأمر، فلم يكن أي منا يُشبه المصريين. أما الطريقة الثانية فهي الذهاب إلى بيروت أولًا، ثم تغيير جواز السفر الذي عليه ختم السلطات في مكة، ومن ثم الذهاب

من بيروت إلى ميناء "بورسعيد"؛ لأن السلطات ستتغاضى عن هذا الأمر؛ لأنهم كانوا غير راضين عن هذه القيود. كانت المشكلة في هذا الاقتراح هو أننا سنبقى في الحجر الصحي لمدة عشر أيام في "الطور"[1]، وأربعة أيام في بيروت، وأربعة أخرى في "بورسعيد"، وهذا أمر فظيع؛ لأنه سيفسد رحلتي التي خططت لها مع أخي للذهاب إلى السودان.

لم يكن مسعودي قد وصل حتى الآن، وبدأت أشعر بالقلق عليه، كما كنا بحاجة إلى أمتعتنا وملابسنا؛ لأننا كنا في أمسّ الحاجة إلى الاستحمام وتغيير ملابسنا. قضينا بعض الوقت ندخن في المقاهي، ونحاول التفكير في حل ملائم للذهاب إلى مصر. فكرنا في الذهاب إلى عدن والتغيير إلى باخرة مملوكة لشركة P & O أو إلى أي سفينة متجهة إلى مصر، ولكن كانت هناك مشكلة الحجر الصحي، وكذلك عدم توفر النقود الكافية لذلك. فكرت أيضًا في الذهاب مباشرة عبر ميناء "سواكن"،[2] ولكن لن تتواجد أي سفينة متجهة إلى هناك إلا بعد أسبوعين، كما كان علينا الانتظار هناك لمدة عشر أيام في الحجر الصحي، علاوة على أن غالبية الحجاج السودانيين يكونون من الأفارقة السود، وهم ليسوا صحبة جيدة في السفر. لو كان معي نقود كافية لأمكن استئجار سفينة أبحر بها ثم أقوم بتأليف قصة مثل قصص الجنيات الخيالية لسلطات الميناء على الجانب الآخر الذي سأرسو عليه.

وصل مسعودي بعد ظهر اليوم التالي. كان السبب في تأخره لعدة ساعات هي الدسائس التي حيكت له من قبل سائسي الجمال الذين شرعوا في حبك مكائدهم فور أن أدرنا ظهورنا، فقد طلبوا الحصول على الأجرة كاملة قبل مغادرة مكة، وقاموا بالفعل بإنزال الأمتعة من على الجمال عندما رفض مسعودي طلبهم. كان مسعودي يرغب

---

[1] يقصد الكاتب "طور سيناء" وهي عاصمة محافظة جنوب سيناء. (المترجمان)

[2] ميناء يقع في شمال شرق السودان على الساحل الغربي للبحر الأحمر. (المترجمان)

في تلقينهم درسًا قاسيًا في الأخلاق باستخدام سيفه، ولكن العربي الذي استأجرناه أبدى موقفًا جيدًا، وساعدهم في فك الحبال، ورفض أخذ الجمال على الإطلاق، ثم ذهب إلى المدير؛ الذي قبض على أولئك المجرمين، وأجبرهم على إرجاع النقود التي دُفعت لهم، وأمرهم (أتمنى أن يكون قد نفذ ذلك بالفعل) أن يدفعوا خمسة وعشرين ريالًا عقوبة لهم على فعلتهم.

كان على مسعودي أن يجد مجموعة جديدة من سائسي الجمال، ويعقد معهم اتفاقًا جديدًا، وهو الأمر الذي استغرق المزيد من الوقت. ولكن على أية حال شعرت بالراحة والاطمئنان عندما رأيته سالمًا غانمًا، ولم أكن لأتذمر على التأخير حتى ولو كان بسبب خطئه هو.

قد تنتهي قصة رحلتنا هنا عند هذه النقطة؛ لأننا تفرقنا في جدة. ذهب مسعودي و"قبي" إلى "مومباسا"، بينما ذهب عبد الواحد إلى بلاد فارس، وذهبت أنا إلى مصر. تمكنت من التغلب على مشكلة الحجر الصحي في النهاية، ولم يكن هذا بسبب براعتي، ولكن بفضل مساعدة أحد أبناء البلد.

قد يتوهم القارئ - الذي شرفني بقراءة تفاصيل رحلتي - أن سكان المدن المقدسة والعديد من الأناس الآخرين الذين قابلناهم خلال هذه الشهور الأربعة لا يتمتعون بقوة الملاحظة، أو أنني لا بد أن أكون محترفًا محنكًا في المكر والخداع، ولكن ليس الأمر كذلك، فالسبب الحقيقي في خداع أولئك الناس يرجع إلى عدم معرفتهم وعدم اهتمامهم بالعالم الخارجي، أو حتى بتلك الأماكن التي تعتنق الإسلام. إن هناك العديد من الطوائف الإسلامية، ويمكن للمرء أن يجد أتباعًا لكل فرقة في العديد من الدول المختلفة، لدرجة أنني أعتقد أنه إذا أقام شخص ما دولة لنفسه ولغة لا وجود لها على الإطلاق، ثم سافر إلى مكة، فلن يكون لدى أي فرد معلومات جغرافية كافية ليستطيع أن يكشف أمره. ومع ذلك فهم ماضون في طريقهم لتغيير ذلك سريعًا،

وإذا حاول بعض المطوفين بذل جهد في وضع كتاب عن الأعراق وعلاقتها بالإسلام الآن، وتقسيم الأجناس المختلفة التي تأتي إلى مكة، فسيكون من المستحيل أن يقوم أي منهم بما فعلته أنا. ليست هناك مراجع في هذا المجال، وحتى الكتب المدرسية التي تخرج من مطابع بيروت؛ عادةً ما يتجاهلها المسلمون العرب الذين يُظهرون عدم اكتراث، بل قل عدم رضا عن العلوم المعرفية بشكل عام؛ باستثناء العلوم اللغوية، فوفقًا لمعتقداتهم يُعدّ الرجل المتعلم لغويًّا مفوهًا، مع أن النبي لم يقصد ذلك عندما قال: "اطلبوا العلم ولو في الصين."[1]

لقد كان هذا مجرد تعميم، وهو يُشبه تمامًا الصورة السيئة التي أعطيتهم عني في الكثير من الأمور. هناك بالطبع استثناءات عديدة، وأقصد العديد من الرجال المثقفين والمفعمين بالحيوية في مكة، وآخرون يعيشون حياة الرشد والصلاح، فليس كل مكي منحرفًا، وليس كل مطوِّف جشعًا.

أثرنا الشكوك في بعض الأوقات، كما ذكرت آنفًا. على الرغم من أن الخادمين كانا فارسيين، ويعرفان القليل من اللغة العربية، إلا أن الشكوك لا بد أن اعترتهما. إذا قُدر لهذه الشكوك الارتقاء لدرجة اليقين لطلبا منا أن ندفع لهم أموالًا مقابل تسترهم على الأمر. ينبغي ألّا نُغفل أن هناك أجرًا عظيمًا لأي شخص يكتشف "كافرًا" ويُبلغ عنه.

أودّ أن أنصح من يريد الذهاب لرؤية مكة أن يقصدها في موسم الحج؛ لأنه سيكون من السهل دخولها، كما أنها تكون أكثر تشويقًا ومتعة. لا أعتقد أنه يمكن الزيادة كثيرًا على الإجراءات التي اتخذتها فيما يتعلق باللغة والتنكر وخلافه. على أي حال أوصي بشدة من يريد الذهاب أن يدخل إلى البلاد متخفيًا، ولا ينتظر حتى يصل

[1] هذا الحديث معناه صحيح، ولكن لم تثبت نسبته للنبي (ﷺ)، فقد قال الشيخ الألباني في ضعيف الجامع أنه "موضوع"، والحديث الثابت هو ما رواه ابن ماجه من حديث أنس ابن مالك قال: "قال رسول الله (ﷺ): طلب العلم فريضة على كل مسلم." (المترجمان)

إلى الميناء ثم يرتدي زي التنكر. إن تجاهل مثل هذه الاحتياطات أدى إلى افتضاح أمر العديد ممن كانوا سيؤدون فريضة الحج، وترحيلهم إلى بلادهم، وعودتهم بخُفَّيْ حُنَيْن. أما أثناء تواجد الزائر في مكة، فيجب عليه أن يحتاط لأمره ويتجنب مقابلة مجموعة الحجاج القادمين من البلد التي يُفترض أنه ينتمي إليها، كما يجب عليه ألّا يسمح للمطوِّف الخاص به بأي حال من الأحوال أن يأتي إلى منزله. في الحقيقة، من الأفضل عدم استئجار نفس المطوِّف مرتين، وكلما قلل الشخص من تعامله معهم كلما كان هذا أفضل لأنهم أذكياء جدًّا.

عند مراعاة هذه الاحتياطات، ووجود معلومات عابرة عن اللغة العربية وعن الطقوس الإسلامية، واتخاذ الحيطة والحذر، يمكن أن يحجّ المرء متنكرًا في مكة دون التورط في أي مخاطر تُذكر.

تعتبر المدينة أكثر خطرًا من مكة، ولا يجب أن يُغامر المسافر متنكرًا في شخصيته الشرقية بالذهاب إلى هناك إذا لم يشعر بالارتياح تمامًا. من واقع ما سمعت منذ أن ذهبت إلى هناك، يمكنني القول أن نجاحنا يرجع إلى مجموعة من المصادفات التي حالفنا فيها الحظ، وليس بسبب الإدارة الجيدة للأمر من جانبي.

أخيرًا بالنسبة لما يتعلق بالقانون، كانت الحكومة العثمانية تحتفظ بحقها في استبعاد المسافرين الأجانب من دخول الحجاز، وكذلك إخراجهم منها، إذا تم العثور عليهم هناك، بينما تتنصل من أي مسئولية مما قد يحدث لهم جرّاء ذلك الأمر. كان هذا الموقف مقبولًا من الناحية العملية من القوى الأخرى، التي لا يُفترض أن يقوم أي من ممثليها بفضح أمر من يقوم بهذه الرحلة سرًّا، حتى يمكنهم الحصول من خلاله على المعلومات. ليس هناك شيء غير قانوني في التوجه إلى هناك خلا كونها مجرد مخالفة للمرسوم. بالطبع يُعدّ الذهاب إلى هناك تحدّيًا لرغبات السلطات وتوصياتها، وهو ما يمكن اعتباره في بعض المناطق جريمة شنعاء.

قائمة المحتويات

المحتويات		رقم الصفحة
معلومات عن الكتاب		
المؤلف في سطور		
أهمية الكتاب		
الفصل الأول	من لندن إلى بيروت	
الفصل الثاني	دمشق	
الفصل الثالث	خط حديد الحجاز	
الفصل الرابع	المدينة	
الفصل الخامس	من المدينة إلى ينبع	
الفصل السادس	جدة	
الفصل السابع	من جدة إلى مكة	
الفصل الثامن	مكة	
الفصل التاسع	الحج	

قائمة الأشكال الإيضاحية

الأشكال الإيضاحية	رقم الصفحة
صورة الحرم المكي في نهاية القرن التاسع عشر	صورة الغلاف
صورة صفحة بيانات الكتاب	
صورة المؤلف في لباس عربي	
شاهد قبر ويفل في إنجلترا	
خط حديد الحجاز	
صورة كتابي جوزيف بتس وريتشارد بيرتون حول رحلتهما إلى مكة	
واقي الظهر	
حلوى الشكلمة	
دبشك البندقية	
الطربوش وحوله الشملة	
حقيبة السرج (الغبيط)	

دكة خشبية مزدوجة للدرجة الثالثة في القطارات القديمة	
الجراموفون	
ستون هينج	
صخرة الضفدع في منطقة "تنبريدج ويلز"	
مدفع "ماكسيم"	
العقال المُقصب	
الأرج	
طاقية صلاة مطرزة	
مشربية	
مشكال	
مدفع عيار 4.7	
علبة بسكويت "هانتلي وبالمر"	
الجرانيت المنقوش	
مدفع الـ 12 رطلًا	
بندقية من عيار "ماوتزر"	
السونكي	
حجر الحمام	
الرصاص المتفجر	
محفة بين جملين	
أركان الكعبة	
مبيد الحشرات "كيتيلنج"	

د / محمد السيد علي عزب

- مدير معهد اللغات ق م بالإسكندرية.

- أستاذ الأدب الإنجليزي "المنتدب" بكلية التربية، جامعة الإسكندرية وجامعة فاروس.

- الأستاذ المساعد بجامعة الملك سعود وجامعة شقراء.

نشر له:

- الأساس في الترجمة، حورس، الإسكندرية، 2008.

- Brush upon your English، البراء، الإسكندرية، 2008.

- Enhance your English Vocabulary، البراء، الإسكندرية، 2008.

- تأثير المفاهيم الثقافية على دراسة اللغة الثانية مع التركيز على اللغة الإنجليزية في الولايات المتحدة الأمريكية، البراء، الإسكندرية، 2009.

- من مسرح الحرب: أمهات الرجال، رادا "ترجمة"، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سلسلة المسرح العالمي، يناير 2010.

- روايات محظورة، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2010.

- اللغة الإنجليزية كما يتكلمها أهلها، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2010.

- قاموس المجاز المصور للغة الإنجليزية، البيطاش للنشر والتوزيع، الإسكندرية، 2010.

- اضحك وتعلم الإنجليزية، دار الإبداع، الإسكندرية، 2010.
- ست مسرحيات تبحث عن ناشر، دار الإبداع، الإسكندرية، 2010.
- مختارات من الأدب الأنجلو- أمريكي، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، 2010.
- اللغة العالمية الموحدة: مقومات النجاح وعوامل الفشل، مكتبة بستان المعرفة، كفر الدوار، 2010.
- صدفة بتجمعنا (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، 2011.
- خيوط القدر (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، 2011.
- شعراء الجيش الثامن البريطاني، من العلمين إلى أورتونا، 1942-1945، آراؤهم ومواقفهم من الحرب (رسالة دكتوراه باللغة الإنجليزية)، لامبرت للنشر الأكاديمي Lambert Academic Publishing، ألمانيا، 2011.
- الحب عبر أعمدة البرق (رواية للكاتبة الأمريكية إيلا شيفر ثاير)، ترجمة، دار طوى للنشر، بيروت، 2012.
- قبر راحيل (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، 2012.
- أرحام سماوية (رواية)، دار العين للنشر، القاهرة، 2012.
- كيف تزيد حصيلتك من مفردات اللغة الإنجليزية وتثريها (مع مي موافي)، دار الوفاء، 2013.
- أمس انتهينا (رواية)، دار مير للنشر، الإسكندرية، 2013.
- الحياة في البلاط الملكي المصري (كتاب للروائي الإنجليزي ألفريد جاشوا بتلر)، ترجمة مع مي موافي، دار ليليت، الإسكندرية، 2013.
- بين الحرب والحرب (رواية)، دار ليليت للنشر، الإسكندرية، 2014.
- أقفال العشق (رواية)، دار ليليت للنشر، الإسكندرية، 2014.

مي محمود سليمان موافي

- مدرس مساعد بقسم اللغة الإنجليزية وآدابها والترجمة الفورية بكلية الدراسات الإنسانية، جامعة الأزهر.
- مدرس مساعد منتدب بكلية اللغة والإعلام بالأكاديمية العربية للعلوم والتكنولوجيا والنقل البحري.
- قامت بالتدريس في معهد اللغات للقوات المسلحة بالإسكندرية.
- تعمل وتحتفظ بعضوية نشطة في العديد من مؤسسات وجمعيات ومراكز ومكاتب الترجمة الدولية والمحلية.
- اشتركت ولها العديد من الأعمال المترجمة ومنها:

- Winning Debates
- U. S. Politics
- Cities of Truth
- كيف تزيد حصيلتك من مفردات اللغة الإنجليزية وتثريها (مع د. محمد عزب)، دار الوفاء، الإسكندرية، 2013.
- الحياة في البلاط الملكي المصري (كتاب للروائي الإنجليزي ألفريد جاشوا بتلر)، ترجمة مع د. محمد عزب، دار ليليت، الإسكندرية، 2013.